د. دلاور محمد صابر

المرأة الحنون

مكانة المرأة في الإسلام وعظمة هذا الدين

دار المعرفة

المرأة الحنون

مكانة المرأة في الإسلام
وعظمة هذا الديـن

٢١٠/٤
صدم

المرأة الحنون

مكانة المرأة في الإسلام وعظمة هذا الدين

د. دلاور محمد صابر

دار المعرفة
بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953-85-126-3

الطبعة الأولى
1428 هـ \ 2007 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing

جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

في الواقع وقعت أنظاري على كتاب صدر في ألمانيا يحمل عنوان: «مستقبل الحياة في الغرب» لمؤلفين ألمانيين، وقد تُرجم الكتاب من قبل الكاتب الجزائري (أبو علي ياسين) إلى العربية، وأنا شخصياً أطلقت على هذا الكتاب اسم: «حاضر الحياة في الغرب» إذ وجدته أكثر ملاءمة مع مضمونه.

لمست في هذا الكتاب أموراً خشيت أن تؤثر على شبابنا سلباً ـ خاصة بعد أن تُرجم إلى العربية ـ فوجدت نفسي مُلْزماً بذكر مساوئ ذلك المستقبل الذي يراه هذان الباحثان ـ مع الأسف ـ بأنه تطور وتقدم، إذ لا يرى الفرد في الحقيقة من هذه الحياة التي وصفاها بالمستقبل إلّا حياة حيوانية، وتدميراً واضحاً للحياة وتهميشاً لحياة الأطفال ومستقبلهم.

فالحياة التي يصفها الكاتبان حياة تبيح الخيانة الصريحة لكل من الرجل والمرأة على حد سواء.

وإنه لمن العجب العجاب، أن المؤلفين يشيدان بتلك الحياة

الهمجية ويقدمان لها أمثلة رائعة وواقعية ـ حسب تصورهما ـ ومنها حياة قيصر كرة القدم (فرانس بيكنباور) الذي أدهش العالم في ملاعب كرة القدم في القرن الماضي ـ حيث أنهما (أي المؤلفين) يشيدان بحياة ـ قيصر الكرة ـ الاجتماعية التي طلّق فيها زوجتيه وتزوج بثالثة، والغريب أن الكاتبين يبرران ذلك بكل صلافة.

ومن جهة أخرى نرى أن الغرب برُمّته يقذف الإسلام بشتّى التهم لكونه شرَّع قانون تعدد الزوجات، متناسين أن السيد المسيح لم يحرم في حياته تعدد الزوجات، بل ورد في بعض رسائل بولس ما يفيد التعدد، وما لنا إلّا أن نذكر أن المسيحية المعاصرة تعترف به في أفريقيا السوداء وذلك لما رأوا في منع التعدد من الحيلولة بينهم وبين الدخول في النصرانية، لذا نادوا بإباحة التعدد إلى عدد غير محدود، والكاتبان السابق ذكرهما يشيدان بما قام به (بيكنباور) من الزواج بأكثر من واحدة وإن كان قد طلق اثنتين، في الوقت الذي نرى أن الإسلام عظم النكير في الطلاق.

أما مسألة تعدد الزوجات، فإن لها في الإسلام شروطاً محددة، والعدالة كالإخلاص والمحبة والحقوق لكل الزوجات والعدالة بينهن، وإن حاد الرجل عن شروطها فهو آثم في الدنيا ويحاسب عليه في الآخرة، وشتان بين ما فعل (بيكنباور) وظاهرة تعدد الزوجات والطلاق في الإسلام، وليس هناك أدنى وجه

للمقارنة بين الحالتين، فما قام به قيصر كرة القدم هو من أجل اللذة، وهو بفعلته هذه يُعد رجلاً أنانياً لا يبالي بمصير زوجتيه اللتين طلقهما وكذلك مصير أطفاله، بينما رسولنا الكريم ﷺ يعظم النكير في الطلاق، إذ يقول ﷺ: «**أبغض الحلال عند الله الطلاق**»(1)، هكذا حافظ ديننا الحميد على حقوق المرأة.

وذكرت في مؤلفي هذا حقوق المرأة في الغرب، وقارنت حياتها بحياة المرأة في شرقنا من حيث حقوقها الاجتماعية والسياسية، كما بينت بتفصيل علمي دقيق مقاصد بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تخص المرأة في ديننا الحنيف، وكثيراً ما يُفسر تلك الآيات والأحاديث من قبل الجاهلين بعلوم القرآن بشكل غير صحيح - بل زوراً وبهتاناً بديننا المجيد - ويظنون أنه من تكلم العربية باستطاعته أن يفسر القرآن من معانيه الظاهرة، كأن يقول: إن معنى الآية القرآنية الكريمة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34] يعني: أن الرجل هو بمثابة دكتاتور متجبر على المرأة، وله الحق في ضربها وطردها وإيذائها وإلى آخره من المعاني التي تروق لهم، ولكن خاب ظنهم، متناسين أن من يفسر القرآن يجب أن يكون ملمًّا بعلوم كثيرة كالنحو والصرف والفقه والتأريخ وإلى آخره من العلوم، وعندئذ يحق للفرد أن يدخل في تفاصيل التفسير.

كما أني ذكرت موضوع تعدد الزوجات وأسبابه العلمية

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 2178)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2018).

الحقيقية والثابتة التي لا يمكن أن يغيرها أحد؛ لأنه موجود ومتأصل في جينات الإنسان ـ إن صَحَّ التعبير ـ وهذا السبب العلمي لم يُذكر في أي كتاب ديني أو إعجاز علمي، إلّا أنني استفدت منه وجعلته يتلاءم مع ما جاء في ديننا الحنيف، ليعلم كل إنسان أنه عندما شَرَّع الله التعدد كان هناك سبب علمي ثابت، إذ لم يذهب أحدٌ إلى ذلك السبب بهذه الدقة ليقينا شرَّ الجَدَلِ في التعدد منذ نشأتها وإلى يوم يبعثون.

كما وذكرت في كتابي أيضاً العنف الذي يمارس ضد المرأة باسم الدين، والدين بريء من ذلك، وهو كالجرائم التي تمارس أحياناً ضد الأبرياء باسم الدين والدين نفسه يأبى العنف، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فالدين قدَّر المرأة ووقَّرها كثيراً، وقد نزلت بشأنها آيات كثيرة، وأحاديث شريفة ترفع من شأنها، وتلزم الرجُلَ معاملتها بالمعروف.

هذا وقد تطرّقت إلى موضوع الميراث بين الأنثى والذكر، وهو الموضوع الذي يحاول بعض المعاصرين أن يُغَيِّروه بحجة أن النفقة في القديم كانت على الرجل، لأنه هو الذي كان يعمل من أجل تأمين لقمة العيش لأسرته، بخلاف المرأة، أما الآن فقد تعلمت المرأة وعملت (كالرجل دون فارق)، فوجب اقتسام النفقات بصورة متساوية. وهكذا فتح الباب للتسوية الكاملة بين الرجل والمرأة ليس في (الميراث) فحسب بل في كل ميادين الحياة.

فالإسلام نظام متكامل لا يجب أن يؤخذ بجزء منه ويهمل

الجزء الآخر، ثم لينظر القارىء الكريم وليقرأ موضوعي في هذا الكتاب بعنوان: «حق المرأة في الميراث..» هل المرأة مظلومة أم رابحة في نظام الإسلام؟ فسوف يجد الجواب الشافي هناك.

وليتذكر أعداء الدين جيداً قول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ (جبار الجاهلية) حين قال: «كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً، فلما جاء الإسلام وذَكَّرَهُنَّ الله رأينا لهن بذلك علينا حقاً»، فهذا الجبار حين أسلمَ وبايع على السمع والطاعة في المَنْشَط والمكره، رأى أن للنساء عليه الحق الذي ذكره الله تعالى، وما كان له ولا لغيره إلّا أن يسمع ويطيع طاعة مطلقة، ولو ورَّث الله المرأة أضعاف الرجل! هذا هو المؤمن الصحيح، وهكذا يجب أن يستسلم العبد لِرَبِهِ.

وأخيراً أود أن أشكر الأستاذ محمد ملا مصطفى هيراني المشرف التربوي في اللغة العربية بوزارة التربية في إقليم كردستان العراق، جزيل الشكر، لقيامه بمراجعة هذا المؤلف من الناحية اللغوية، والله الموفق.

الأُستاذ الدكتور

دِلاور محمد صابر

أربيل - إقليم كردستان العراق

حديث المصطفى ﷺ عن المرأة وأسرار علمية جديدة حول دماغ حوّاء

حديث المصطفى ﷺ: **«المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت وفيها عِوَجٌ»**[1].

هل هذا الحديث الشريف هو انتقاص من مكانة المرأة؟ أم هو كشف عن صلاحها لمهمتها التي خُلِقت من أجلها؟

أُثير عن هذا الحديث أقاويل وتأويلات غير صحيحة أو غير دقيقة، بَيْدَ أنه حديث صحيح السند دون شك، رواه البخاري عن أبي هريرة على هذا النحو[2]:

عن النبي ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً»**. (كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء).

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 5184).

(2) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، للدكتور محمد بلتاجي، ط: 2000، بتصرف.

كذلك أورده مسلم في كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء، حيث أورد في الباب أولاً حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[1]، ثم أورد أربعة أحاديث عن أبي هريرة على النحو التالي: قال رسول الله ﷺ: «إن المرأة كالضلع، إن ذهبت تقيمها كسرتها، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «إن المرأة خُلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»[3].

وعن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقَت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيِّمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج... استوصوا بالنساء خيراً»[4].

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 3628).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 3629).

(3) أخرجه مسلم في (الحديث: 3631).

(4) أخرجه مسلم في (الحديث: 3632).

قال رسول الله ﷺ: **«لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»** أو قال: **«غيره»**[1].

وقد لغط بعض من لم يفهم الحديث ولا سياقه بأن فيه تحقيراً للمرأة وازدراءً لها.. وهذا غير صحيح إطلاقاً لما يلي:

أولاً: روايات الحديث كلها جاءت في سياق الإعلاء من قيمة المرأة واعتبارها، حيث أورده مسلم بعد حديث أن خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، وليس فوق هذا من اعتبار حيث جُعِلَت المرأة أعظم ما يكنزه الإنسان في دنياه من كنوزها حين تكون المرأة صالحة. إذن فنبينا ﷺ جعل المرأة أعظم وأثمن من الأموال والقصور وكل ما يملكه الإنسان في الدنيا.

وفي الحديث الثالث عن أبي هريرة - فيما يرويه مسلم[2] - أتت الوصية بالنساء بعد أمر النبي ﷺ بأنه: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء ...»**. وكأنني بهذا الأمر الذي تشير إليه هذه العبارة أرى أمر خلاف وقع بين رجل وامرأة بعامة، أو بين زوجين خاصة، وهنا يشدد النبي ﷺ على من يشهد هذا الخلاف، أو يحكم فيه أن يتكلم بخير وصلح وتقريب بين المختلفين، وأن يستوصي في ذلك بالمرأة خيراً.

وكذلك فإن حديث أبي هريرة الأخير يزيد في الوصية

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 3633).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 3632).

بالمرأة (الزوجة) خاصة، ويرشد النبي ﷺ الأزواج إلى أنه لا ينبغي أن يفرك (يعني: يبغض) الزوج الزوجة، فإن لم يعجبه شيء منها فليوازنه بأشياء أخرى فيها تعجبه، فإذا كان فيها شيء من الشدة في معاملة الناس مثلاً عَوَّضه أن تكون عفيفة ذات دين قويم أو جميلة ترفق به هو . . . أو نحو ذلك[1].

ويلحظ الفرد أن الرسول ﷺ في كل أحاديثه الخاصة بالمرأة يدافع عن المرأة ويناصرها. ويُذَكِّرُ الرجل إذا لاحظ في زوجته شيئاً يبغضه بها، فليوازنه بأشياء أخرى فيها تعجبه، إذن فالرسول ﷺ في كل سياقاته يوصي ويُكَرِّم ويرفع من منزلة المرأة، وليس فيها ما يهينها خلافاً لما يدّعي به أعداء الدين.

ثانياً: أما عبارة: «إن المرأة خلقت من ضلع . . .» فهي - فيما يبدو - إشارة إلى قوله تعالى في مفتتح سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: 1]، أما النفس الواحدة فيعني: آدم ﷺ وأما ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ فيعني: حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم[2]. ويقول الدكتور محمد بلتاجي: وقد ورد في الإصحاح الثاني من «سفر التكوين»: «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة

(1) شرح النووي على مسلم (3/ 658).

(2) تفسير الطبري (4/ 224).

وأحضرها إلى آدم فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة؛ لأنها من امرىء أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً، وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان».

ثالثاً: أما قوله ﷺ: «**إن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج.. فاستوصوا بالنساء..**». فلم يقل النبي ﷺ فيها إلا حقاً وواقعاً ملموساً لا شك فيه، ذلك أن أعوج شيء في الضلع أعلاه، وأنه إن حاولت أن تجعله مستقيماً كسرته، وأنه لا ينتفع به في الجسد إلّا على شكله المعوج، لأن اعوجاجه هذا هو الذي يشكل القفص الصدري الذي يحمي القلب وأعضاء الجسم الهامة.

وكأني بالصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ يقيم تناظراً واضحاً بين شكل الضلع الذي خلقت منه حواء، وطبيعة المرأة المخلوقة من هذا الضلع، ليُنبه على خصوصية في هذه الطبيعة، ينبغي ألا يغفل عنها المربون والآباء والرجال جميعاً في تربيتهم للمرأة والتعامل معها بعامة.

وكأني به ﷺ يبين أن خلق الله تعالى لآدم اختلف عن خلقه لحواء، وأن الرجال ورثوا عن أبيهم آدم طبيعة خلقه، وأن النساء ورثن عن أمهن حواء طبيعة خلقها، فعلينا أن نعي هذا الفارق الهام في الطبيعة، وأن نراعيه في تربية كل منهما والتعامل معه.

أما أن نتجاهل هذا الفارق ونطلب من المرأة أن تكون مثل

الرجل تماماً فهذا مثل الذي يكسر الضلع، يطلبه مستقيماً لا اعوجاج به، وحينئذ لا ينتفع بالضلع في الجسد، وتُطَلَّق المرأة إن كانت زوجة، وكسرها طلاقها، أو تنقطع العلاقة بينهما على وجه العموم.

يقول الداعية المرحوم محمد متولي الشعراوي[1]:

«إن هذا الحديث الشريف ليس فيه ما يشير إلى الانتقاص من المرأة بأية حال، بل هو كَشَفَ عن صلاحها لمهمتها التي خُلقت من أجلها، لنتصور أن الضلع خُلِق مستقيماً، هل كان ليؤدي مهمته في صدر الإنسان؟ لا، إنما اعتداله لمهمته أن يكون منحنياً!.. وإذا ما حاولنا جعل الضلع مستقيماً كسرناه وفقد مهمته الأصلية في حماية القلب والرئتين والأحشاء، وكذلك الأمر في المرأة حين تحاول تغيير طبيعتها في كونها رقيقة وعاطفية، والأم تحنو على براعم الطفولة كالضلع الذي ينحني محيطاً بالقلب باعوجاجه كله!..».

والآن جاء دوري لأُجانب رأي كل من الدكتور محمد بلتاجي والشيخ الشعراوي، وأقول: نعم انحناء الضلع هنا هو لفائدة عظيمة، وعلى افتراض أن الضلع كان مستقيماً، كان في ذلك الحين فَقَد مهمته الأصلية لحماية القلب والرئتين، فتشبيه الرسول ﷺ المرأة بهذا الشكل وتوضيح ما يقصده من قِبَل أبناء أمته، هو على أعظم ما يكون.

(1) مجلة الفترى، عدد 77، 1999، صفحة: 17.

فهل المرأة فعلاً ـ إذا ما أردنا أن نبين ذلك علمياً ـ تختلف عن الرجل في هذا المجال؟... قبل الخوض في الإجابة عن هذا السؤال، أنا واثق كل الثقة كأب، لو وَكَّلتني زوجتي في أن أعتني بالمولود الجديد كما تعتني هي، وأن أقوم بالليل ساعات، كما تقوم هي، وأن أسهر الليالي كما تسهر هي، لما عاش لي طفل واحد من أطفالي الأربعة، وليس هذه صفتي الخاصة كرجل، إنما هي صفة كل الرجال، من ينكر كل ذلك؟ هل حنان الأم لطفلها يمكن أن يمنحه الرجل كما هي تمنحه لأطفالها، بالأحرى (للرضع)، إنه غير ممكن ومستحيل.

ففي كثير من الليالي عندما كان أحد أطفالي يبكي كنت أقول: بدأت تبكي ـ وهي طفلة ـ من جديد وأنا لا أستطيع النوم، وغداً لديّ واجبات كثيرة ومحاضرات كثيرة فكيف أؤديها؟!.

إذن لو حاولنا منع المرأة القيام بواجباتها، وخصوصاً أثناء الليل، من حيث الاهتمام بطفلها، والسهر من أجله، أما تغضب علينا كرجال؟ أما نزعجها؟ وهي الحنون الوحيدة على طفلها، إنها فعلاً تستحق كل الود والاحترام، وإذا منعناها عن القيام بدورها، أما نكسر الضلع الأعوج الذي أحاط بالطفل؟ أي أما نكسر خاطرها؟ الضلع الأعوج في إحدى دلالاته هنا مجاز لانحناء المرأة وشدة عاطفتها وحنانها نحو الطفل.

والآن لو منعنا المرأة عن الاهتمام بطفلها كما قيل آنفاً، أما تنفعل؟ أما تغضب؟ أما تصيبها الكآبة والضغط النفسي والقلق وحالة من الازدراء والشعور بعدم الإحقاق في حقها؟ إنها تصبح ناراً من الغضب بلا شك ولكن لأجل من؟ لأجل طفلك أيها الرجل! لا يخفى أنه طفلها أيضاً، ولكنها حريصة على سلامته أكثر منك . ولعل من قائل يقول: أين برهانك العلمي لتوضّح لنا الاختلاف بين الرجل والمرأة؟ العلم الحديث بتقنياته برهن الاختلاف بين الرجل والمرأة، فدعني أن أبين لك ذلك أخي القارئ وكالآتي:

في سنة 1999م تمت ترجمة مقالة من «واشنطن» بعنوان[1]: «المرأة وكهرباء الانفعال.. تصيب أكبر ومضاعفات أخطر..» ويوضح لنا هذا الكاتب أسرار علمية جديدة «حول دماغ حواء»، مستهلاً كتابته ببعض من الأسئلة والأجوبة كالآتي: هل تختلف استجابةالدماغ لدى المرأة عنها لدى الرجل فيما يخص الانفعال والضغط النفسي؟...

أخذَت دراسة نفسية أجراها علماء النفس والاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية تقول: نعم.. وتضيف: إن استجابة الدماغ لدى الذكور تختلف كلياً عن استجابة الدماغ لدى الإناث

(1) عبد الله رشيد، زهرة الخليج، 1999، العدد 1062، تموز، وهو بحث علمي صرف ـ لا علاقة له بالدين ـ ولكني استفدت منه بما يتلائم مع موضوعي وهو (حديث الرسول الذي أنا بصدد شرحه).

في لحظات الانفعال. ولكن ما هي الأسباب العلمية وراء حدوث ذلك؟

كان ذلك هو الغرض الحقيقي من وراء القيام بإجراء هذه الدراسة الشاملة التي أشرف عليها المعهد القومي الأمريكي للصحة العقلية NIMH تحت إشراف رئيسه البروفيسور (مارك جورج).

في البداية تقول الدراسة: لا أحد يعلم بالتحديد لماذا يهاجم الضغط النفسي والأمراض الأخرى المتعلقة بالانفعال (Emotion) النساء أكثر من الرجال؟.. الدكتور (جورج) يقول تعليقاً على ذلك: في الماضي كان من الصعب القول أن هناك اختلافاً بين الرجل والمرأة في أي مجال خوفاً من أن يقال: إن هناك تمييزاً يُمارس من قبل الرجال ضد النساء، ولكن الآن فإن للعلم رأياً آخر.

وقد أصدر المعهد القومي الأمريكي للصحة الذهنية بياناً يَشرح فيه كيفية قيام الدكتور (مارك جورج) وفريقه الطبي بإجراء دراسة طبية شاملة على مجموعة من الحالات لدى كل من الرجال والنساء مستخدمين تقنية حديثة ومتطورة لمراقبة الانفعالات الدقيقة وآثارها في الدماغ.

وقد نشرت الدراسة نتائجها عبر وسائل الإعلام الأمريكية وفي المجلات الطبية المتخصصة وعبر كبرى شبكات التلفزة، وقد استخدم فريق الدكتور «جورج» تكنولوجيا تسمى: مراقبة التوموجرافية للانفعال (positronemission tomography)

واختصارها (PET) ويمكن بواسطتها مراقبة وتتبع المناطق التي تستجيب لأي فعل أو نشاط في محيط الدماغ، وبطريقة السكانر (Scanning) أمكن للأطباء تصوير كل حركة صغيرة في الدماغ وتصوير عمليات الانفعال البشري وذلك للمرة الأولى في تاريخ الطب الحديث.

وقد لجأ الدكتور «جورج» إلى مجموعة من المتطوعين من كلٍّ من الرجل والمرأة ووضع الجميع تحت اختبار واحد، وراقبهم مع فريقه الطبي بنفس الأجهزة دون تمييز أو اختلاف. وقد كانت النتائج مدهشة ومفاجئة للفريق الطبي الذي أشرف على الدراسة وكالآتي:

أولاً: تمّت مراقبة الأجزاء التي تنفعل في الدماغ في لحظات الانفعال وتقوم بدفع الدم أو بالتحديد بـ(دفق) الدم إلى بقية أجزاء الدماغ.

ثانياً: تمّت المراقبة بعمليات التصوير بطريقة PET والسكانر، لعرض النتائج على شاشات العرض بواسطة أجهزة كمبيوتر متطورة للغاية.

ثالثاً: اتضح من التصوير أن عمليات رد الفعل Reactions في الدماغ كانت لدى المرأة أكبر بثماني مرات عن عمليات رد الفعل في الدماغ لدى الرجل.

يقول الدكتور «جورج» تعليقاً على تلك النتائج لإحدى المجلات الطبية المختصة: في البداية كنت خائفاً من طريقة ظهور وعرض المعلومات وترجمة ما ظهر لنا على الشاشة..

ولكن بعد تكرار التجربة على الأشخاص أنفسهم وعلى أشخاص آخرين تأكد لنا أنه على الرغم من عدم وجود أي اختلاف في التركيبة الخَلقِيّة للدماغ بين الرجل والمرأة، إلا أن الاستجابة الانفعالية لدى المرأة أكبر منها لدى الرجل.

وقد أوضح فريق الأطباء الذين أشرفوا على فحص ودراسة الأدمغة أن الهدف ليس إيجاد الفرق في رد الفعل لدى المرأة والرجل، بل لمساعدة كل من الطرفين لمعرفة أنفسهم ومعرفة الطرف الآخر بشكل أفضل.

ولنذكر عنوان المقالة مرة أخرى: «المرأة وكهرباء الانفعال.. نصيب أكبر ومضاعفات أخطر..»، انظر: يقول: مضاعفات أخطر، لكن متى؟ إذا منعناها ـ أي المرأة ـ من القيام بواجباتها التي هي حريصة على أدائها، إذن أما نكسر ضلعه (كناية عن عاطفتها) إذا ما حاولنا أن نكون حاجزاً أمام ما تريد تنفيذه؟!! والغريب... أن الكاتب الغربي هنا يخشى أن يذكر أن هناك اختلافاً بين الرجل والمرأة في أي مجال، خوفاً من أن يقال: إن هناك تمييزاً يُمارس من قبل الرجال ضد النساء.. نعم ربما أنهم يخشون من (وثيقة بكين)[1].. مفردات المرجعية الجديدة، والتي تمثل الفكر النسوي الجديد، والتي هي عبارة

---

(1) أي: أن الأمم المتحدة تعقد مؤتمراً كل سنة (في السنة الأولى يطلق عليه + 1، وفي السنة الثانية + 2، وهكذا)، وتلك المؤتمرات تشبه ورشة عمل لمتابعة تنفيذ توصيات مؤتمر بكين سنوياً حتى يُعقد المؤتمر الدولي الرسمي القادم.

عن مخطط واضح لتدمير المرأة، وتدمير الحضارة البشرية ذاتها ويبدو لنا أن الحضارة الغربية تريد أن تدمر الحضارات الأخرى وعلى رأسها الحضارة الإسلامية بعد أن شارفت هي على الهلاك والتدمير بسبب خضوعها للأفكار النسوية والشذوذ الجنسي والأخلاقي[1]، كان هذا تعليقاً على خشية العلماء الغربيين من الجمعيات التي تدافع عن النساء.. ووثيقة بكين ظاهراً تدافع عن المرأة.. ولكن زوراً وبهتاناً إنما المراد بها تدمير النساء، ودعني أخي القارىء كي أعود إلى إكمال الموضوع العلمي، وكالآتي: حيث يقول البروفيسور «جورج»:

وقد لجأ الفريق الطبي إلى مجموعة من أطباء علم النفس

(1) يواجه العالم الغربي في أوروبا حالة من العقم، حيث أدى الانحلال الأخلاقي والشذوذ إلى عدم تعويض الأجيال العجوز بأجيال جديدة من المواليد، كما أن مؤسسة الأسرة تواجه الانقراض هناك، حيث ترتفع نسب الطلاق والامتناع عن الزواج، كما ترتفع نسبة الأولاد غير الشرعيين، وترتفع نسب الإلحاد، والمثير أن ذلك كله يتناسب طردياً في حالة الدول ذات الوضع الرفاهي الأعلى، وفي أمريكا حيث يتمرد المهاجرون من آسيا والشرق الأوسط ودول أمريكا اللاتينية على برامج تنظيم الأسرة، وهو ما يحافظ على إبطاء شيخوخة المجتمع الأمريكي، وبالنظر إلى الأرقام التي تتفقها أمريكا على الانحلال الأخلاقي نصاب بالدهشة: فهي تقدم ما مجموعه 600 مليار دولار في عام 2020م لتبني الأطفال غير الشرعيين، وتقديم المساعدات العائلية والطبية سوف ترتفع إلى تريليون دولار عام 2030م، وأظن أن الدمار الذي أصاب الغرب يريد أن يشاركه فيه العالم كله ـ خاصة المسلمين ـ كالزانية التي تود أن لو صار الجميع مثلها.

وعلم الاجتماع لمتابعة كل حالة على حدة، فكانت النتائج كالآتي:

أولاً: يلجأ الرجال بشكل عام في لحظات الانفعال إلى ردود أفعال قوية ـ وأحياناً عدوانية ـ واللجوء إلى أذى النفس عن طريق اللجوء إلى الحبوب المهدئة أو تناول الكحول.

وللتعليق على الفقرة الأخيرة أود أن أشير إلى رد الفعل القوي عند الرجل، ـ وأحياناً تكون عدوانية ـ أيها الرجال.. أما تتذكرون انفعالاتكم الصاخبة أثناء الليل عندما يبكي أطفالكم الرضع؟

أما قد انتقلتم إلى غرف أخرى وتركتم الرضيع وأمه في تلك الأثناء؟.. وفضلاً عن ذلك، ربما تقولون ما تقولون من كلمات تزعج وتقلق زوجاتكم..

أما تنزعج منكم المرأة وتقول: هؤلاء هم الرجال؟.. أم ماذا؟.. ويستمر البروفيسور جورج ويذكر النقطة الثانية.

ثانياً: تلجأ النساء على النقيض من الرجال إلى كتمان وإلى ردود أفعال داخلية أقل حدة من الرجال وأقل عدوانية تجاه النفس.

وها هي المرأة الحنون التي نراها على النقيض من الرجال.. إنها تسكت وتكتم في داخلها كل شيء، فلو كان كل من الرجل والمرأة عدواني الطبع.. لمات الرضيع!! إذن أليس هذا التكامل بين طبيعتي المرأة والرجل من عظمة الله جل وعلا؟

ثالثاً: خرج علماء النفس والاجتماع بنتيجة مفادها: يلجأ

الرجال في لحظات الانفعال إلى حلول (عدوانية) بالضغط النفسي (Depression) والقلق (Anxiety) وخلل في النوم وتناول الطعام.

كان يبدو غريباً قبل سنوات، لو قيل: إن دماغ المرأة كدماغ الرجل. . . نعم إنهما متساويان من الناحية التركيبية، ولكن انفعال المرأة وتأثرها أكثر من الرجال بثمانية أضعاف، والحمد لله أن للمرأة حنان أكثر بكثير من الرجل، وإلّا لما كانت تعطف على أطفالها، وما كانت تسهر من أجلهم، وأنا أرى بهذا الاختلاف، أن الله جل وعلا أودع نعمة في النساء، وأنهن يُؤجرن عليها في الدنيا والآخرة، إذن كيف لا تقلق المرأة على طفلها الذي يبكي؟

ولا يخفى علينا هنا أن نذكر شيئاً، وهو: أن المرأة في شرقنا الإسلامي رغم أنها تسهر الليالي على أطفالها ـ لحنانها الذي قيل الكثير عنه ـ فإنها في الوقت نفسه تتلذذ كثيراً، وتنشرح لهذا الواجب؛ لأنها قد أدته تجاه أعز مخلوق عليها، وهذا الأمر يريحها كثيراً، وهذه الراحة يَعْجَز القلم عن وصفها.

أمّا لو استُغِلّت هذه العاطفة والانفعال لدى المرأة لمشاكل (خارج منزلها) إضافة إلى واجبها الآنف الذكر، فإن تلك المعضلات قد تقضي عليها وتؤدي إلى إصابتها بأمراض كثيرة منها: القلب والسكر وغيرها من أمراض العصر.

رابعاً: النتيجة النهائية كما يقول علم الاجتماع: إن امرأتين من كل أصل ثلاث نساء في العالم تعانيان من الضغط النفسي

والقلق، إذن هل يجوز لنا أن نكرس على المرأة أن تقوم بواجبها في المنزل إضافة لواجباتها خارج المنزل؟

إن منظمة الصحة العالمية (WHO) تصف القلق والضغط النفسي في الوقت الحاضر كرابع أسوإ مرض يُعاني منه الإنسان، ولكن الدراسة التي أجراها فريق الدكتور (مارك جورج) في الولايات المتحدة تقول: إن القلق والضغط النفسي مرشحان لأن يَحْتَلَّا المركز الثاني في قائمة أخطر الأمراض التي تصيب البشر بحلول عام 2020م، وقد يكون السبب في تزايد حالات الإصابة بأمراض القلب.

وأحد الأرقام التي خرجت بها الدراسة تشير إلى أن 17,1٪ من مجمل الأمريكيين من المحتمل أن يكونوا قد أصيبوا أو أنهم مصابون بالضغط مرة في حياتهم. وطبقاً للدراسة فإن القلق والضغط النفسي من أكثر الأمراض شيوعاً في الولايات المتحدة الأمريكية، وتصاحب ذلك أعراض أخرى مثل: الصداع المزمن، الدوخة، الأرق، ارتفاع الحرارة ونسبة إفراز العرق من الجسم، ويُهاجم القلق ما بين ثلاث إلى ست ملايين أمريكي سنوياً وثلثا هؤلاء هم من النساء، والغريب أن حوالي تسع من أصل عشرة مصابين هم من الإناث من صغار السن، هؤلاء يُصَبْنَ عادة بالقلق والضغط النفسي المصاحب للخلل والعجز في تناول الطعام. فإذا نظرنا مليّاً إلى النقطة الرابعة نرى أن ثُلُثَي المجتمع الغربي من النساء أُصِبن بالضغط النفسي والقلق ولكن ما أسباب ذلك؟

يقول الشعراوي رحمه الله[1]: من يحاول أن يُخرج المرأة من مهمتها أو يُخرج الرجل من مهمته فقد أحال، ومعنى أحال: وضع الأمور في غير نصابها.

فالمرأة التي تتجه وتتحرك بشكل مغاير ومعاكس لفطرتها وعقيدتها، وترمي نفسها في مجرى (الوأد الحديث) بشكل ترقن نفسها بنفسها لن تنال الراحة أبداً، فمن العجب أن تجد المرأة موؤودة تحت تراب الثقافة العصرية، وغطاء التقدم والحرية الفاشلة على حساب ماذا؟ على حساب أخلاقها وكرامتها ومستقبلها»[2].

لن ترتاح المرأة إذا عاشت بشكل معاكس لفطرتها، لا في دولنا الشرقية فحسب، بل حتى في الدول الغربية، وخير مثال على ذلك هو الحالة التي يرثى لها في هذه الدول حيث فيها نسبة النساء اللاتي يعانين من الضغط النفسي والقلق 75٪ كما جاء آنفاً، إذن هل يفيدهن ثراء بلدهن وقصورهن في هذه البلاد؟ إذا كان التقدم العلمي الشامخ في مثل هذه البلاد لا يريح أفرادها فما فائدة العلم والتقدم هذا؟ لقد عشت في الغرب حوالي سبع سنوات، وكنت خلال تلك الفترة أعِدُّ يوماً بعد يوم للوصول إلى موعد عودتي إلى بلدي (إقليم كردستان العراق) بعد إكمال دراستي. . في الحقيقة، الغرب يدمر هذه الأمة فكراً وسلوكاً بوسائل خبيثة وحقيرة هي من صفاتهم وبشتى الطرق، حيث

(1) المرأة كما أرادها الله، ص: 38.

(2) المرأة والثقافة العصرية ـ الأستاذ ناجي عبد الله محمد المرسي. بتصرف من المؤلف.

وقعنا فريسة لمخططاتهم وغزوهم الأخلاقي الذي يحمل اسماً جديداً وفي إطار براق، وداخله يحمل الفساد (الثقافة) بزيها الجديد، إنها الثقافة الأوروبية، ثقافة لا تنتمي لتراثنا الأصيل، ففي الغرب أُهينت كرامة المرأة وعزتها، وجعلت سلعة في متناول المرابين بأساليب متنوعة لاستغلال الأمثل والخبيث لهذه الحرية والكرامة.

إذن أين هي حقوق المرأة في أمريكا؟ حيث على لسان الدكتور (روبرت كوين) الأمريكي يصرح هذا الرجل ويقول: في أمريكا يقتل مليون ونصف طفل سنوياً من جراء عمليات الإجهاض، فهم يعدّون الأطفال مصدر إزعاج، وهذا مُحال عند المسلمين، لأن الإسلام يحترم حقوق المرأة في تجهيض الجنين في الثلث الأول من الحمل حصراً، وقبل أن تنفخ الروح في الجنين وعند الضرورة فقط.

إذاً أين هي حقوق الإنسان في أمريكا؟ وأين حقوق المرأة؟ فكيف لا يصاب حوالي 75٪ من النساء في أمريكا بالضغط النفسي والقلق؟ وأردفَ يقول: «وفي الولايات المتحدة تضاعف معدل الطلاق في السنوات العشر الأخيرة، وكان له أن يرتفع أكثر لولا أن الناس لم يعودوا يهتمون بالزواج، فهم لا يملكون مفهوم الأسرة وأصبح نفوذ الشواذ جنسياً من القوة بحيث استطاع جعل القانون يعترف بوجودهم (كعائلة) مما يعطيهم الحق في الإعانات الاجتماعية».. ولهذا أقول: إن إتمام التقدم في أمريكا يجب أن يكون بإتمام إدخال الإسلام فيها وتطبيق المبادئ

الإسلامية، وسيجد الكثيرون من المتمسكين بدينهم من النصارى واليهود أن تعاليم الإسلام موجودة في كتبهم (غير المحرفة) بل وجدها كثيرون منهم!).

فمعدل الطلاق زاد في أمريكا... فأعود لنفس السؤال المكرر مرات، ألا تستحق أن تُصَاب 75٪ من النساء هناك بالقلق والضغط النفسي؟! أي نظام هذا؟ ما هي مبادئهم؟ إنها مبادئ الغاب.. ولعل الشيء الغريب الذي يلفت نظري هو: إذا كان حسب تجربة الدكتور جورج والذي يقول: «على الرغم من عدم وجود أي اختلاف في التركيبة الخَلقية للدماغ، إلّا أن الاستجابة الانفعالية لدى المرأة أكبر منها لدى الرجل..»

ما هو إذن سبب اختلاف الانفعالية لدى كليهما؟ وواضح من أن مُخهما من الناحية التركيبية لا فرق بينهما، ما منشأ هذه الانفعالات، أو ردود الفعل المختلفة؟ هل هي مادية؟ أو هو شيء آخر؟.. إذا قلنا: إن المخَّين يختلفان في الرجل والمرأة من الناحية التركيبية فهذا الأمر بُرهن على بطلانه آنفاً، وإذا قلنا: إن المخ هو الذي يفكر ويتأثر وينفعل ويعقل... إذ كيف يفكر المخ وهو مادة غافلة عن وجودها؟ لا تعرف بنفسها ولا أقسامها ووظائفها. أليس هذا اعترافاً بوجود نشاط آخر في غير نطاق الجسد يجهل الإنسان كنهه ويقوم له باطن خفي؟ أليس ذلك اعترافاً بالروح؟ وفي غيابها بطل التفكير.. من الذي يفكر ويعقل؟ لا شك أنها (الروح)، أمّا المخ فهو آلة للإدراك. ومن منح الروح للإنسان؟ ومن وضع فيها الفطرة؟

الفطرة ليست مادة تلمس..، فالمخ هو آلة للإدراك واستعداده لذلك كاستعداد آلات النجار والصائغ للعمل، فالنجار وإن كان قادراً في صنعته، ماهراً في مهنته إلّا أنه لا يستطيع أن يعمل ويقطع ويُطقم ويزخرف إلّا بآلات يستخدمها، فالروح تستخدم العقل للتفكير كما يستخدم النجار آلته. والدكتور (جورج) صاحب التجربة السابقة لا يعرف عن الروح شيئاً، ليقول لنا: إن ردود الفعل المختلفة من الرجل والمرأة نابعة من الروح، فتلك الردود، إنما هي شيء روحي غرسها الله بشكل يتناسب مع الجنس، فإذا غُيرت الفطرة في المرأة أو الرجل بما يروق الدول الغربية، حدثت الفوضى والضغط النفسي والقلق كما حدث ذلك بنسبة 75٪ للنساء في تلك الدول، في التجربة السابقة للدكتور جورج.

إذ أني فيما سلف ذكرت أمثلة على أن للمرأة خصائصها النفسية وأن النبي ﷺ نبهنا إلى أن هناك اختلافاً في خصائصها النفسية عن مثيلتها في الرجل، وقد أثبت العلم ذلك، وكما دلّت التجارب العلمية على ذلك. لذا يجب على الرجال مراعاتهن بما يتلائم مع خصائصهن. فصدق رسول الله ﷺ عندما قال: **«فإن المرأة خلقت من ضلع، ولن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»**[1].

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 3631).

ولعل ذكر دراسات أخرى تبين لنا المدى التي وصلت إليها المرأة من الضغط النفسي والقلق، وعدم السعادة في الحياة، ويزيدنا علماً بما وصلت إليه المرأة الحنون في عصرنا هذا، حيث يقولِ الدكتور مصطفى السباعي[1]: إنه في آب 1962 نشرت مجلة ألمانية (دبكستيل بيكلايدونج) الصادرة في مدينة دوزلدورف عن طبيب ألماني يدعى: البروفسور دكتور كلاين (Klein) رئيس أطباء المستشفى الحكومي للنساء في مدينة (Ludwiksburg) في مؤتمر الأطباء هناك: إن ثلاثين في المائة من النساء في مجتمعنا لسن سعيدات في حياتهن، بسبب المتطلبات الجسمية والروحية المتصاعدة، وعلى هذا فإنني أعلن التغيير العام لعلم الطب. إن الواجب على (المجلس البلدي) أن ينظر إلى هذه الفاجعة التي تحل بكثير من نسائنا العاملات بعين الجد والاعتبار، إن هذا الخطر يهدد كثيرين منا، لأن هذا معناه انهيار عظيم وخسارة مزدوجة لملايين من البشر. فالبناء الجسدي والروحي لدى النساء يختلف اختلافاً كبيراً عن تركيب بنية الرجال القاسية المتينة.

نعم إن الإحصائية التي ذُكِرَت حول عدم سعادة النساء في حياتهن البالغة (30٪) كانت في سنة 1962، والإحصائية التي ذكرت في بداية الموضوع تشمل ثلثي المجتمع الغربي من النساء، وهذه الإحصائية كتبت في سنة 1992. فلنقارن بين هذا

(1) المرأة بين الفقه و القانون. بتصرف.

وذاك فإن هذه الزيادة (بعد حوالي 40 سنة) في نسبة عدم السعادة والضغط النفسي والقلق تعد مخيفة ومهلكة، فتجربة الدكتور (جورج) في أمريكا تأييد في مضمونها لحديث رسولنا، والذي ينبهنا فيه أننا يجب أن نراعي المرأة كثيراً، ولا نكدس عليها الواجبات الكثيرة التي تُتعِبها؛ لأن المرأة لا تتحملها، بل قد يؤدي إلى كلل في أعصابها.

ويذكر السباعي في كتابه ناقلاً عن الأطباء في المجلة نفسها (سنة 1962م): إن في الجمهورية الألمانية الاتحادية اليوم حوالي سبعة ملايين من النساء العاملات، وهذا أكثر من ثلث المجموع من عدد العمال. إن أكثر من ثلث النساء متزوجات، ومعظمهن أمهات أطفال في سن السابعة، وهؤلاء الأطفال بحاجة إلى عناية الأم، إن هذا العبء المثلث على تلك النساء هو السبب الوحيد الذي يؤدي إلى تدهور حالتهن الصحية التي بدورها تؤدي إلى تدهور الطفولة، ومن ثم المجتمع ككل.

إنه من المعروف أن البناء الجسمي والروحي لدى النساء يختلف اختلافاً كبيراً عن تركيب بنية الرجال القاسية المتينة. إنه ليس داعياً للتعجب أن تعطينا الإحصاءات الطبية الصحيحة في المجتمع الألماني أن كل ثامن امرأة تُعاني مرضاً في القلب وفي جهاز الدوران الدموي.

إن التقارير الطبية ترد هذا إلى التعب غير الطبيعي، إن نسبة وجع الرأس الدائم عند العاملات هو أكثر بسبع مرات من تلك

اللاتي في البيت بدون عمل، والمرض الجنسي من موت الجنين أو الولادة قبل الأوان، هو كما يتخيل أنه الوقوف الدائم أو الجلوس المنحني أمام منضدة العمل أو الحمل الثقيل غير الاعتيادي، لا بل هناك العامل النفسي الذي هو الأساسي، ومن المعروف اليوم أن التشويه عند النساء: تضخم الرجلين، أو تضخم البطن أو غير ذلك، يعود إلى الحالات النفسية التي تقاد من الدماغ ومركزها في النخاع الشوكي الذي قد يؤدي إلى الشلل أو العاهة الجسمية.

بعد كل هذا فهل آن الأوان أن نعفي المرأة عن واجباتها الكثيرة حتى لا تكون تحت الضغط النفسي والتعب الجسدي، فإنها إذا كلّفت بهذا الأعباء الملقاة عليها، فإنها كمربية أجيال تتدهور حالتها الصحية، وتتدهور حالة أطفالها، وبالتالي يشمل التدهور المجتمع كله.

فأزيلوا أيها الحكومات عن المرأة الأعباء الملقاة عليها. والغريب أن الكاتب ينقل عن المجلة الألمانية ويقول: إنه ليس داعياً للتعجب أن تعطينا الإحصاءات الطبية الصحيحة في المجتمع الألماني أن كل ثامن امرأة تعاني مرضاً في القلب وفي جهاز الدوران الدموي، وما يدريك ما لإحصائيات هذا القرن في هذا المجال؟ حتماً لو عرفناها، ستكون مرعبة للغاية.

فالحديث الذي كنا بصدده في مستهل الموضوع: «**المرأة كالضلع**...» اتخذه بعض من المخالفين مجالاً للطعن في

الإسلام ونبيه ﷺ، ووضع المرأة في شريعته، فعلى النقيض من ذلك يقول الكاتب د. محمد بلتاجي[1]:

أرى أن هذا الحديث من أعلام النبوة وعلامات صدقها، وتكريمها الحق للمرأة ببيان ما يُناسبها ويُلائمها من تربية ومعاملة، ذلك أنني قد تأملت كثيراً أسباب الخلاف بين الرجل والمرأة: بنتاً وزوجة، وأختاً وأماً، فتبين لي أن السبب الحقيقي الذي يختفي وراء ظواهر وأسباب كثيرة معلنة هو أن الرجل يتعامل ـ أو يريد أن يتعامل نفسياً ـ مع المرأة كأنها ـ من حيث التكوين النفسي ـ رجل مثله، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36] كما حكى الله تعالى. وليست الأنثى كالذكر لا فيسيولوجياً ولا بايولوجياً، ولا سايكولوجياً.....

إذن إن ما توصل إليه الدكتور (جورج) ـ في تجاربه العلمية التي ذكرت في مقدمة الموضوع ـ والذي يقول فيها: على الرغم من عدم وجود أي اختلاف في التركيبة الخَلقيَّة للدماغ بين الرجل والمرأة، إلّا أن الاستجابة الانفعالية لدى المرأة أكبر منها لدى الرجل، إذن هذه التجارب تؤكد ما ذهب إليه الدكتور بلتاجي، وهو يقول: وليس الذكر كالأنثى، لا فيسيولوجياً، ولا سيكولوجياً بالرغم من أنه عندما ألف كتابه لم يكن ملماً بهذه التجارب، وفي هذا المجال بالذات.

---

(1) مكانة المرأة في القرآن الكريم و السنة الصحيحة. د.محمد بلتاجي، 2000، بتصرف.

وبعد كل ما مضى هل أعطى القرآن الكريم ودينا السميح الأم الحنون التي ربت الأجيال فأصبحوا رجالاً حقها؟ نعم لأنها حقاً مسحت دموع الصغار حتى أصبحوا رجالاً كباراً، إنها الأخت الغالية، والزوجة التي لم تنم من أجل راحتنا، وإنها تحملت كل عذاب السهر آناء الليل من أجلنا، وإنها بهذه الصفات تستحق حديث الرسول ﷺ: **«الجنة تحت أقدام الأمهات...»**[1] وكذلك: **«استوصوا بالنساء خيراً..»**[2].

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (الحديث: 1/ 401)، وذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (الحديث: 6/ 322).

(2) أخرجه النسائي في (الحديث: 5186).

الحب الارتقائي ونظرة الإسلام

ويشمل المباحث التالية:

- أمثلة عن الحب الارتقائي.
- مصير أطفال الحب الارتقائي.
- نظرة شاخصة في الحب الارتقائي.
- النظام الاجتماعي الذي ينتظر الغرب، إذا تحقق ما ذهب إليه الكاتبان الألمانيان.

الحب الارتقائي ونظرة الإسلام

كتب الكاتبان الألمانيان (غيرد غيركن وميشائيل كوفيتسر) كتاباً بعنوان: «مستقبل الحياة في الغرب»، وتمت ترجمته من قبل: (أبو علي ياسين)، وفي هذا الكتاب يتحدث الكاتبان عن كيفية تحوّل الحب الرومانسي إلى حب آخر، وهو الارتقائي. ولنتابع معاً ماذا نقصد بهذا الحب الذي أرى في الحقيقة أنه قد آن أوانه في الغرب وأنه يُمارس الآن فعلاً، وإن كان الكاتبان يسميانه: حبّ المستقبل.

يقول الكاتبان: نموذج الحب، الذي سيحل مستقبلاً محل الحب الرومانسي ويكتسب لحسن الحظ قوة متزايدة، هو: الحب الارتقائي. هذا التصور الجديد للحب هو نموذج إنمائي، تصور صداقي يهدف إلى نمو شخصي مشترك لكل من الشريكين في العلاقة. هذا يعني: الحب كتصور لارتقاء الإنسان. العامل الرئيسي في هذا التصور للعلاقة هو استمرار تطور الهوية الذاتية. هنا لا يبحث المرء عن السعادة في العلاقة، بل يكون كل واحد مسؤولاً عن سعادته الشخصية.

في المستقبل لن يكون للسعادة أي ارتباط بالشراكة. فسيحققها كل شخص لذاته. الشراكة لن يكون لها علاقة إلا بالنمو، بالتحوّل، بالتشكّل وبناء الهوية الذاتية. المطلب

الأساسي في هذا التصور للحب هو الإلفة ـ فقط ـ لأن الحميمية الروحية بين الشريكين هي أهم وثاق في هذا النموذج من العلاقة. في مجالي: «الجنس» و«الإجهاض» يكون الحب الارتقائي منفتحاً جداً. فترات من الجنس المكثف والتجريبي العنيف يمكن أن تعقبها فترات لا يشعر فيها كلا الشريكين بتلك المتعة مع بعضهما البعض، هذا أمر متقلب، وليس له معيار. هكذا أيضاً الإخلاص، أحياناً قد يكون هاماً. وأحياناً أخرى قد لا يكون هاماً بتاتاً. إذ ذاك يمكن أن يقوم الشريكان عن عمد بالتجريب: يستطيعان مثلاً أن يتفقا على فترات يسمحان فيها لبعضهما البعض بعدم الإخلاص. اتفاقات كهذه ستكون في المستقبل من صميم العلاقة، ذلك أنه خلف التصور الارتقائي تكمن عقلية تعاقدية جديدة. وهذه العقلية ليست مؤسسة على ما هو مادي (عقد الزواج) بقدر ما هو مؤسسة على الصداقة والنماء الشخصي (الارتقاء).

إنه لمن الواضح ـ فيما سلف ـ أن الشريكين يستطيعان مثلاً أن يتفقا على فترات يسمحان فيها لبعضهما البعض بعدم الإخلاص. فهنا يبرز سؤال وهو: هل يتفق الشريكان على أن يصادقا كل منهما شريكين آخرين، وينساقا كيفما يشاءان للحصول على الأخلاء، وكلاهما طبعاً يتفقان بعدم الإخلاص لبعضهما البعض لفترة معينة وبدون زواج شرعي أو رسمي.. ما سمعنا عن هذا الزواج أبداً، وحتى لم يحلم به أحد.

هكذا يتصور الكاتبان الألمانيان أن الحياة الزوجية في

المستقبل ستتطور هكذا، وهذا هو الحب الارتقائي!! وهذا هو الترقي والتسامي إلى زواج جديد عصري متقدم.

وإذا أمعنا النظر فيما كتبه الكاتبان: اتفاقات كهذه ستكون في المستقبل من صميم العلاقة.. يا سبحان الله، يعني اتفاقات الخيانة هذه تصبح من صميم العلاقة بين الرجل والمرأة. ذلك لأنه خَلف التصور الارتقائي تكمن عقلية تعاقدية جديدة، وهذه العقلية كما يُصَنِّفها الكاتبان ليست مؤسسة على ما هو مادي (عقد الزواج) بقدر ما هو مؤسسة على الصداقة والنماء الشخصي (الارتقاء).. يا لعظمة هذا الارتقاء!! يا لهول المصيبة الكبرى، يا لحيوانية هذه الأصناف من البشر، بل الحيوان أكثر غيرة من هؤلاء (عدا الخنزير). والحقيقة للحب الارتقائي الغربي برامج أربعة، فبرنامجه الأول هو: الحب الموقوت، ويُعَرِّف الكاتبان هذا البرنامج كالآتي:

تتحدد العلاقة في النموذج الارتقائي دائماً بما إذا كان النمو ممكناً، ليس للمدة قيمة في ذاتها، إنما يدور الأمر حول نمو وتطور شخصية الشريك، ليست القيمة لمدة العلاقة، بل للنوعية.

علاقة المستقبل، بما أنها ارتقائية، ربما تكون غالباً قصيرة الأمد. فعندما يقدم شريكان على الدوام وقوداً للشراكة، عندئذٍ يكون الافتراق بعد مرحلة من الطريق المشترك شبه موضوع في الحسبان.

لذلك يكون الحب الارتقائي في العادة حباً موقوتاً.

الإخلاص لا يعود مقروناً بالحب والأبدية، والجنس يصبح قوة بناء لتجاوز الحدود، والحميمية تصبح خدمات متبادلة. لا يعود يوجد توافقات قدرية أبدية، بل فقط معاشرات محدودة، حيث لا أحد يعلم متى تتوقف. وهكذا يعيش المرء بصورة متعاقبة في أشكال مختلفة جداً من المعاشرات.

فلنعلق شيئاً على البرنامج الأول ونقول: أي نوع من الحب هذا؟ فالإخلاص لا يعود مقروناً بالحب والأبدية، فإذا كان هناك نية الانفصال في المستقبل القريب أو البعيد، فيعني أنه لا يوجد أي إخلاص حتى في بداية العلاقة بين الشريكين، يقول نبينا ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى**»[1]، فهل يتزوج الفرد بنية الانفصال أو عدم الإخلاص في المستقبل، أهذا عمل إنساني؟! أم ماذا؟ والعجيب ما يقوله الكاتبان: «علاقة المستقبل ارتقائية، ربما تكون قصيرة الأمل» يعني القصد في هذا النوع من الشراكة، الافتراق منذ البداية؟! إذن أين هو الحب؟ فالانفصال أمر محسوم بعد مرحلة من الطريق المشترك، أمّا ما ينتظره الكاتبان فهي النتيجة، وهي كالآتي:

النتيجة: معدلات الطلاق تواصل الصعود، ذلك لأن حياة المرء ستحفل بمعاشرات وزيجات عديدة، وفي المستقبل سيُصبح المبدأ: «الزواج عمل ـ الطلاق نضج». حوادث الطلاق

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 54) و(الحديث: 6689)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 4904)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1647)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 75)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 4227).

ستصبح أكثر فأكثر أموراً عادية، بل حتى أنها سَتُقَيَّمُ إيجابياً كعملية إنضاج، وليس كتصرفات محرجة. مزيد من النساء سوف يتعلمن أن الانفصال لم يعد خيبة، بل سيرونه فرصة لذلك، فإنه ليس صدفة أن نسبة 60 بالمئة من حالات الطلاق تمت بمبادرة النساء ـ والنسبة في تصاعد.

العلاقات المديدة ستصبح في النموذج الارتقائي استثناء، نادراً، لكنها تبقى ممكنة. ذلك لأن المرء بإمكانه اجتياز ارتفاع وانخفاض الأطوار الزخمية والهادئة في العلاقة بفضل الطابع الاتفاقي للحب الارتقائي أكثر مما في المثال الرومانسي.

ومن هنا سيصبح المبدأ مستقبلاً «الزواج عمل ـ الطلاق نضج». . سبحان الله كيف تقنع النساء بأن يكون طلاقهن نضج الرجال؟! أليس هذا الأمر غريباً لهن ولحقوقهن؟! ويقول الكاتبان: حوادث الطلاق ستصبح أكثر فأكثر أموراً عادية، بل حتى أنها سَتُقَيَّمُ إيجابياً كعملية إنضاج. . يا لهول المصيبة لا يعد الطلاق فيما بعد تصرفاً محرجاً!. ثم يعود الكاتبان ليقولا: مزيد من النساء سوف يتعلمن أن الانفصال لم يعد خيبة، بل سيرونه فرصة لذلك.

أليس هذا انقلاباً لا يمكن حتى قبوله؟ فعلى الرجال أن يفتشوا أو يؤسسوا جمعيات تدافع عن حقوقهم ويسمونها: جمعية الدفاع عن حقوق الرجال، كنظيرتها: «جمعية الدفاع عن حقوق المرأة».

أين إخلاص الزوجة للرجل وبالعكس؟ يكفينا أن نطعن

بالزواج الارتقائي بذكر حديث المصطفى ﷺ فيما أدب به أمته وحثها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام، حيث قال ﷺ: **«أوصاني ربي بتسع وأنا أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبراً»**[1].

يا لعظمة هذا الرسول ﷺ، كيف أدبه الله جل وعلا، حيث أوصاه بالإخلاص في السر والعلانية، فالإخلاص عام لجميع الناس والأقربون أولى به ومنهم الزوجة، فإن لم يكن الإخلاص لها فلمن يكون؟.. وليس كإخلاص (بيكنباور) لزوجاته، ولا للخيانة التي يزعمها أهل الحب الارتقائي.

أمثلة عن الحب الارتقائي

يقول الكاتبان الألمانيان: الجيل الأول الذي اكتشف ـ أو سيكتشف ـ الحب الارتقائي كتصور تشاركي معاصر هو اليوم أبناء الثلاثين. بالمقابل من الصعب إلى حدّ ما إيجاد أمثلة رائدة في الحب الارتقائي. ذلك أن كل الفنانين من الرجال والنساء من أمثال «إليزابت تايلور» و«رود ستيوارت»، الذين جمعوا خمس أو ست زيجات، فعلوا ذلك على الأغلب بسبب عدم النضج أو الغرور أو عدم القدرة على إقامة علاقة ثابتة ـ وليس بقصد أن

(1) «العقد الفريد» (2/ 417)، و«عيون الأخبار» (2/ 361).

يتابعوا التطور مع شركاء آخرين. من المؤكد كذلك أن مهووسين جنسياً مثل: (وارن بيتي) أو فراشات العلاقات مثل: (وينونا ريدر) ليسوا أمثلة مناسبة.

خلافاً لذلك يمكن اعتبار (فرانتس بكنباور) مثالاً رائداً في الحب الارتقائي، لقد تابع تطوير نفسه من زواج إلى زواج، أو بالأحرى من امرأة إلى امرأة. زوجته الأولى (بريغيته) جعلت من لاعب كرة في الضواحي غير واثق من نفسه رجلاً، وأدخلت نجم كرة القدم إلى المجتمع المخملي. مع صديقته (ديانة زاندمان) انتقل بكنباور إلى العالم الواسع في نيويورك، صار رجلاً عالمياً ورجل أعمال ـ وأصبح ناضجاً لعلاقة متزنة، فتزوج (زيبلله فايمر).

ليس فقط سيرورة النضج الواضحة عبر ثلاث زيجات أو بالأحرى ثلاث علاقات هامة عميقة هي التي تجعلنا نخمّن لدى (فرانتس بكنباور) إرهاصاً لنمط علاقة ارتقائية، بل كذلك الطريقة النبيلة في إنهاء العلاقات: فهو لم ينشر بعد أية زيجة غسيلاً وسخاً، بل قام على الدوام بعملية قطع نظيفة.

أما البرنامج الثاني في الحب الارتقائي، فهو: مثل أعلى جديد للحب. هنا توجّه الحُب سوف يتغير، فلن يكون بعد الآن نحو الداخل، لن يرقب بعد الآن في علاقة ثنائية، بل سيتوجه نحو الخارج، لن يكون الحب معمقاً، إلّا إذا استطاع المرء منحه للآخرين بلا حساب. مغزى الحب هو أن ينتج المرء فائضاً كبيراً من الحب كي يستطيع الجوال به من جديد.

خلافاً لذلك يجري الحب في النموذج الرومانسي حصراً ضمن الذات، غريب أمر هذا النوع من الحب، إنه يتغير ولا يثبت على المرأة الأولى، وربما الثانية والثالثة، مدته غير محددة سواء قصرت المدة أم طالت، والحب هنا غير معمق، أي سطحي.

ومغزى الحب هو لكثير من النساء، ولا يثبت على واحدة..

بالله عليك أخي القارئ: أما تسخر من هذا؟.. هل تقبل بهذا الحب؟! إنه لا يدخل في قلب العاقل.. فالرجل أو المرأة هنا أكثر شبهاً بالحيوان المتعطش.

البرنامج الثالث في الحب الارتقائي: جنس جديد

ويقول المؤلفان: «وهنا سوف يصبح الجنس متعة وتجلياً لأقوى قوة روحية في الجسد. الموقف الأساسي هنا هو: فضولية فائقة لتجارب جديدة تماماً من خلال الممارسة الجنسية. بالنسبة للنساء يتعلق الأمر على الدوام بإخراج (بالمفهوم السينمائي) جديد للتجربة الجنسية، أما بالنسبة للرجل فيتعلق بفعل النكاح فقط ـ للأسف».

عجيب أمر هذا البرنامج الارتقائي، فالمرأة هنا وفي كل مرة تصبح وكأنها مخرجة لفيلم سينمائي جديد، وكل مرة ومع كل رجل تتعلم تجربة جنسية جديدة.. أي زمان هذا، وكأنَّ المرأة هنا ترمى من رجل إلى رجل.. ما دِينُ هؤلاء؟ أي أطفال

ينجبون هؤلاء؟ أي آباء وأمهات سيكونون لهؤلاء الأطفال؟! حيوانات أم بشر هؤلاء؟!.. الحيوان أكثر غيرة من هؤلاء فيما عدا الخنزير.

إني أتعجب من الكاتبين الألمانيين فإنهما يتباهان ويمتدحان ما يكون عليه المستقبل وما يسميانه بالحب الارتقائي - وحتى ليس بالزواج الارتقائي - لأنه لا زواج في ذلك الزمان، كما يمتدحان ارتقاء ونضج اللاعب المشهور (بيكنباور)، على أنه مثال لهذا النوع من الحب.. ونحن المسلمين، بعكس ما هو عليه الغرب لا ننظر إلى المرأة كبضاعة أو دمية أو جارية أو خادمة، بل نراها نصف المجتمع وأستاذة الإنسان الأول وأمُّ الرجل أو أخته أو زوجته أو ابنته.. أي: هي قطعة من شخصية الرجل وكيانه وليس شيئاً آخر.. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1].

مصير اطفال الحب الارتقائي

يقول الكاتبان الألمانيان:

عموماً يبدو أن تصوّر الحب الارتقائي لا يناسب الأطفال تماماً، إذ أن العلاقات زائلة وغير مضمونة. فالأطفال يلعبون في التصور الارتقائي دوراً هاماً للغاية. فهم يعطون الواحد منا إمكانية أن يعيش (من جديد) - كأم أو كأب - وبذلك أن ينمو ارتقائياً.

الحب الارتقائي مثالي أيضاً بالنسبة للأطفال أنفسهم، فهم يكونون منذ البداية موجّهين نحو التطور الواعي للشخصية. بالطبع تبقى ثمة مخاطرة في هذا التصوّر ذات العلاقة بأن ينفصل

الشريكان من جديد. ولكن، كل تحليلات حوادث الطلاق بلا استثناء تصل إلى النتيجة: بأن الأسوأ بالنسبة للأطفال هو أن يعيشوا في وئام منافق أو في ظروف الخصام المكشوف. في مثل هذه الحالة الأفضل بكثير لهم أن يعيشوا الانفصال، والأفضل انفصالاً بلا ضغائن وبلا نميمة، كما يجب بالطبع أن يكون عليه الحال في حب ارتقائي. وقد ثبت في جميع الدراسات أن الأطفال الذين عاشوا تبديلاً (منصفاً) للمعشر العائلي، أظهروا تأقلماً فائقاً. فهم يعيشون باكراً إمكانية تصورات شريكية مختلفة، وهذا يجعلهم مؤهلين للمستقبل.

عجيب أمر المؤلفين حيث أنهما يصرحان: أن الحب الارتقائي مثالي أيضاً بالنسبة للأطفال أنفسهم، فهم يعطون الواحد منا إمكانية أن يعيش (من جديد) كأم أو كأب ـ وبذلك ينمو ارتقائياً. . .

هذا يعني أن الأطفال الذين هم ضحايا الحب الارتقائي، والذين يتربون في ظل آباء، أب تلو الأب. . وقد يصل عدد آبائهم إلى عشرة أو أكثر بأنهم ينمون ارتقائياً، وكأنَّ الكاتبين يتباهان بأطفال من هذا النوع، أنا لا أدري أي تربية يتلقى هؤلاء الأطفال من مدارس (آباء) لا يحصى عددهم. .؟

ويستمر الكاتبان قائلَين: بالطبع ثمة مخاطرة في هذا التصور العلائقي؟ بأن ينفصل الشريكان من جديد، ولكن، كل تحليلات حوادث الطلاق بلا استثناء تصل إلى النتيجة: بأن الأسوأ بالنسبة

للأطفال هو أن يعيشوا في وئام منافق أو في ظروف الخصام المكشوف.

هنا نطقوا بالحق عندما صدقوا. ثم يستمر الكاتبان أيضاً قائلين: في مثل هذه الحالة الأفضل بكثير لهم ـ أي (للأطفال) ـ أن يعيشوا الانفصال، والأفضل انفصالاً بلا ضغائن وبلا نميمة.

هذا حال أحدث حب متطور ننتظره في المستقبل، وكأنه اختراع لسيارة من شركة مواصفاتها أنها تسير في الأرض وتطير في السماء وتجري في البحار...

وإذا كان الكاتبان الاجتماعيان الغربيان يشيدان بهذا النوع من العلاقات (الحب الارتقائي) ويعطيان لنا خير الأمثلة وهي حالة (بيكنباور)، فلماذا تبث هذه الدعاية الشنيعة والبغضاء ضد الدين الإسلامي الحنيف، حيث إنهم يقذفوننا لكوننا أُحِلّ لنا تعدد الزوجات، وإن كان لا مقارنة بين تعدد الزوجات في الإسلام وما يَدَّعيه كتاب: «مستقبل الحياة في الغرب».

وفي الحقيقة أرى أنّ هذا العنوان للكتاب لا يوافق الواقع الغربي، فكان على الكاتبين أن يسميا الكتاب (حاضر الغرب) وليس مستقبله، لأن البيئة الغربية حالياً مليئة بهذا الحب الارتقائي.

نظرة شاخصة في الحب الارتقائي

نفهم مما سبق أن (بيكنباور) لم تكتمل شخصيته الاجتماعية والإنسانية ولم يتطور إلّا عندما طلق زوجته الأولى التي حولته من لاعب لكرة القدم في الضواحي، ومن إنسان غير واثق من

نفسه إلى رجل معتد بذاته.. يا سبحان الله.. ما هذا الرجل بهذه الصفات؟! وما هذه الامرأة الجبارة التي أدخلت نجم كرة القدم في المجتمع الألماني.

والغريب أيضاً أن الزوجة الثانية قد نقلت نجم كرة القدم إلى عالم أوسع في نيويورك؟ نعم يظهر أن أوروبا وألمانيا الذين نشأ فيهما (بيكنباور) لم يجعلا منه رجلاً ناضجاً إلّا حينما انتقل إلى نيويورك وبصحبة خليلته. ثم يقول المؤلفان الألمانيان: أصبح ـ يقصد بيكنباور ـ ناضجاً لعلاقة متزنة مع (زيبللة فايمر) الخليلة أو الزوجة الثالثة... إن سُؤالًا يطرح نفسه هنا وهو: إذا كان هذا الرجل أصبح مُتّزناً وناضجاً عندما تزوج بثلاث نساء، فلماذا إذن يُطعن بالإسلام طعناً مبرحاً عندما أحلّ تعدد الزوجات؟! والفرق هنا وهناك شاسع جداً لا مقارنة بينهما.. فأين هي حقوق المرأة؟ أين جمعية الدفاع عن حقوق النساء لتقف ضد الحب الارتقائي؟ هنا يتباهى الكاتبان بنجم الكرة (بيكنباور) بعد أن تزوج ثلاثاً وطلق اثنتين.

أيتها المرأة كوني يقظة واعية وأنت تقرأين ما قام به (بيكنباور) وكيف ابتلع حق النساء، وكأنَّ المرأة لديه كانت سلعة يستخدم إحداهن ثم ينتقل إلى الأخرى، واعلمي جيداً أن الإسلام قد أعطاك من الحقوق والامتيازات ما يحفظ لك كرامتك وحقوقك وإنسانيتك، والإسلام إذ سنّ الطلاق من أجل مصلحتك أنتِ ومصلحة الرجل والأطفال والأسرة والمجتمع معاً، فكيف باثنين محكومين بحكم القانون وليس بحكم المودة

ولا بحكم الرحمة، فإذا وجد الزوج أنه لا يرغب في زوجته ووجدت المرأة أنها لا ترغب في زوجها، فإن يفترقا يُغن الله كُلّا من سعته، وإلّا فما من حلّ إلّا الانفصال والطلاق، وإلّا نشأت أسرة شرسة،متعارضة، فماذا نتوقع من الجيل الذي ينشأ من هذه الأسرة؟ هل نترك الأطفال ليروا البغض بين الأب والأم؟ فينغرس هذا البغض فيهم، وبذلك تنشأ أسرة فاسدة ولا يصح أن تُبنى من أمة من مثل هذه الأسر، إذن ففي مثل هذه الحالات يجوز الطلاق في الإسلام ـ وليس في حالة بيكنباور ـ ثم هل هناك حلول أخرى؟ أليس الطلاق أحسن الحلول؟ حيث تعطب الأمور وتتفاقم من السوء إلى الأسوء؟

فكيف نرغم اثنين على أن يعيشا معاً وأحدهما كاره للآخر؟ أيّ حياة هذه؟ وأي سكينة في بيت تعيش المرأة فيه قَهْراً عن الرجل، ويعيش الرجل فيه قهراً عن المرأة؟ لم يُشرع الدين الحنيف الطلاق لأجل اللّذات أو العلو في الدنيا، كما كان ذلك في حالة قيصر كرة القدم (بيكنباور)، فالغرب ـ أيتها المرأة ـ يريد أن يجعل للإسلام خصوماً، فهل علمت الآن متى يُجيز الإسلام الطلاق؟

هذا وإن الإسلام يُطعَن بإباحته لتعدد الزوجات، وهذه المسألة أتعبت المرأة بشكل رهيب، وها أنتِ أيتها المرأة تقرأين بأم عينيك، ما فعل (بيكنباور) مع زوجاته، فإنه قد تركهنّ وحيدات بلا رجل، وقد يعجزن في هذا العمر أن يلقين رجالاً يرضون بهن.. أين إذن حقوق المرأة عند رجل غربي أدهش

العالم في ملاعبه؟! ألم يكن من الأفضل أن لا يُطلق (بيكنباور) زوجاته ويبقيهن معه؟ كما أمر الإسلام بذلك حيث قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال عند الله الطلاق»[1] (رواه أبو داود عن ابن عمر ﷺ، أليس ذلك أفضل لأطفالهن، أليس هذا هو الحل الأمثل ـ أقصد بذلك تعدد الزوجات؟

واعلمي أيتها المرأة، أن العلاقة الوثيقة والحب العميق بين الرجل والمرأة في الإسلام ـ وفي شرقنا بالتحديد ـ ليست ناشئة عمّا تتطلبه الحياة الدنيا من حاجات فطرية، فالمرأة ليست صاحبة زوجها في حياة دنيوية وحدها، بل هي رفيقته أيضاً في حياة أبدية خالدة[2]، فما دامت هي صاحبته في حياة باقية، فينبغي لها ألّا تلفت نظر غير رفيقها الأبدي وصديقها الخالد إلى مفاتنها، وألّا تزعجه، ولا تحمله على الغضب وسوء الظن والغيرة.

إن الزوج المؤمن ـ بحكم إيمانه ـ لا يحصر محبته لها في حياة دنيوية فقط ولا يوليها محبة حيوانية قاصرة على وقت جمالها وزمان حسنها، وإنما يُكِنُّ لها حباً واحتراماً خالصين

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 2178)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2018).

(2) بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، الاحتشام تقتضيه الفطرة، مقالة نشرت في التربية الإسلامية عدد (2) 1986، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي ـ وبتصرف من المؤلف.

دائمين حتى وقت شيخوختها وزوال حسنها. بل يدومان إلى حياة أبدية خالدة.. (وليس كحياة بيكنباور الذي ترك وطلق زوجتيه الأولى والثانية وربما طلق الآن زوجته الثالثة).. فإزاء هذا لا بد للمرأة أيضاً أن تَخُص زوجها وحده بجمالها ومفاتنها وتقصر محبتها به، كما هو مقتضى الإنسانية، وإلّا فإنها تفقد أكثر مما تكسب، وتخسر أكثر مما تربح.

إني أرى شخصياً ـ وهذا هو رأي علماء الإسلام ـ أن التكشف والتبرج في الغرب والاختلاط غير الشرعي هو السبب الرئيس في قضايا الطلاق، وتذهب بالرجال إلى الحضيض كما ذهب بـ(بيكنباور) باتخاذ خليلاته.

إن رفع المدنية السفيهة للتستر وإفساحها المجال للتبرج، إنما هو أمر يُناقض الفطرة الإنسانية. إن سعادة العائلة في شرقنا واستمرارها إنما هي بدوام الثقة المتبادلة بين الزوجين، واستمرار الاحترام والود الصادق بينهما، إلّا أن التبرج الموجود في الغرب والتكشف يخل بتلك الثقة ويفسد ذلك الاحترام والمحبة المتبادلة ويحصل لهن ما حصل لزوجات بيكنباور.. وفي المجتمعات المتكشفة أو في محيط متكشف، تلاقي تسعة من عشرة متبرجات أمامهن رجالاً يفوقون أزواجهن جمالاً، بينما لا ترى ـ غير واحدة ـ منهن من هو أقل جمالاً من زوجها. والأمر كذلك في الرجال فلا يرون إلّا واحدة من كل عشرين منهن من هي أقل جمالاً من زوجته، والباقون يرون أمامهم من يفقن زوجاتهن حسناً وجمالاً. إذن هكذا هو مجتمع (بيكنباور).

فإذا كان هذا هو الحال في الغرب وفيه ذلك الاختلاط الشنيع بين الرجال والنساء، فكيف لا يتزوج بيكنباور باثنتين أو ثلاث أو حتى أكثر من ذلك. هل النساء المتبرجات ربحن أم خسرن؟!! فإذا لم يكن هناك فرصة لأن يلتقي بكنباور بزوجته الثانية ويراها بكل مفاتنها فكيف كان يُطلق زوجته الأولى وكذلك بالنسبة لزوجته الثانية.. من هو المسؤول في هضم حقوق المرأة؟ أليست المرأة بتبرجها وتكشفها مسؤولة عن ذلك.

فلا داعي لأن يلمن الرجال، فالبادي أظلم.. ما رأيك أيها القارئ بالذي ينادي بتحرر المرأة، وبالذات المقصود بذلك وبالدرجة الأولى هو التبرج والانفلات؟.. هل المدنية السفيهة بإفساحها المجال للتبرج هي مع حقوق المرأة أم ضدها؟؟!!

وهناك خطورة أخرى في الغرب، وهي أن رفع التستر وإفساح المجال أمام التبرج والتكشف يَحُد من الزواج، بل يقلل حتى من التكاثر (كثرة النسل) كثيراً، لأن الشاب مهما بلغ فسوقه فإنه يرغب في أن تكون صاحبته في الحياة مصونة عفيفة، ولا يريدها أن تكون مبتذلة متكشفة، لذا تجده يفضّل العزوبية على الزواج إن لم يجد ما يبغيه، وربما ينساق إلى الفساد. فالمرأة من حيث كونها مدبرة لشؤون البيت، ومأمورة بالحفاظ على أولاد زوجها وأمواله وكل ما يخصه، فهي تتصف بأعظم خصلة هي: الأمانة والثقة. إلا أن تبرجها وتكشفها يفسد هذه الأمانة، ويزعزع ثقة الزوج بها، فتجرّعه آلاماً معنوية وعذاباً وجدانياً.

إن الغرب وأنظمته يريدون من المرأة أن تركع لأهوائهم

وأنانيتهم، وأن تقع في الفخاخ التي نصبتها لها عوامل شح نفوسهم التي تجعلهم يضيقون على كفالة المرأة والنفقة عليها، ويتذمرون من الإسلام لأنه كرّم المرأة وصانها، واختار أن يخفف عنها أعباء الكسب، لتتفرغ لأعباء تهيئة الحياة السعيدة في منزلها، دون أن يمنعها منه إذا اختارته هي لنفسها.

أيتها المرأة إنك الآن وجدت ما حدث لـ(بيكنباور)، وتأكدي أن سبب ذلك يعود إلى سيل من فتنة اختلاط الجنسين في أوروبا وأمريكا، وأنها متدفقة في الشوارع والأندية والمحافل العامة، فيقبل نحوها الرجل بدافع الغريزة، وهذه الفتنة موجودة هناك في كل مكان ومعروضة على كل ناظر، واعلمي أن هذا الاختلاط وبشكله اللاشرعي في هذه الدول، وفي مختلف المجالات في الحياة، ما هو إلا سبب من أسباب انهيار هذه المجتمعات، فهل أنت راضية بتلك الأوضاع التي هي ليست من صالحك وصالح بناتِك وأخواتِك؟!!

إن أعداء الإسلام أدركوا خطورة المرأة في إصلاح الأسرة أو إفسادها، وإصلاح المجتمع أو إفساده، فوضعوا خططاً مختلفة لتوجيهها إلى ما يضمن تحقيق أهدافهم ليدمروا نساءنا كما دُمرت نساؤهم، ويجعلوا النساء سلعة بيد هذا الرجل وذلك كما فعل (بيكنباور) بزوجاته.

وهكذا الآن تتطلع أجيالنا الحديثة إلى تقليد الحياة الأوروبية، بعد أن انغمست في حمأة البيئات الجديدة وهي آسنة، التي تسهل طريق الرذيلة، وتهون أمر ممارسة اللذة

المحرمة ولا تعدّ العفة من فضائل الأخلاق، كما لا تعدّ صيانة الأسرة القائمة على الطهارة من الأمور ذات القيمة في المجتمعات الإنسانية.

النظام الاجتماعي الذي ينتظر الغرب، إذا تحقق وتعمم ما ذهب إليه الكاتبان الألمانيان

إن هذا النظام الذي ذهب إليه الكاتبان الألمانيان يؤدي دون شك إلى انحلال نظام الأسرة أو ضعف روابطها، إلى حد يشعر فيه كل فرد من أفرادها أنه ذو استقلال ذاتي تام في فكره وتصرفاته ومعالجة شؤونه الخاصة أو العامة، فهو لا يسمح أن يرشده من أسرته من سبقوه في تجربة الحياة، أو يشرفوا عليه أو يقوموا على تربيته وتأديبه، وضبط سلوكه عن الانحراف والشذوذ، فماذا نتوقع من أطفال الحب الارتقائي وآبائهم الذين لا يعرفونهم بالتحديد، أو أمهاتهم اللاتي لا يمكثن عند رجل واحد، وماذا ننتظره من هؤلاء الأولاد؟ فإذا فسدت الأسرة فسد المجتمع الذي يحويها.

لا شك أنهم يندفعون إلى شهواتهم المتأججة مركبة حياتهم إلى المهالك، ويجدون أنفسهم في مُنحدرات طرق حياتهم المنهارة مسوقاً إلى الجريمة، ويساعدهم عليها نظراؤهم من قرناء السوء، إذ تسود بينهم مفاهيم بعيدة كل البعد عن المفاهيم الإنسانية الكريمة.

ونستطيع أن نقول: إن من شأن مثل هذه البيئات الفاسدة أن تكون ملائمة لتخرج المجرمين في الأرض، ومثلهم كمثل بيئات

الجراثيم الضارة التي تنمو في مجتمع يأوي إليه كل فاسد مفسد.

إن نظرة الكاتبين الألمانيين من إلغاء الزواج في مستقبل الغرب، إنما هي فكرة تساوي الإنسان مع غيره من أنواع الحيوان، فالزواج في واقعه ما هو إلّا ظاهرة من ظواهر التنظيم لفطرة أودعت في الإنسان، ولولا الزواج الذي هو تنظيم لتلك الفطرة لتساوى الإنسان مع غيره من أنواع المخلوقات في سبيل تلبية هذه الفطرة عن طريق الفوضى والشيوع، وعندئذ لا يكون الإنسان ذلك المخلوق الذي سوّاه الله ونفخ فيه من روحه ثم منحه العقل والتفكير، وفضّله على كثير من خلقه، واستخلفه في أرضه، وسَخَّر له عوالم كونه ثم هيّأ له مبادئ الروابط السامية التي يرتفع بها من حضيض الحيوانية البحتة، وتدعوه إلى التعاون مع بني نوعه في عمارة الكون وتدبير المصالح وتبادل المنافع[1].

وما كان الإسلام في الحقيقة بدعاً في الدعوة إلى الزواج، فهو وصية كل نبي، ودعوة كل رسول، وهو طبيعة الحياة التي لا تنهض بجنس واحد، حتى يقاسمه فيها الجنس الآخر، ويعملا معاً على أن تسير الحياة سيرتها التي يكون الأحياء فيها - ذكوراً وإناثاً - خلفاء عن الله في عمارة هذا الكون العظيم! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38].

(1) كتاب الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ شلتوت، ص: 131.

وحسبنا من الزواج الأول ـ زواج آدم وحواء ـ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1].

وإذا ما دققنا النظر في الآية الآنفة الذكر يبدو لنا من أول نظرة معنى الانسجام الذي لا يكون بين شيئين، كما يكون بين الزوجين، ومن أجل ذلك عد الله الزواج من شواهد عظمته وإعلام قدرته فقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

ولبيان عظمة الخالق في مشروعية الزواج نجد أنه قد يكون الزوج من بلد، وتكون الزوجة من بلد آخر، ويصنع الزواج بينهما المعجزة، فهو يطوي المسافات ويختصر الأبعاد ويسقط الفوارق كلها من لغة، وقومية، ولون... إلخ. وبذلك تكون الأسرتان اللتان تم بينهما الأصهار أسرة واحدة، تتواصل وتتعاطف وتتعاضد، كأعضاء البدن الواحد. وما أخطأ من قال: «المرء على دين زوجته»[1].

إذن أيها الناس لا تركنوا إلى ما يذهب إليه الغرب فتكونوا من الخاسرين، ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: 113].

---

(1) الإسلام والأسرة: معوض عوض إبراهيم ـ بتصرف من المؤلف.

تعدد الزوجات

ويشتمل على المباحث التالية:

- تعدد الزوجات وقصة (بيكنباور) ورأي الأعلام في ذلك.
- تعدد الزوجات وهل منعُهُ في صالح المجتمع.. وموقف المرأة.
- حديث طريف جرى بين الدكتور السباعي وبين أحد الغربيين حول تعدد الزوجات.
- تعدد من الرجال، وهل يمكن ذلك؟
- علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام وقصة قيصر كرة القدم (بيكنباور).

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات وقصة (بيكنباور) ورأي الأعلام في ذلك

لو عدنا إلى ما قام به بيكنباور بزواجه من ثلاث نساء، وإباحة الإسلام لتعدد الزوجات وباعتباره ديناً طبيعياً، فإنه لم يتمرد على أحكام الطبيعة، ثم إن الديانة المسيحية هي امتداد للديانة اليهودية من ناحية الشريعة، وأنها عالجت وهذبت انحرافها، ولم يحرم المسيح ﷺ في حياته تعدد الزوجات بل ورد في بعض رسائل بولس ما يفيد التعدد، فقد قال: «يلزم أن يكون الأسقف زوجاً لزوجة واحدة»[1]، ففي إلزام الأسقف وحده بذلك دليل على جوازه لغيره[2]، ربما لو لم يخش بيكنباور من قوانين بلاده التي لا يحكم حتى بالمسيحية، لكان قد أبقى عنده زوجتيه ولم يطلقهما وكان ذلك خيراً له ولأولاده ولزوجاته المطلقات.

وهذا هو التاريخ فإنه محشو بقصص أمثال بيكنباور، فقد كان لملك أيرلندة (ديارماسدت) زوجتين وسريتين، كما كان لشارلمان في فرنسا (742 ـ 814) زوجتين وكثير من السراري وهو

---

(1) راجع رسالة بولس الأولى إلى تيماتوس، الإصحاح 3 فقرة 2.

(2) انظر: الدكتور مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، ص: 72، ط 2، مطبعة الأصيل، حلب، 1966م.

الإمبراطور الذي وحّد فرنسا، وقد حدث بعد ذلك أيضاً أن المَلِكان - (هيس فيليب وفردريك وليم الثاني البروسي) - تزوجا بأكثر من واحدة بموافقة القساوسة اللوثريين. بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى إيجاب تعدد الزوجات، ففي سنة 1531م نادى اللامعمدانيون في مونستد صراحة بأن المسيحي، ينبغي أن يكون له عدة زوجات، ويعدّ المورون كما هو معلوم أن تعدد الزوجات نظام إلٰهي مقدس[1]، ثم استقرت نظم الكنيسة المستحدثة بعد ذلك على تحريم التعدد، بالرغم من خلو أسفار الإنجيل من ذلك[2].

وكشاهد على هذا التغيير المخترع حسب أهواء القساوسة والأحبار المسيحيين لمبدأ التعدد، فإن المسيحية المعاصرة تعترف به في أفريقيا السوداء وذلك لما رأوا في منع التعدد من الحيلولة بينهم وبين الدخول في النصرانية لذا نادوا بإباحة التعدد إلى عدد غير محدود[3]، فأعلنت الكنيسة أخيراً وبصورة رسمية السماح للأفريقيين بتعدد الزوجات إلى غير حد[4].

---

(1) انظر: العقاد: المرأة في القرآن، ص: 82 - ط1 - دار الهلال - القاهرة.

(2) راجع: الدكتور علي وافي: المرأة في الإسلام، ص 161 - ط2 - دار نهضة مصر - القاهرة. والدكتور مصطفى السباعي ص 50، الطبعة الثانية 2003.

(3) راجع: تورجية، الإسلام والنصرانية في أواسط أفريقية، ص 92 - 98، نقلاً عن الدكتور مصطفى السباعي/ المصدر السابق.

(4) لقد تم اقتباس المراجع السابقة والنصوص من كتاب «تعدد الزوجات في الإسلام، كيف؟ ولماذا؟» لمؤلفه علي كامل مصطفى الحيالي.

فالإسلام حين أباح تعدد الزوجات، فإنه بذلك حلّ كثيراً من مشاكل حياة المجتمع المتطلع نحو ذرى المجد والعز، وإلّا فما البديل عن تعدد الزوجات، لا بد أن البديل هو انتشار الزنا والرذائل الأخرى في مجتمعنا الإسلامي، وعلى غرار ما تشكو منه المجتمعات الآخذة بنظام الزوجة الواحدة من العهر والفجور.

والكَيِّس ـ الفَطن ـ هو من اتعظ بغيره من حيث ما انتهى إليه، لا من حيث ما بدأ به ذلك الغير!

ومهما يكن ففطرة الله التي فطرها في البشر لا يغيّرها أحد، فلنقرأ ماذا قال الأعلام في تعدد الزوجات:

قال «دينيه» في كتابه: «أشعة خاصة بنور الإسلام»، وهو فرنسي الجنسية، وقد أسلم وسمى نفسه «ناصرالدين»: إن الإسلام لما كان ديناً طبيعياً، فإنه لم يتمرد على أحكام الطبيعة، فهو لم يرض بالرهبنة بل حرّمها، ولم يشجع على تحريم الزواج، وقد أسفر تحريم رجال الكنيسة للتعدد عن نتائج أخلاقية خطيرة من الدعارة وظهور النساء العوانس، وهي أمراض اجتماعية لم تظهر في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق.

ويضيف «دينيه» أيضاً: إنه على الرغم من محاولة الكنيسة لتحريم تعدد الزوجات، فقد ظل ملوك فرنسا يتخذون لأنفسهم أكثر من زوجة، وكانوا محل احترام رجال الكنيسة وإجلالهم.

وقال أيضا في كتاب: «محمد رسول الله»: فالواقع يشهد

بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم، وسوف يظل موجوداً ما وجد العالم، مهما تشددت القوانين في تحريمه، ولكن المسألة الوحيدة في معرفة ما إذا كان الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويُحد له، أم أن يظل نوعاً من النفاق المستتر، لا شيء يقف أمامه ويُحد من جماحه[1].

وفي فترة 20 ـ 30/ 1/ 2006 رأيت شخصياً في إحدى الفضائيات العربية، أن ميتران ـ رئيس فرنسا السابق ـ كان له خليلة وأنجب منها ابنة ـ طبعاً بنت حرام بمفهومنا ـ وكانت تتحدث لتلك القناة في مقابلة خاصة لها. . فهل كان يحق لـ(ميتران) أن لا يعترف بتعدد الزوجات في الإسلام إن سُئل؟ وإلّا فلماذا قام بذلك؛ وهذا هو دأب كثير من رؤساء العالم. . فهل لنا أن نلوم لاعب كرة قدم (فرانس بيكنباور) فيما بعد؟!

فعلى رؤساء الدول الغربية أن يشرعوا تعدد الزوجات ـ كما أمر الإسلام بذلك ـ وهو ما حرموه على شعوبهم، وإلّا أين عدالتهم؟ أين حقوق شعوبهم؟ . . إذن بعد كل ما سلف، فلماذا هذا التهجم الشنيع على الإسلام الذي أباح تعدد الزوجات وحدده بشروط، واضعها هو الله جلّ وعلا.

فإذا ما عدنا إلى التاريخ نرى أنه في عام 1949م قدّم أهالي (بون) عاصمة ألمانيا طلباً إلى السلطات المختصة يطلبون فيه أن

---

(1) نقلاً عن كتاب: «الإسلام وتعدد الزوجات» كيف؟ ولماذا؟، لمؤلفه رعد كامل مصطفى الحيالي.

بنص الدستور الألماني على إباحة تعدد الزوجات[1]، وبالضبط بعد ذلك التاريخ الآنف الذكر بعشر سنوات طلبت الحكومة الألمانية من مشيخة الأزهر تزويدها بنظام تعدد الزوجات في الإسلام، للاستفادة منه في حل مشكلة زيادة النساء. ثم أُتبِعَ ذلك وصول وفد من علماء الألمان، اتصلوا بشيخ الأزهر للغاية نفسها، كما التحقت بجامعة الأزهر بعض الألمانيات المسلمات، لتطَّلع بنفسها على أحكام الإسلام في موضوع المرأة عامة، وتعدد الزوجات خاصة[2]، وقد سبق لهتلر زعيم ألمانيا السابق محاولة مشابهة، حيث طلب من أحد أصدقائه العرب المسلمين أن يضع له نظاماً مستمداً من الإسلام حول تعدد الزوجات. لكن قيام الحرب العالمية الثانية حالت بين هتلر وبين تنفيذ هذا الأمر[3]، وقد اكتشفت وثيقة بخط يد مارتن بورمان، نائب هتلر كان قد كتبها عام 1944م يصف فيها تفكير هتلر حول تشريع التعدد لضمان مستقبل قوة الشعب الألماني[4].

إن ما قام به (بيكنباور) من تطليق زوجتيه الأولى والثانية والزواج بثالثة، نهى عنه رسول الله ﷺ في الإسلام حيث أنه

(1) د.محمد يوسف موسى، أحكام الأحوال الشخصية، ص: 121 - 1958 - مؤسسة الخانجي، القاهرة.

(2) انظر: الدكتور مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، ص: 76.

(3) راجع: المصدر السابق.

(4) انظر جريدة الأهرام، في 13/ ديسمبر 1960/ نقلاً عن البهي الخولي: الإسلام والمرأة المعاصرة، ص: 93. ط 3 - 1968 - دار القلم - الكويت.

سمع رجلاً طلّق زوجته بغير ما أحلّ الله فقال: **«ما بال أقوام يلعبون بحدود الله يقول طلقت قد راجعت»**(1).

أما من كان شأنه أن يطلق ويتزوج، ثمّ يطلق ويتزوج، جاعلاً الزواج اللذة الجسمية فحسب، حتى إذا قضى منها وطراً ـ مدة ـ طلّقها، ليتزوج غيرها، فقد عمل عبثاً، وخرج عن الفطرة التي شرع الزواج من أجلها.

ليقرأ الزوج قول رسول الله ﷺ: **«تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات»**(2).

هكذا يضيّق الإسلام على الزوج مسالك الطلاق، حتى فيما يكره من أخلاق زوجته ويأمره بإمساكها لعله يلقى خيراً من جراء صبره. قال تعالى:

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: 19] فمن يحمي حقوق المرأة ويمنع اضطهادها؟ ديننا أم الغرب؟.

تعدد الزوجات وهل منحة في صالح المجتمع؟ وموقف المرأة....

ما بال أعداء الإسلام يعيبون على الإسلام ما شرع من

(1) أخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2017)، وذكره البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 7/ 322).

(2) ذكره ابن أبي شيبة في «مصنفه» (الحديث: 5/ 353).

التعدد؟! وما للمرأة المسلمة أن تطالب في وقتنا الحاضر بمنع تعدد الزوجات، حيث باستطاعة كل امرأة أن لا ترضى به، وأن لا تتزوج بمتزوج، وهل هناك قوة في الأرض تستطيع إرغامها على ذلك؟

طبعاً لا.. وفي استطاعة المرأة أيضاً أن تطلب الطلاق من زوجها إذا تزوج عليها، وتجاب إلى طلبها، وبالتالي هي التي تتحمل تبعات ما يترتب على ذلك.

وإنه لواضح وضوح الشمس في رابعة النهار، أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية التي أخذتها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها سيئات متعددة، وظهرت تلك السيئات على الأخص في ثلاث نتائج واقعية بالغة الخطورة، جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين.

وإن هذه الآفات والأمراض الاجتماعية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق، بل دخلتها وانتشرت فيها بعد احتكاكها بالمدنية الغربية.

إن كلام أعداء الإسلام غير واقعي في موضوع تعدد الزوجات، فإن نسبته غير معنوية إحصائياً في بلادنا. فهل تساءل الغربيون إن كانوا منصفين في كلامهم عن ضحايا الخلائل عندهم، وهل يعلمون نسبة ارتفاع أولاد الزنا هنا وهناك؟! فإن الإسلام لا يدع النساء فرائس الزنا وطرائد المخادنة.

وإذا ما تساءلنا: هل في زوال تعدد الزوجات فائدة

أخلاقية؟ إذا ما دققنا في أقطارنا الإسلامية نرى أن الدعارة تندر في تلكم الأقطار، إذا ما قُورنت بالدول الغربية (ربما زادت في أقطارنا نوعاً ما في هذه الأيام لاحتكاكنا بالمدنية الغربية) وكلما بعدت أقطارنا الإسلامية عن دينهم زادت نسبة تلك الدعارة، وبغير التعدد سوف تتفشى فيها، وتنتشر آثارها المخزية، وكذلك سوف يظهر في بلاد الإسلام داء لم تعرفه من قبل... ألا وهو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد التي يقتصر فيها الزواج على واحدة، وقد ظَهَر فيها هذه الظاهرة بوضوح، وبنسبة مفزعة وذلك عقب الحروب على وجه التحديد.

إن المجتمع الذي يتخلّى عن رسالات الأنبياء، فإنه لا ريب في ذلك أنه يكون مهدداً بغزو فكري جاهلي، وما يدريك ما يكون عليه المجتمع الجاهلي الذي يعيش فيه الناس في بهيمية وحيوانية، وهذا يمنعهم من الالتفات إلى فكر السماء.

واعلم أخي القارىء: كل دعوة تنادي بالتحلل ورفض الخلق السامية فهي دعوة جاهلية مهما وضعت لنفسها أسماء وشعارات براقة، كالحرية والثقافة والتقدم.... والمستهدف من هذه الدعوات المزيفة هي المرأة الحنون، لهذا أشار القرآن الكريم إلى هذه الدعوات بدعاوى الجاهلية الأولى. لذا على المرأة الحنون أن تسلك السلوك الذي يرضى به الله ورسوله، ولا شك أن ذلك السلوك يجعلها وعائلتها أن تعيشا في سعادة وهناء في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

حديث طريف جرى بين الدكتور مصطفى السباعي وبين احد الغربيين حول تعدد الزوجات:

سافر الدكتور مصطفى السباعي حين كان موفداً إلى أوروبا سنة 1959م من جامعة دمشق في رحلة استطلاعية للجامعات والمكتبات العامة، وكان ممن اجتمع بهم في لندن البروفسور (أندرسون) رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية الشرقية في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن، وجرى بينهما ـ فيما جرى من الأحاديث ـ نقاش حول تعدد الزوجات في الإسلام، فيقول الدكتور السباعي:

سألني أندرسون: ما رأيك في تعدد الزوجات؟

قلت له: نظام صالح يفيد المجتمعات في كثير من الظروف إذا نفِّذ بشروطه.

قال: أنت إذاً على رأي محمد عبده بوجوب تقييده؟

قلت: قريباً من رأيه لا تماماً، فإني أرى أن يقيد بقدرة الزوج على الإنفاق على الزوجة الثانية ليمكن تحقيق العدل بين الزوجات كما طلب الإسلام.

قال: وهل مثلك في هذا العصر يدافع عن تعدد الزوجات؟

قلت: إني أسألك فأجبني بصراحة! من كانت عنده زوجة فمرضت مرضاً مُعدياً أو منفرداً لا أمل بالشفاء منه، وهو في مقتبل العمر والشباب فماذا يفعل؟ هل أمامه إلا ثلاث حالات:

أن يطلقها، أو يتزوج عليها، أو أن يخونها ويتصل بغيرها اتصالاً غير مشروع؟

قال: بل هناك رابعة، أن يصبر ويعف نفسه عن الحرام.

قلت: وهل كل إنسان يستطيع أن يفعل ذلك؟

قال: نحن المسيحيين نستطيع أن نفعل ذلك بتأثير الإيمان في نفوسنا.

فتبسمت وقلت: أتقول هذا وأنت غربي؟ أنا أفهم أن يقول هذا القول مسلم أو مسيحي شرقي، فقد يستطيع أن يكف نفسه عن الحرام، لأن محيطه لا يهيىء له وسائل الاختلاط بالمرأة في كل ساعة يشاء وأنى يشاء، ولأن تقاليده وأخلاقه لا تزالان تسيطران على تصرفاته، ولأن الدين لا يزال له تأثير في بلاده، أما أنتم الغربيون الذين لم تتركوا وسيلة للاتصال بالمرأة والاختلاط بها والتأثير عليها وإغوائها إلا فعلتموها، حتى لم تعودوا تستطيعون أن تعيشوا ساعة من نهار أو ليل دون أن تروا المرأة أو تخالطوها منذ تغادرون البيت حتى تعودوا إليه، أنتم الذين يضج مجتمعكم بالأندية والبارات والمراقص، وتغص شوارعكم بالأولاد غير الشرعيين.. تدّعون أن دينكم يمنعكم من خيانة الزوجة المريضة! وكيف ذلك وخيانات الزوجات الجميلات الصحيحات الشابات تملأ أخبارها أعمدة الصحف والكتب، وتصك الآذان، وتشغل دوائر القضاء؟

قال: إنني أخبرك عن نفسي، فأنا أستطيع أن أضبط نفسي وأصبر.

قلت: حسناً، فكم تبلغ نسبة الذين يضبطون أنفسهم من المسيحيين الغربيين أمثالك بالنسبة إلى الذين لا يصبرون؟

قال: لا أنكر أنهم قليلون جداً.

قلت: وهل ترى أن التشريع يوضع للقلة التي يمكن أن تعد بعدد الأصابع؟ أم للكثرة والجمهرة من الناس؟ وما فائدة التشريع الذي لا يستطيع تطبيقه إلا أفراد محدودون؟

فسكت وانتهت المناقشة فيما بيننا.

أقول هذا لأبيِّن للذين يزعمون بأن الغريزة الجنسية ليست كل شيء في حياة الإنسان، وأن هنالك قيماً أثمن وأغلى كالوفاء والصبر يحرص عليها الحر الكريم، وإن تبرير التعدد بالحاجة الجنسية هو هبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان.. هذا الكلام وأمثاله، كلام جميل، وخيال خصب، قليل من ظل غير هذه الحضارة، ومن غير هؤلاء الذين يتكلمون هذا الكلام لو قيل من عباد زهّاد تعف ألسنتهم وأقلامهم وأعينهم عما حرم الله من زينة المرأة ومفاتنها، وأهواء الحياة وشهواتها! أما من أولئك فلا، وخير لهم أن يحترموا واقع الحياة التي تعيشها الإنسانية ويعالجوا مشاكلها بصراحة الحكيم المجرب، لا بمراوغة المجادل المكابر[1].

وهكذا أقنع الدكتور «السباعي» البروفيسور (أندرسون) في

(1) المرأة بين الفقه و القانون، د. مصطفى السباعي، ص: 58، 59، طبعة 2003.

موضوع تعدد الزوجات. إن مشكلة تعدد الزوجات إذا ما دققنا فيها فإننا نرى بصراحة: إن في عالمنا الإسلامي في الوقت الحالي لا توجد مشكلة تعرف بمشكلة تعدد الزوجات. ولقد تبينت من الإحصاءات التي تنشر في البلاد الإسلامية والعربية عن الزواج والطلاق، أن نسبة المتزوجين بأكثر من واحدة نسبة ضئيلة جداً لا تكاد تبلغ الواحد بالألف وهذه النسبة كما ذكرتها في مواضيع أخرى غير معنوي إحصائياً. فما سبب تضخيم هذه الظاهرة، ما هذه الصرخات التي تصك آذاننا حول تعدد الزوجات في عالمنا الإسلامي، إنها حملات غربية شرسة على نظام التعدد في الإسلام يشنّها الغربيون، في الوقت الذي إباحَتُهُ في الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق وأنه مشروط بشروط.

تعدد من الرجال، وهل يمكن ذلك؟

كثير من الجهلاء يقولون: لماذا لا يوجد تعدد من الرجال؟

إنّ اشتراك عدد من الرجال في امرأة واحدة له مساوئ كثيرة لا يقبل بها أي عاقل، حيث إن ذلك سيؤدي إلى قلة النسل أو انعدامه، ثم إلى ضياع النَّسَبْ ناهيك عن تفشي الأمراض التناسلية، وفي الحقيقة تدل الإحصائيات أن نسبة عالية من سرطان الرحم يحدث بين النسوة اللاتي يمارسن البغاء في أمريكا والغرب بصورة عامة، والسبب يكمن في تعدد مصادر الماء (المني) في المكان الواحد أي في (فرج المرأة)، حيث أن الرجل إذا اتصل بأربع زوجات فإنه يولد له أربعة أولاد معروفي

النسب والأبوين، أما إذا اتصل أربعة رجال بامرأة واحدة فلا يولد لهم إلّا ولد واحد ـ وهذا هو ما قصدناه آنفاً من أن ذلك يؤدي إلى قلة النسل ـ ثم إن النَّسَبْ يترتب عليه كثير من الأحكام الشرعية من رعاية ونفقة وإعالة وإرث وقرابة يعين له محارمه وحلائله من أب وعمات وخالات وأخوات وبنات عم وأعمام وأخوال.. إلخ. فإذا لم يتبين النسب يُبهم كل ذلك، وربما أدى إلى أن يتزوج الولد عند بلوغه من أخته أو عمته أو خالته أو من أحد المحارم الحقيقيات اللاتي بَهُمَ على الناس حرمتهن وقرابتهن[1].

وحتى لو اتفق وافترض انتساب الولد إلى أحد من أزواج أمه فذلك ظن وافتراض غير حقيقي، لأن الحقيقة لا تعرف إلّا عند الله تعالى. فيصبح إلحاقُ هذا الولد بأي من أزواج أمه كذباً وبهتاناً لا يرتاح له الضمير ولا يجلب شفقة وحنان الأب المزعوم؛ لأنه أيضاً شاك في هذا الانتساب، فلا يحس بأي حنان تجاهه، ولا يحس بِبُنوته، ولا يشعر بأية مسؤولية تجاهه فيتركه ويهمله ولا يبالي به. وكذلك الحالة بالنسبة للآخرين فإنهم أيضاً لا يعدّونه ابنهم الصلب الذي يجلب الحنو والحنان.. فيضيع الولد بين هذا وذاك، فإما يموت ويهلك، أو يبقى في متاهات الضياع موسوماً جبينه بالعار والخزي ولعنة

(1) تعدد الزوجات في الإسلام، كيف؟ ولماذا؟، رعد كامل مصطفى الحيالي، بتصرف من المؤلف.

المجتمع، أو ينشأ منحرفاً ويكبر معقداً، ويصبح وبالاً على المجتمع وعذاباً على الناس[1].

ورُبَّ سائل يقول، لأجل حل مشكلة النسب: فلينتظر الرجال الآخرون في مواقعة الزوجة وليواقع الزوجة رجل واحد، لحين تبيان أن المرأة حملت منه.. ولكن ما هي الفترة التي تمضي إلى أن تحمل المرأة، قد تطول عدة شهور، فماذا يعمل الرجال الباقون؟ فهل ينتظرون وهل باستطاعتهم أن ينتظروا هذه الفترة الطويلة دون مواقعة زوجتهم؟ هذا محال، ولنفرض قَبِلَ الجميع بذلك، ولكن هل الطبع البشري السليم والمعاني الإنسانية الصحيحة التي لا يختلف فيها اثنان، تقبل بذلك؟ ثم إذا حملت الزوجة من الرجل الأول الذي واقعها فكيف يرضى هذا الرجل أن يواقع الرجال الآخرون بهذه الزوجة التي غرست في رحمها طفل الرجل الأول؟ في الحقيقة، إن هذه الأمور يستنفر منها طبع كل إنسان مسلم سَوِي أو غير مسلم، وفي الواقع كان عليَّ لزاماً أن أبين هذه الأمور لأني سبق أن قرأتَ في بعض الصحف أن امرأة قالت: ونحن نريد تعدد الرجال!! إنه في الواقع معادٍ للفطرة والذوق والطبع الرجولي والنسائي معاً، فهذه الأمور سموم الغرب تفرزها علينا وبالأحرى على شبابنا، ونعوذ بالله من شرهم.

وهناك شيء آخر ذكره الدكتور «مصطفى السباعي» في كتابه، وهو: «أن للرجل رئاسة الأسرة في العالم أجمع، فإذا ما

(1) المصدر السابق.

أبحنا للزوجة تعدد الأزواج فلمن تكون رئاسة الأسرة؟ أتكون بالتناوب؟ أم للأكبر سناً؟ ثم إن الزوجة لمن تخضع؟ أتخضع لهم جميعاً وهذا غير ممكن لتفاوت رغباتهم؟ أم تخص واحداً دون الآخرين، وهذا ما يسخطهم جميعاً. إن السؤال فيه من الطرافة أكثر مما فيه من الجدية»[1].

علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام وقصة قيصر كرة القدم (بيكنباور)

نساء الغرب والشرق ـ المدافعين عن تحرير المرأة من حجابها ـ قالوا عن الإسلام والمرأة، بعدما توصلوا للحقيقة: إذا كانت النساء اللاتي تزوجن بيكنباور حبيبات له في الفترات التي عاشرنه، فكيف بهذا الحب المؤقت وأين حقوق المرأة هنا؟!، ولو قارناها بعلاقة الرجل بالمرأة في الإسلام فإنها شيء آخر تماماً، فالإنسان رجلاً كان أم امرأة له قيمة إنسانية لا تقدر بشيء وإنه ثروة قابلة للتناسل أو التكاثر ـ ما أروع أن يجد الإنسان من يرممه ويثمنه ويبنيه! وبذلك يحوله من إنسان كسول خامل إلى إنسان فاعل نشيط ـ . . ما علاقة كلامنا هذا بالمرأة. . والزوجة بالذات؟ إنها علاقة وثيقة يُعطي حقها من قال: «وراء كل عظيم امرأة»، فالذي قال هذا لم يخطئ. . فالمرأة العاقلة الطموحة تدفع زوجها دفعاً إلى التقدم في كل الأمور فتراها إنْ نطقت بـ(أبا فلان) تجد نفسك مرفوعاً لتقول: (أَنعم به وأكرم) فهي دائمة الثناء عليه، بوجوده تضيء الجانب المعتم وبغيابه تعتم ما يجب

---

(1) المرأة بين الفقه والقانون، ص: 61.

أن يخفى عن الآخرين تُضيف إليه ما ينبغي أن يضاف وترفع عن كاهله ما ينبغي أن يرفع.. نموذج نصادفه في حياتنا فنغبط له ونقول هكذا هي المرأة المسلمة[1].

وفي الحقيقة كثيراً ما نرى بأن هناك جمعيات تدافع عن حقوق المرأة، ويصور ذلكم المتباكون على حقوق المرأة بأن الإسلام ظلم المرأة وجعلها وكأنها من الدرجة الثانية، ويضعون أنفسهم موضع المدافع عن المرأة في تلك الحقوق التي سلبت منهن، وبذلك يستغلون جهل البعض في فهم الآيات القرآنية فيجتزئون بعضاً من الآيات القرآنية أو يسيئون التفسير ويفسرون بما يتلاءم وأهواءهم، فيستغلون بذلك بعض الآيات التي رسم فيها الإسلام سياسة الأسرة في توزيع الحقوق والواجبات والتبعات على أساس من العدل والمساواة. فيقول البعض أن المرأة في الإسلام، ليس أكثر من تابع للرجل بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34] ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، وغيرها؛ فما صحة ذلك؟ وسأجيب عن تلك الأوهام والافتراءات فيما بعد.

نساء الغرب والشرق ـ المدافعين عن تحرير المرأة من حجابها ـ قالوا عن الإسلام والمرأة، بعدما توصلوا للحقيقة:

فلنقرأ ماذا قال أهل الغرب عن المرأة المسلمة في مقابلة أجرتها مجلة الوطن العربي (العدد 314) مع امرأة فرنسية متخصصة في الفن الإسلامي اسمها: نادية أوبيريه، قالت:

---

(1) زوجك رجل مهم، نجاة النجار، بتصرف من المؤلف.

وجدت المرأة العربية (المسلمة) محترمة ومقدرة داخل بيتها أكثر من الأوروبية، وأعتقد أن الزوجة والأم العربيتين تعيشان سعادة تفوق سعادتنا. ثم تُوجه نصحها للمرأة المسلمة قائلة: لا تأخذي من العائلة الأوروبية مثالاً لك.. لأن عائلاتنا هي نماذج رديئة لا تصلح مثالاً يحتذى.

وفي مقابلة أجْرتها مجلة صدى الأسبوع مع (براونين موراك إيفانز)، وهي إنجليزية أعلنت إسلامها في البحرين، وكان من الأمور التي دفعتها أن تترك النصرانية وتدخل في الإسلام قالت: المرأة المسلمة دائماً في حماية ورعاية، تجد من يعيلها أينما حلَّت، وهي جزء هام من المجتمع الإسلامي.. جو عائلي تفتقده الكثير من الأسر النصرانية الأب والأم، ثم الأولاد وبعدهم الأقارب.

العائلة المسلمة كأنها مملكة واسعة الأطراف، أما العائلة النصرانية فإنها تقتصر على رجل وامرأة فقط، طرفان لا توابع تخلفهما.. القسيس في الكنيسة يتحكم بكل شيء، ويتدخل في كل الأمور.. أما في الإسلام فلا يوجد قسيس أو وسيط بين الإنسان وربه[1].

وإذا أمعنا النظر في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

---

(1) الفتوى، عدد 62، ص: 19.

وصف الباري ﷻ بأن الزوجة سكن والسكن لا بُد أن يكون هادئاً، تقرّ به العين وتطمئن إليه النفس، ومن هنا حمَّل الله ﷻ الزوجة مسؤولية ذلك، فأمرها أن تجعل من نفسها مأوى يستقر إليه الزوج، وتأتيه بلهفة بعد عناء ومشقة، فيتقابل الرجل بابتسامة وترحيب، وهذا النوع من الاستقبال لا شك أنه يغسل عن نفس الرجل كل المتاعب، فالآية الكريمة الآنفة الذكر، تبين لنا صلة النفس بالنفس في أعمق روابطها، يعقدها الله بين النفسين، لتنعما بالسكينة والطمأنينة والاستقرار والمتاع الحلال الطيب. وإن الزوجة لهي بمثابة الأمن والراحة للرجل في بيت الزوجية المحبَّب، العامر بالمودة الخالصة والرحمة الظليلة الحنون، والمرأة المسلمة الراشدة خير من يفهم هذه المعاني العالية، وخير من يعمل على ترجمتها إلى واقع مؤنس مبهج سعيد.

فهذا هو كلام الله ومن يعرض عنه سيلقى حياة تعيسة مليئة بالهموم، حيث صدق عندما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124] وها هي الفنانة المصرية التائبة (نسرين) تتحدث لنا كيف أن الفن يفسد ولا يصلح، وأن ذلك إعراض عن كلام الله وسنة رسوله، بينما يعتبره الخارجون عن حدود الله ممن يتباكون على حقوق المرأة تقدماً، فتقول:

الفن في رأيي حرام وأشبه بالمشروبات المحرمة.. إذا كان كثيرها مسكراً فقليلها حرام، التمثيل في حد ذاته تقليد وتقمص وازدواجية، وعدم مصداقية وممارسات خيالية وافتعال لمواقف

بعيدة عن الواقع، ناهيك عن التبرج والاختلاط والتزين للأجانب، وكلها أمور مشينة وتؤدي إلى التهلكة والعياذ بالله. هكذا تحدثت الفنانة نسرين وتضيف: من خلال تجربتي وجدت أن الفن مجال لهو ولغو وبعيد عن الإسلام وقِيَمه، وفيه اتباع للهوى ومضيعة للوقت، وفيه إيذاء للمرأة وإهانة لها.. لقد استنتجت أن الفن يهدف ـ من خلال عملية منظمة ـ إلى ترسيخ نمط من السلوك المنحرف في وجدان المشاهد المسلم وعقله لإبعاده عن دينه وتمييع الحلال والحرام في عقله ووجدانه.

وتفسر نسرين ظاهرة اعتزال النساء دون الرجال للفن بقولها: المرأة كما خلقها الله أكثر عاطفية وأكثر ضعفاً، وقسوة الحياة تؤذيها أكثر فأكثر. الأعمال الفنية وما يصاحبها من شهرة ومال قد تغري المرأة فتنساق وراءها بلا داع، ولكنها عندما تخلو مع نفسها تتنازعها فطرتها وتدرك أن ما تقوم به ليس حلالاً، وبالتالي تغلب الفطرة نوازع الشر في نفس البشرية فتبتعد عن الحرام.

وهذه اعترافات امرأة غربية أخرى نشرتها مجلة الفتوى ـ عدد 77 سنة 1999 ـ ونقلت هذه الاعترافات أصلاً من مجلة الأسرة الصادرة في هولندا ـ عاشت ظاهرة الحرية الواسعة وهوس الاندفاع نحو المساواة بالرجل.. فلم تجد ما يحقق وجودها باعتبارها إنساناً وباعتبارها أنثى وفق ما قررته لهما الفطرة، وما هيأتها له طبيعة تكوينها وما جبلت عليه من خصائص غير الإسلام لتؤدي الأمانة وتحقق الحكمة في رعاية أقدس الروابط، وأشرف

القيم من الأمومة ومودة ورحمة ورفد للحياة بمن يصنعون الحياة، ويعمرون الأرض، ويحققون وظيفة الخلافة كما أمر الله وأراد، حيث تقول وتحت عنوان «المجتمع أوهَمَ المرأة»: يمكنني أن أعرض تجربتي الشخصية وأسباب رفضي للحرية التي تدعي النساء في هذا المجتمع، إنهن يتمتعن بها ويؤثرنها على الدين الوحيد الذي حرر النساء حقيقة مقارنة بنظيراتهن في الديانات الأخرى. . . لقد كنت أطعن في هذا الدين؛ لأنه كما كنت أعتقد أنه دين متعصب للرجل على حساب المرأة وقائم على التمييز بين الجنسين، وأنه دين يقمع المرأة ويهب الرجل أعظم الامتيازات. كل هذا اعتقاد إنسانة لم تعرف عن الإسلام شيئاً. . على أنني ورغم انتقادي للإسلام، فقد كنت داخلياً غير مقتنعة بوضعي كامرأة في هذا المجتمع، وبدا لي أن المجتمع أوهَمَ المرأة بأنه منحها (الحرية)، وقبلت النسوة ذلك دون الاستفسار عنه. لقد كان هناك تناقض كبير بين ما عرفته النساء نظرياً، وما يحدث في الحقيقة تطبيقياً. . لقد كنت كلما ازداد تأملي أشعر بفراغ أكبر، وبدأت تدريجياً بالوصول إلى مرحلة كان عدم اقتناعي بوضعي فيها كامرأة في المجتمع انعكاساً لعدم اقتناعي الكبير بالمجتمع نفسه. وبدا لي أن كل شيء يتراجع إلى الوراء. رغم الادعاءات لقد بدا لي أنني أفتقد شيئاً حيوياً في حياتي، وأن لا شيء سيملأ الفراغ الذي أعيش فيه وأخذت أفكر في حياتي وبعقيدتي التي لم تحقق لي شيئاً، وأخذت أتمعن في الدين الإسلامي. .

لقد تركز اهتمامي على النظر في القضايا ذات العلاقة بالمرأة في الإسلام وكم كانت تلك القضايا مثار دهشتي، فكثير مما تعلمت وقرأت، علمني الكثير عن ذاتي كامرأة. وأين يكمن القمع الحقيقي للمرأة في نظام آخر وطريقة حياة غير الإسلام الذي أعطى المرأة كل حقوقها في كل منحى من مناحي الحياة. ووضع تعريفات بيّنت دورها في المجتمع كما هي الحال بالنسبة للرجال، ودون أن يلحق أي ظلم بأي منهما. يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

وتقول (لورا فيشيا فاغليري) في كتابها[1]: ولكن إذا كانت المرأة قد بلغت من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا مكانة رفيعة، فإن مركزها، شرعياً على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جداً ولا يزال في بعض البلدان، أقل استقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي.

وقالت (أني بيزنت) زعيمة التيوصوفية العالمية في كتابها «الأديان المنتشرة في الهند»: ما أكبر خطأ العالم في تقدير نظريات النبي محمد ﷺ فيما يتعلق بالنساء، فقد قيل: إنه قرر بأن المرأة لا روح لها! فلماذا هذا التجني على رسول الله؟ أعيروني أسماعكم أحدثكم عن حقيقة تعاليمه في هذا الشأن.

جاء في القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ

(1) دفاع عن الإسلام، ص: 106.

﴿أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: 124]. وبعد أن سَرَدت كثيراً من الآيات القرآنية التي تحث على رعاية المرأة وإكرامها قالت:

«ولا تقف تعاليم النبي ﷺ عند حدود العموميات، فقد وضع قانوناً لوراثة النساء، وهو قانون أكثر عدلاً وأوسع حرية من ناحية الاستقلال الذي يمنحها إياه من القانون المسيحي الإنجليزي الذي كان معمولاً به إلى ما قبل عشرين سَنة، فما وضعه الإسلام للمرأة يعدّ قانوناً نموذجياً فقد تَكَفَّلَ بحمايتهن في كل ما يمكنه، وضمن لهن عدم العدوان على أية حصة مما يرثنه عن أقاربهنَّ وإخوانهن وأزواجهن»[1].

(1) مجلة الأزهر، المجلد الثامن، ص: 290، نقلاً عن: د. مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، 2003.

حقوق المرأة في الإسلام مصانة

ويشمل على المباحث التالية:

- هل الإسلام أضاع حقوق المرأة السياسية والاجتماعية أم منحها لها؟
- الرجال قوّامون على النساء.
- قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228].
- هل في صالح المرأة أن تتكشف وتتبرج؟!

هل الإسلام أضاع حقوق المرأة السياسية والاجتماعية أم منحها لها؟

حقوق المرأة في الإسلام مصانة بشكل لا مثيل له في أي نظام، هل سمعت أخي القارىء أن عمر بن الخطاب لم يرهبه أحد في دولة المسلمين التي امتدت كثيراً في عهده، ولكن امرأة واحدة أرهبته في موقف واحد، فانظر كيف أنّ أمير المؤمنين لم يخطىء في شأنها ولم يضع عليها حقاً، مع أنها أغلظت له القول حتى هوّنت من شأنه كثيراً، فانظر كيف كان الموقف؟

كان عمر ﷺ قد صحب معه المصلي بن الجارود العبدي، وبينما هما سائران في الطريق وعمر واضعاً يده على كتف المصلي، لقيتهما امرأة من قريش وطلبت منهما الوقوف، ثم وجهت حديثاً حاداً غاضباً إلى عمر، وخاطبته بصيغة التصغير، قالت: كنا نعرفك لمدة طويلة (عُميراً) ثم صرتَ من بعد عمر أمير المؤمنين، وعندئذٍ نظر المصلي إلى المرأة منزعجاً من جرأتها ومتعجباً من صمت عمر، فكيف تخاطب هذه المرأة أمير المؤمنين بهذه الغلظة، إلّا أنها لم تعر نظراته اهتماماً، واسترسلت في حديثها: اتق الله يا ابن الخطاب، وانظر في أمور الناس، فإنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف

الموت خشي... وهذه المرة لم يتحمل المصلي كلام المرأة وهجومها على عمر، وزاد من انفعاله أنه رأى الدمع ينزل مدراراً من عيني عمر ﷺ وصوته يتهدّج بالبكاء. فصاح في وجهها: يا أمة الله، أبكيتِ أميرَ المؤمنين، وقبل أن يكمل كلامه أشار عليه عمر ﷺ أن يسكت، وأن لا يقاطعها ولايصيح في وجهها، ثم وجه عمر كلامه إلى المصلي بصوت يعلوه النشيج قائلاً: أتدري من هذه؟ واستشعر المصلي أهمية ومكانة المرأة من لهجة عمر وتأثره بما قالت، واستمر قائلاً: هذه خولة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من سمائه، فعمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدي بها. وهذه المرأة هي التي نزل في شأنها قول الله تعالى في أول سورة المجادلة خطاباً إلى رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]. ونزلت بعد هذه الآية الكريمة ثلاث آيات تحمل أحكام الظهار.

ونائلة زوجة عثمان بن عفان ﷺ كتب عنها الدكتور أحمد الكبيسي ويقول[1]: مثال آخر للمرأة التي كان لها دور في الوعي السياسي، و(نائلة) هي **«بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية»** وكانت مثالاً نموذجياً في العقل والفصاحة والجمال والرأي السديد. وكانت تشهد مع زوجها عثمان ﷺ مجالس الرأي ومواقف الحزم، وندوات التدبير. ومن ذلك: أن عثمان بن

(1) مجلة العربي، عدد 339، سنة 1978، ص: 30.

عفان ﷺ خطب الخطبة التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة، فَرِقَّ الناس له يومئذ - وبكى من بكى منهم - ثم لما عاد وجد في منزله مروان ونفراً من بني أمية، ولم يكونوا قد شهدوا الخطبة، فلما جلس، قال له مروان: أتكلم أم أصمت؟ فقالت له نائلة: لا بل اصمت، فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها.

وفي هذا دليل على أنها شاهدت خطبته وتشاهد تبادل الرأي في مجلسه مشاهدة العارف البصير، الذي يحترم رأيه وتؤخذ مشورته ويحسب حسابه، وجاء علي بن أبي طالب يوماً على عثمان، ودخل عليه مغضباً فقال له: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلّا بتحريفك عن عقلك، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله إني لا أراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمتابعتك. فلما خرج دخلت عليه نائلة فقالت: أتأذن لي بالكلام؟ فقال: تكلمي، فقالت: قد سمعت قول علي، وأنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء. فقال: فما أصنع؟ قالت: «تتقي الله وحده لا شريك له، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تَرَكك الناس لمكان مروان، فأرسل إلى علي فاستصلحه، فإن له قرابة منك وهو لا يعصى».

فأخذ عثمان برأيها وفعل ما أشارت به، ولقد حاول مروان

أن ينال منها عند عثمان بعد أن سمع مقالتها فيه، غير أن عثمان صده وانتهره، وصرح بأنها أصدق من مروان وأدرى، وبقيت نائلة تساهم في العمل السياسي بالرأي والجهد والتعرض للأخطار حتى الساعات الأخيرة من حياة زوجها، حين تسلل البعض بالسيوف إلى دار عثمان ﷺ. فلما رأت نائلة ذلك منهم نشرت شعرها لكي يولوا حرمة ذلك فقال لها عثمان ﷺ: خذي خمارك فلعمري لدخولهم علي أعظم من حرمة شعرك. أي أنهم إذا لم يرعوا حرمة ذاك فلن يرعوا حرمة هذا. ثم أهوى رجل إلى عثمان ﷺ بالسيف، فانكبت عليه واتقت السيف بيدها، فقطع أناملها، فنادت غلاماً لعثمان ﷺ اسمه «رباح» معه سيف: يا رباح أعن عني هذا فضربه رباح فقتله، ثم دخل آخر معه سيف، فقال: أفرجوا لي، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان، فأمسكت نائلة السيف فحز أصابعها ومضى السيف في بطن عثمان حتى قتله. وهكذا كانت نهاية ذي النورين ومجهز جيش العسرة الذي كانت تستحي منه الملائكة وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

ولم تتوقف نائلة بنت الفرافصة عند هذه النقطة، بل واصلت العمل السياسي في إطار نكبة عثمان ﷺ. ذلك أنها خرجت ومعها نسوة من قومها إلى مسجد الرسول ﷺ فاستقبلت القبلة بوجهها، ووجهت إحدى النسوة تستنهض الناس لها، فتجمعوا حولها، وقد أسدلت ثوبها على وجهها وألقت كمها في رأسها، وتوجهت إلى الناس بالخطاب، فحمدت الله وأثنت

عليه، وصلت على النبي ﷺ، ثم قالت: أيها الناس، إن عثمان ﷺ ذا النورين قتل مظلوماً بينكم ـ بعد الاعتذار ـ وإن أعطاكم الغبن، معاشر المؤمنين وأهل الملة، لا تستنكروا مقامي ولا تستكثروا كلامي فإني رزئت جليلاً وتذوقت ثكلاً من عثمان، ثالث الأركان من أصحاب رسول الله ﷺ في الفضل عند تراجع الناس في الشورى يوم الإرشاد. فكان الطبيب المرتضى، المختار حتى لم يتقدمه متقدم، ولم يشك في فضله متأثم ألقوا إليه الأزمة، وخلوه والأمة، حين عرفوا له حقه وحمدوا مذاهبه وصدقه. فكان واحد غير مدافع وخيرتهم غير منازع لا ينكر له حسن الفناء، ولا عنه سماح النعماء، إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا إلى رؤوس أئمة الكفر، حين ركضوا فقلدوه الأمور إذ لم يكن له فيهم نظير، فسلك بهم سبيل الهدى وبالنبي ﷺ وصاحبيه اقتدى.

امتد له الدين، واتصل به سبيل المستقيم، ولحق الكفر بالأطراف وأقام يمدكم بالرأي ويمنعكم بالأدنى، يصفح عن مسيئكم في إساءته، ويقبل من محسنكم بإحسانه، ويكافئكم بماله، ضعيف الانتصار منكم قوي المعونة لكم، فاستلنتم عريكته حين منحكم محبته، آمناً جرأتكم وعدوانكم، فرأكم بعين الحق إخواناً، ورأيتموه بعين الباطل شيطاناً في أعقاب سيرة عمر بن خطاب ﷺ الذي رأيتموه فظاً وعددتموه غليظاً، أخذكم بالشدة وتخوفكم بالضرب، وكان والله أعلم بآدابكم ومصالحكم، (فلله هو) كأن قد نظر في ضمائركم وعرف

إعلانكم وسرائركم. فحين فقدتم سطوته وأمنتم بطشه ورأيتم أن الطُرق قد انشعبت لكم، والسبل قد اتصلت بكم ظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين. فعدوتم عدوة الأعداء وشددتم شدة السفهاء على التقي النقي الخفيف بكتاب الله لساناً، الثقيل عند الله ميزاناً، فسفكتم دمه، وانتهكتم حرمه واستحللتم منه الحرم الأربع، حرمة الإسلام وحرمة الخلافة وحرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام. فليعلمن الذين سعوا في أمره ودبوا في قتله ومنعونا عن دفنه: أن بئس للظالمين بدلاً، وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً، لَتَتَعَبّدَنّكم الشبهات ولتتفرقن بكم الطرقات ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان.

عيون الباطل وأهله

ثم قالت: إنكم في فتنة عمياء صماء، ممتدة الحيران شوهاء العيان في لبس من الأمر لهوات الشر فاغرة (أي مفتوحة)، وآيات السوء كاشرة (أي إظهار الأنياب بغرض الحرب)، وعيون الباطل خزر، وأهله شزر. نكرتم أمر عثمان وبشعتم الدّغة لتنكرن غير ذلك في غيره حين لا ينفعكم عقاب، ولا يسمع منكم استعتاب ثم أقبلت بوجهها على قبر النبي ﷺ فقالت:

أيا قبر النبي وصاحبيه ... عذري إن شكوت ضياع ثوبي
فإني لا سبيل فتنفعوني ... ولا أيديكم في منع حوبي

ثم انصرفت وهي تبكي وتُرَدّدِ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

هذا بعض ما جاء في خطبة نائلة في مسجد رسول الله ﷺ

بعد مقتل عثمان ﷺ. ولم تتوقف نائلة بعد ذلك عن العمل السياسي في هذا المجال، فكتبت إلى معاوية بن أبي سفيان تصف دخول القوم على عثمان، وأرسلت بقميصه مضرجاً بالدم ممزقاً، وبالخصلة التي نتفها محمد بن أبي بكر من لحيته، وبإصبعين من أصابعها المقطوعة من شيء من الكف، ثم دعت (النعمان بن بشير الأنصاري) فسلمته ذلك وبعثت به إلى معاوية. أما نص الكتاب، فقد كان آية في الفصاحة والبلاغة، ودليلاً على العمق السياسي وقوة التصوير، يحلل الحوادث، ويقترح الحلول، ويشخص الأخطاء، فكان بحق من التقارير السياسية النادرة في التأريخ.

ولقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في الحوادث التي تلت ذلك، فلقد قرأه معاوية على الناس في المسجد، فحلف رجال من أهل الشام أن لا يطأوا النساء حتى يقتلوا قتلة عثمان أو تذهب أرواحهم ثم كان ما كان مما هو معروف.

ولقد بلغ من حسن وفائها لعثمان ﷺ ما يلي: كانت من أجمل نساء العرب ثغراً، فكان يضرب المثل بحسن فمها وأسنانها، فلما قتل عثمان أخذت فهراً ـ أي حجراً صلداً ـ فدقت به أسنانها فسال الدم وتناثرت أسنانها على صدرها فبكت النسوة من حولها وقلن لها: ماذا صنعت بنفسك؟ فقالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وإني خفت أن يبلى حزني على عثمان فيطلع مني رجل على ما اطلع عثمان، وذلك ما لا يكون، والله لا قعد مني رجل مقعد عثمان أبداً.

ولقد خطبها معاوية بعد ذلك فرفضت وقالت تخاطب نفسها:

أبـى الله إلا أن تـكـوني غـريـبـة بيثرب لا تلـقـين أماً ولا أبا

وهي تشير بذلك إلى غربتها في المدينة حيث كان أهلها من بادية السماوة بالعراق ولزواجها من عثمان قصة طريفة تذكرها كتب التاريخ.

وهناك أخبار لنساء مجاهدات تملأ جوف التاريخ بالعجيب المعجب من أخبار النساء (كالزرقاء بنت عدي) التي كانت تركب جملها الأحمر وتقف بين الصفوف في معركة صفين تناصر الإمام علي وتَحُث المقاتلين على الصبر وتقول:

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فوجدها، فصبراً معاشر المهاجرين على الغصص، وامضوا إلى القتال غير ناكسين ولا متشاكسين.

ولقد استقدمها معاوية بعد أن استتبت له الأمور فقال لها: يا زرقاء لقد شركت عليًا في كل دم سفكه.

فأرادت منعه من الاسترسال في ذلك فقالت له مؤنبة: يا أمير المؤمنين مثلك من بَشَّر بخير وَسَرَّ جليسه، فسكت عنها.

ودخلت «عكرشة بنت الأطرش» على معاوية بعد أن وُلّي الخلافة، فدار بينه وبينها هذا الحوار الذي يدل على قوة شخصيتها، وشدة شجاعتها وعمق ثباتها على رأيها، وهي صفات يفتقر إليها السياسي اليوم، ولا يصلح أمره بدونها.

قالت: السلام عليكم يا أمير المؤمنين.

قال: الآن صرت عندك أمير المؤمنين؟

قالت: نعم إذ لا عليٌّ حي.

قال: أوَلست المتقلدة حمائل السيف وأنت واقفة بين الصَّفين بصفين تحرضين الناس عليَّ، والله لقد كدت يومئذ لتفلين جيش الشام لولا قدر الله، فما الذي حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إن الله سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، وإن اللبيب إذا كره شيئاً كره إعادته.

قال: صدقت، وسكت عنها.

فلقد بلغ تأثير هذه المرأة السياسي أن أوشكت أن تثني أهل الشام عن رأيهم، وتدفعهم إلى التخلي عن نصرة معاوية لولا قدر الله كما يعترف معاوية بذلك. وهذه مهمة ليست بالسهلة، فعندما يصل السياسي إلى حد تغيير الاتجاهات في مثل هذه المواقف الحرجة، والساعات الحاسمة، فلأنه يتمتع بقدرات عالية، وكفاءة ممتازة، وشجاعة نادرة. وهذا ما كانت تتمتع به عكرشة بنت الأطرش حين أوشكت أن تحقق ذلك لولا تدخل القدر كما يقول معاوية.

وما قامت به عكرشة يذكرنا بما قامت به «سودة بنت عمارة ابن الأشتر» التي وفدت على معاوية بعد مقتل علي، فكانت بينهما المحاورة التالية، التي أظهرت ملامح الوعي السياسي لهذه

المرأة المتميز بالجرأة الشديدة، والثبات على الرأي.

قال: كيف أنت يا ابنة الأشتر؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين.

قال: ألست القائلة لأخيكِ:

شَمِّر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأبدان

وانصر عليًا والحسين ورهطه واضمر لهند وابنها بهوان

قالت: يا أمير المؤمنين، قطع الرأس وبتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نسي.

قال: هيهات ليس لمقام أخيك نسي.

قالت: صدقت والله ما كان أخي خفي المقام ولا ذليل المكان، ولكنه كان كما قالت الخنساء:

وأن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علَمٌ في رأسه نارُ

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين، ألا أَعْفَيْتني مما استعفيت، فسكت عنها.

المفاوض العنيد

ولقد كانت سودة بنت عمارة ثاقبة الرأي في السياسة، ونافذة البصيرة في الزعامة، تمثل قومها وتنوب عنهم في المحافل. على الرغم مما عرف عن قومها (بني همذان) من نبل في السلوك، وبأس عند اللقاء، وكلمة عشية التدبير، حتى بلغت مكانتهم عند علي بن أبي طالب ﷺ أن قال فيهم:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمذان ادخلوا بسلام

ولقد نابت عن قومها في رفع الشكوى إلى معاوية عما لحق بهم من ظلم عماله عليهم، فكانت بينهما المناوشة الكلامية التالية التي أظهرت ما لهذه المرأة من بلاغة في القول، ورباطة في الجأش، وإصرار على الحق، يعزز ذلك إدراك كامل للهدف، ومعرفة بالحدود والأحكام.

قالت: يا أمير المؤمنين، أنت اليوم للناس سيّد، ولأمورهم مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقوقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط سلطانك، فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسألنا الخسيسة، ويسومنا الجليلة، وهذ (ابن أرطأة) قدم بلادي فقتل رجالي وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك وإما لا، فعرفناك.

فغضب معاوية من جرأتها عليه وتهديدها له، وقال: ويحك أإياي تهددينني بقومك، والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس حتى ينفذ فيك حكمه، ثم سكت.

وسادت بينهما برهة من الصمت المتوتر، قطعتها سودة حين أخذت تتمثل بأبيات من الشعر فتقول:

صلّ الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

فقال معاوية: ومن ذاك؟

قالت: علي بن أبي طالب ﷺ.

قال: ولكنني لا أرى عليك منه أثراً.

قالت: بلى والله، أتيته في رجل كان قد ولاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يصلي، فانفتل عن الصلاة، وقال برقة وتلطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: اللّهم إني لهم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب عليها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟﴾ [الأعراف: 85]. إذا جاءك كتابي هذا فاحتفظ بما بين يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام، فعزله.

فقال معاوية: اقضوا لها حاجتها[1].

حقاً إن النساء في صدر الإسلام بلغن في الأدب والفصاحة والشجاعة درجة، يعجز القلم عن وصفها، ولا يخفى أن تلكم الصفات نابعة من خُلق الإسلام وتعاليمه السمحاء.... ابتعدنا عن الإسلام فأنسانا الله الأدب والخلق وحتى اللغة... فإننا كرجال نغبط هؤلاء النساء اللاتي كن قمة في الشجاعة والفصاحة والبلاغة والمواجهة.

هكذا كانت الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام. وهناك قصص عن شخصية المرأة ودفاعها عن حقوقها، ومعرفتها وجرأتها لتطالب بهذه الحقوق في عصر الرسالة، ولعلي عندما

(1) نص مقالة الشيخ الدكتور أحمد الكبيسي ـ العربي ـ العدد 239.

أقصُ عليك أخي القارىء هاتين القصتين، سَتبيّن لك الصفات العظيمة التي كانت تتصف بها المرأة في عهد الرسالة، ودون أن أعلق بعدها أي تعليق.

قصة امرأة ثابت بن قيس حينما قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، ما أنقم على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه بُغضاً، فقال: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم، فردتها عليه (وأمره ففارقها)[1].

ونذكر عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي رسول الله ﷺ وأنا جالسة وعنده أبو بكر، فقالت: يا رسول الله، إني كنت تحت رفاعة فطلقني فبتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمٰن بن الزبير، وإنه والله ما معه يا رسول الله إلّا مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها ـ أي طرفاً من ثوبها ـ فسمع خالد بن سعيد قولها وهو بالباب لم يؤذن له، فقال خالد: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ؟ فلا والله ما يزيد رسول الله على التبسم، ثم قال لها ﷺ: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته»[2].

أي زمان كان ذلك.! وأي دولة كانت تلك؟! وأية حقوق

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 5273)، و(الحديث: 5274).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 2639)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 3512).

امتازت بها المرأة في غضون ذلك العهد. امرأة تغضب من عمر وتوجّه له حديثاً حاداً وغاضباً، وحتى أنها قد خاطبته بصيغة التصغير.. هذه هي المرأة في صدر الإسلام... هكذا كانت حقوقها إنها صاحت في وجه خليفة المسلمين، أليس هذا هو الحق السياسي والاجتماعي لها؟ أي بلد شهد هذه الحرية؟

هذا وإن الإسلام قد سوّى بين الرجال والنساء تسوية في الأحكام المتعلقة بالتصرفات المالية والشخصية. فالمرأة في نظام الإسلام تنجز لنفسها عقود البيع والرهن والإجازة والصلح والشركة والمُزارعة بحرية تامة كالرجل، كما أنها تهب وتوصي وتتصرف وتسبل السبل، وتقف الأوقاف وتعتق الأرقاء، حكمها في ذلك حكم الرجل.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ

هل أن هذه الآية فيها امتهان للمرأة؟! أم هي في صالحها؟.. يقول البعض: إن المرأة في الإسلام ليست أكثر من تابع للرجل بدليل الآية القرآنية السالفة الذكر، ولكن هل فهم هؤلاء المقصود من هذه الآية العظيمة؟ حيث يقول بعض المتباكين على حقوق النساء: هذا ليس عدلاً، ولكن أمعن النظر في معنى «قام» في اللغة، ترى أنه إذا قيل: قام الرجل المرأة وقام عليها: يعني عانها، وقام بشأنها فهو إذن قائم لها أو قوّام عليها بصنوف الرعاية والمدافعة والحماية، لذا نرى من هنا أن الدين الإسلامي الحنيف ألقى فريضة الجهاد على الرجل دون المرأة، وذلك لطبيعة استعدادها للحمل والإرضاع، وما تلقاه من

ضعف وألم نتيجة ذلك، فلا يكون لديها من الطاقة ما تنهض به لرد غارة أو مدافعة عدو. . فهذا كان نوعاً مادياً من القوامة.

أما النوع الآخر المعنوي أو الأدبي فلا يعني القهر والاستبداد، فسياسة البيت تقوم على العدل والمساواة والشورى، إذ للمرأة حرية الرأي ولها حق التصرف بما لها بكل حريتها، فالإسلام يمنع ولاية الرجل على مال زوجته، وبهذا نحن المسلمون لا ننظر إلى المرأة كبضاعة أو دمية. هذا وللمرأة أن تُخاصم غيرها أمام القضاء دون تدخل الزوج، إذن (القيام) لا يمس أهليتها لِلمُلك ولا أهليتها للتصرف التام في مالها الخاص، وإذا لم تمتد هيمنة الرجل إلى حرية الدين، أو إلى حرية الرأي، أو إلى حرية التصرف في أموالها، أو إلى المساواة بينها وبينه في الحقوق، فماذا يخيف المتباكين من قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34].

ثم إن من أهم خصائص القوامة المثلى رجحان العقل على العاطفة، وهذا الرجحان متوفر في الرجال بصفة عامة أكثر من توفره في النساء، لأن النساء بمقتضى ما هن عليه مؤهلات له من إيناس للزوج وحنان عليه، وأمومة وصبر على تربية الطفولة، إذ تترجح لديهن العاطفة على العقل، وهنا لا بد أن نشير إلى أنه لن تكون هناك قوامة مثلى لأي مجتمع إنساني صغيراً كان أم كبيراً، إذا كانت العاطفة فيه هي الراجحة على العقل. هذا ولئن كان بعض الرجال تتحكم بهم عواطفهم أكثر من عقولهم،

وبعض النساء تتحكم بهن عقولهن أكثر من عواطفهن، فذلك أمر نادر لا يصح أن تتغير من أجله قاعدة عامة. ويقول مؤلف كتاب (أجنحة المكر الثلاثة) حول القوامة ما يأتي:

ومن المرجِّحات إسناد القوامة في الأسرة إلى الرجل، لأنه هو المسؤول في نظام الإسلام عن النفقة عليها، ومسؤوليته عن النفقة على أسرته تجعله أكثر تحفظاً واحتراساً من الاستجابة السريعة للشهوات العابرة، والانفعالات الحادة الرعناء، بخلاف المرأة في ذلك، لأنها بحكم عدم مسؤوليتها عن النفقة وعن السعي لاكتساب الرزق يقل لديها التحفظ والاحتراس، وتكون في أغلب أحوالها ذات استجابة سريعة لشهواتها وانفعالاتها، التي قد تتطلب منها نفقات مالية باهظة، أو تدفعها إلى الشحّ المفرط، ومن أجل ذلك أيضاً كان الرجل أصلح من المرأة لوظيفة القوامة في الأسرة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين السببين المرجحين حينما أعلن أن الرجال قوامون على النساء، فقال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: 34].

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: 228].

فالرجال... **أولاً**: يمتازون برجحان العقل على العاطفة، كما جاء آنفاً. **ثانياً**: وهم مسؤولون عن النفقة على أسرتهم،

وهذان سببان يجعلان الرجال أصلح للقيام بوظيفة القوامة من النساء، بينما نجد النساء أصلح من الرجال للقيام بوظائف اجتماعية أخرى جعلهن الإسلام المسؤولات عنها والمكلّفات بها.

وأولى من القوامة في الأسرة القوامة العامة، سواء أكانت إمارة أو رئاسة أو خلافة أو نحو ذلك، فالرجال بصفة عامة هم الأصلح لتحمل مسؤوليات القوامة العامة، والأقدر على إدارتها وتدبير شؤونها، وهذا هو ما اختاره الإسلام في نظامه للمسلمين.

فلو فرضنا أن القوامة كانت للنساء، فكان عندئذٍ على المرأة إعانة الرجل والعائلة، وأن تقوم بشأن الأسرة وبكافة صنوف الرعاية والمدافعة والحماية.. وكانت في تلك الحالة تقوم القيامة على الدين الإسلامي، ويقولون: المرأة المسكينة الرقيقة الحنونة الضعيفة، كيف أُلقيت عليها هذه الأعباء، ولماذا لم تُلْقَ تلك الأعباء على الرجال..

ويضيف الكاتب أيضاً: أما من الناحية الفكرية، فلا يخفى على أحد أن الحكمة في المجتمعات الإنسانية، تقضي بأن يكون لكل مجتمع صَغُر أم كَبُر قَيِّمٌ يقوده ويدير شؤونه، حماية من الفوضى والتصادم والصراع الدائم. والأسرة إحدى المجتمعات التي تحتاج إلى قيّم منها تتوافر فيه القوامة بشكل أمثل.

ومعروف لدى أهل الفكر في مسألة القوامة داخل الأسرة بأن هناك مجموعة من الاحتمالات:

1 ـ أن يكون الرجل هو القيّم في الأسرة باستمرار.

2 ـ أن تكون المرأة هي القيّم في الأسرة باستمرار.

3 ـ أن يكون كل من الرجل والمرأة قيّمان على سبيل الشركة المتساوية.

4 ـ أن يتناوبا القوامة وفق قسمة زمنية.

5 ـ أن يتقاسما القوامة، بأن يكون لكل منهما اختصاصات يكون هو لقيّم فيها.

وإذا ما أخذنا بالشركة في القوامة، سواء أكانت جزئياً، أم في كل شيء وفي كل وقت، على سبيل التناوب الزمني، أم كانت على سبيل التقاسم في الاختصاصات، فإنها ستؤدي حتماً إلى الفوضى والتنازع، ورغبة كل فئة بأن يعلو على صاحبه ويستبد به، ما لم يكن شيء من ذلك برأي صاحب القوامة الفرد، وطوعه واختياره، وبدافع من التفاهم والتوادّ والتراحم بين الزوجين.

وقد أيّدت تجارب المجتمعات الإنسانية فساد الشركة في الرياسة، ولذلك نلاحظ تركز المسؤولية الكبرى في رئيس واحد، لدى أي نظام اجتماعي من الأنظمة التي عرفها الإنسان، ولو كانت تتّسم بسمة القيادة الجماعية، وعمل الجماعة القاعدة لا يعدو أن يكون عملاً أقرب إلى المشورة منه إلى ممارسة السلطة سواءً أكانت المشورة ذات طابع إلزامي أم غير إلزامي،

لأن من تتكرر بيده السلطة الفعلية يستطيع أن يجعل رأي الأكثر موافقاً لما يريد.

ويعود الكاتب السالف ذكره ليقول:

ويحاول أعداء الإسلام خداع الأجيال المسلمة لا سيما الفتيات المسلمات، إذ يقذفون شبهاتهم الظالمة الآثمة فيغمزون الإسلام بأنه لم يسوِّ بين الرجال والنساء في مسألة القوامة، مع أن ما يريدون اتخاذه مغمزاً هو في حقيقة أمره من مفاخر الإسلام الفكرية والواقعية ومن أمجاده التشريعية، التي ساهمت في منح الشعوب المسلمة في عصورها الذهبية سعادتها واستقرارها ورغد عيشها.

في الواقع أنا لا أعلم هل بالإمكان أن يُكره النجار ليعمل عملاً كهربائياً؟ وهل يمكن أن نكره الخياط ليقوم بعمل الحداد؟ إن ذلك يعد من المستحيلات.

وما مثل الذين يحاولون أن يسوّوا بين المرأة والرجل في كل وظيفة من وظائف الحياة، إلا كمثل من يحاول أن يسوّي بين أعضاء الجسد الواحد في وظائفها الجسدية والنفسية، فيكره الأيدي مثلاً على أن تساعد الأرجل في المشي، دون أن تقوم ضرورة لذلك، ويريد للأرجل أن تشارك الأيدي في صناعات الكتابة والخياطة، وأعمال البنان المختلفة، ويريد للفكر أن يحب ويشتهي، ويريد لشهوات النفوس أن تعقل وتفكر، ويتحسَّر على العيون لأنها لا تسمع، وعلى الآذان لأنها لا تبصر وتهفو نفسه إلى التلاعب بطبائع كل عضو من الأعضاء، بغية أن يكون له

خصائص الأعضاء الأخرى، إلى آخر هذا العبث الذي يعتبره العقلاء ضرباً من الجنون.

أفلا يجب على رجالنا ونسائنا وفتياننا وفتياتنا أن يعودوا إلى النظر السديد، والرأي الرشيد، ويبتعدوا عن كل عبث وهراء، وثرثرة وافتراء، بعد أن يكتشفوا أغراض المضلّلين، ويعلموا أن أعداء الإسلام قد مهروا في تزوير الحقائق لصد المسلمين عن دينهم، وسلبهم كنوز مجدهم وقوّتهم؟؟...

قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

نعم إن هذه الآية الكريمة تجعل رئاسة الأسرة للرجل دون المرأة، حيث هو من مقتضى العقل وطبيعة الأشياء. فالرجل إليه يُنسب الأولاد، وهو المسؤول عن نفقتهم - طعامهم وكسوتهم وجميع متطلبات الأسرة - أضف لذلك رعاية شتى أمورهم وشؤونهم خارج البيت، وهو المدبّر للمسكن، عليه إعداده وحمايته ونفقته، إذن للرجل عليها درجة بكل هذه المسؤوليات الكبيرة التي في الواقع لا حدود لها، فإذا اقتضت طبيعة الوضع أن تكون رئاسته له دون المرأة، فهي رئاسة المسؤوليات وليس التحكم الذي يجور على العدل والمساواة والشورى.

وإن من أُولى مظاهر الرياسة: أن المرأة تنتقل من بيت أهلها إلى بيت زوجها فتتبعه في الإقامة والسكن، فالرياسة إذن ما هو إلّا امتياز نشأ للرجل في مقابل التبعات الكثيرة والاختصاصات الواسعة المسندة إليه، وليس فيها إلغاء إرادة الزوجة أو إهدار شخصيتها أو المسّ بحقوقها، أضف إلى هذا

كلّه رابطة الزوجية التي تربط غالباً بين إلفين متحابين يتعاطفان بمشاعر المودة والرحمة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ (٢١)﴾ [الروم: 21] ويؤثران أولادهما على أنفسهما، ويُؤثر أحدهما الآخر على نفسه وصحته وراحته ويخفف الرجل عن زوجته كلما استطاع، وتَحمِلُ المرأة أعباء إضافية بمحض إرادتها ومحبتها ورغبتها في عون زوجها دون حكم العدل والمساواة والشورى، إذن هذه هي علاقة الزوج وزوجته في الإسلام.

ويكفيني أن أذكر عن بعض الدراسات الحديثة جداً عن وضع المرأة في الغرب ليتوضّح ما أروم إليه، وأبدأ بنقل جزء من دراسة بريطانية نشرت حديثاً وهي كالآتي[1]:

تدل نتائج هذه الدراسة على حجم الضغوط التي تتعرض لها المرأة العاملة عموماً، سواء في البيت أو في العمل. وهي تتّسق مع دراسات أخرى أجريت في أمريكا وأوروبا، وأظهرت أن المرأة لم تعد متحمسة للعمل خارج البيت كما كانت في السابق، وذلك على ما يبدو بعدما اكتشفت أن عملها خارج البيت لا يعفيها من مسؤولياتها الثقيلة داخل البيت، وأن الوضع الجديد لم يغير كثيراً من الطبيعة الاتكالية للرجل.

إن مدى سطوة المال وأثره على الإنسان وبلوغه حدوداً أبعد غوراً في التأثير في مقدرات البشر الاجتماعية، ألقت على المرأة هذا الكائن الرقيق والحنون أن تُلقى عليها أعباء مضاعفة

---

(1) مجلة الصدى: يناير 2006، ص: 62.

لا تتحملها وهي فوق طاقتها، فمن الذي ظلم المرأة؟

سيطر المال في عصرنا الحالي ـ مع الأسف ـ على المجتمعات كثيراً والمثال الآتي خير دليل على مدى هذه السيطرة، حيث أن المرأة الرقيقة هي دوماً الخاسرة في مجتمعات الغرب، ومع الأسف قد امتدت هذه الظاهرة إلى شرقنا، وقد كُتِبَ في المجلة الآنفة الذكر أنه: (قبل أسابيع نشرت صحيفة محلية ناطقة بالإنكليزية تحقيقاً عن معاناة الموظفات الحوامل في القطاع الخاص بالإمارات، حيث تبيّن أنّ العديد منهن تسلمن خطاب الطرد بمجرد اكتشاف رب العمل أنهن حوامل، باعتبار أن الحمل يتناقض مع التفاهم المبدئي الذي تم التعيين على أساسه والذي يقضي بعدم الحمل طوال فترة العقد، وقد دخل الأمر دائرة الجدل العام، وراحت معظم الآراء تصف الموضوع على أساس أنه اعتداء على إنسانية المرأة وخصوصيتها، وباتت بعض تلك الآراء تشكو بأن قرارات الحمل والإنجاب في زماننا لم تعد تتخذ في غرف النوم، بل في مجالس الإدارة. هذه المشكلة ليست محلية تماماً، بل إن ما يدور في أسواقنا المحلية ما هو إلّا انعكاس لهيمنة السوق في عالم اليوم، ففي بريطانيا أفادت دراسة صدرت مؤخراً بأن أكثر من مليون امرأة يواجهن الفصل من أعمالهن بسبب الحمل في السنوات الخمس المقبلة

وأشار التقرير الذي أصدرته مؤسسة الفرص المتساوية إلى أن سبعاً من كل عشر نساء في بريطانيا يعانين الاستشاد والتنمر

والتهديد بالبطالة بسبب الحمل، ومع ذلك فهن يعانين بصمت.

وتفقد النساء اللاتي يتم طردهن بسب الحمل أكثر من 21 مليون جنيه إسترليني سنوياً كتأمينات خاصة بالأمومة، بينما يكلف استبدال أولئك النساء 126 مليون جنيه كخسارة يتحملها الاقتصاد).

إذن هكذا تُعطى للمرأة حقوقها ونحن في بداية القرن (21).. هل يُعد ذلك تقدماً؟ وهل بالإمكان أن نقنع ربّ العمل على منح النساء أثناء حملهن رواتب عند غيابهن عن العمل؟ سأترك الإجابة على ذلك للقارئ العزيز.

حرام أن تعامل المرأة الحنون هذه المعاملة، وهي لا تدري كيف توازن بين أمور الحياة المختلفة: تربية أطفال، عمل، طرد من الوظيفة، وإلى آخره من الأمور التي تُحاصر المرأة وتضايقها.

هل في صالح المرأة أن تتكشف وتتبرج؟!

لا شك أن هذا الموضوع يحتاج نوعاً ما لمناقشة دقيقة، فلنفرض أن رجلاً متزوجاً وهو في سن الأربعين، وقد تزوج بامرأة في سن أقل من سنه بعشر سنوات، ولا يخفى على أحد أنه بالحمل والولادة وشؤون الدار ومر السنين تذبل المرأة وبذلك يذبل جمالها، ويخرج الزوج إلى خارج بيته، فحتماً يجد فتاة في سن الخامسة عشر، وتكون الفتاة حتماً في هذا السن في أكمل زينتها، ولها نضارة في أقصاها. ولكن ماذا يكون موقف

الزوج وهو يرى هذه الفتاة الصغيرة، وهي في أوج جمالها؟ لا بد أن هذا الرجل يقارن ما يراه في خارج بيته ـ كأن يكون في الشارع أو السوق ـ مع ما يراه في بيته، فتبدأ المشكلة الكبرى، وربما ستؤول الحالة في أغلب الأحيان إلى الطلاق أو فساد الرجل.

فهنا. . . عندما أراد ديننا الحنيف الحجاب للمرأة وسترها، أراد أن يضمن ويؤمن حياتها، فإذا كانت المرأة مستورة في الشارع وغير متبرّجة، فيجعل الزوج عندئذ لا يعرف إلا وجه امرأته، وفي ذلك الحين لا يقارن بين جمال ما يراه في الشارع والسوق وبين زوجته التي تَغَضَّنَ وجهها، وابيضَّ شعرها، إنه لا يرى شيئاً من ذلك الجمال.

هل الإسلام ظلم المرأة حينما أمرها بالحجاب أم رحمها؟ أليس ذلك تأميناً لحياتها عندما تكبر؟ وعندما نقارن بيئتنا الإسلامية بالبيئات الغربية نرى عجباً فالمرأة في الغرب عندما تكون في سن نضارتها وكامل أنوثتها، تزلف لها وظائف راقية لا تتصورها، ولكن ماذا يحلّ بها عندما تذهب نضارتها ويذهب بهاؤها وجمالها؟ لا تلقى أحداً حولها، فينتهي كل شيء وينتهي أمرها، ونرى أن الأيام تمر وكذا الأعوام تمر، وحتى الأولاد لا يرونها ولا يزورونها. . هكذا حال من قلّد الغرب وابتعد عن الإسلام. . كثيراً ما كنا نلتقي أنا وزوجتي، عندما كنا نتنزه في الحدائق في ألمانيا، أزواجاً كباراً في السن، وكانوا يكلموننا. . فنقول لهم: أين أولادكم؟ فيجيبون: ما رأيناهم منذ عشرة أعوام

وهم في ولايات أخرى.. هكذا الأرحام والمودة في بلاد لا تعرف الإسلام.

هل على المرأة المسلمة أن تعرض مفاتنها لغير المحارم، وأن تمشي في الطرقات العامة بهيئة لا ترضي الله ولا رسوله؟ وأن تنظر إلى الأخلاق والآداب والتعاليم الإسلامية نظرة مجافاة في التطبيق، أو ازدراء في النفس، فالمرأة بهذه التصرفات فقدت في حياتها الخاصة والعامة بواعث عفتها، وتمسكها بشريعة الإسلام، وأخذت تتبرج تبرج الجاهلية الحديثة، وهي في مضامينها وكثير من مظاهرها أخطر من الجاهلية الأولى.

علماً أن التنكّر الصفيق اليوم لفكرة تَستّر المرأة واحتشامها، إنما هو خروج على الشرائع السماوية قاطبة من ملّة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام إلى الحنيفية السمحة التي جاء بها الإسلام، وتحلّلٌ من دين الله الواحد الذي أرسله الله للإنسانية على مدى الأزمان، تحمله الرسل جيلاً بعد جيل، لبناء النفس الإنسانية على الحق والفضيلة والخير، بحيث تغدو الإنسانية المهتدية بهدي السماء أمّة واحدة، مُنصاعة لربٍّ مَعبود واحد[1]:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 51-52].

(1) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد علي الهاشمي، ص: 57، 2004.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۞ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91-92].

ويسرني أن أذكر في هذا المجال تراجع عدد من أنصار تحرير المرأة من حجابها وحشمتها عن آرائهم القديمة في ابتذال المرأة وتكشفها واختلاطها الأهوج بالرجال.

يذكر صاحب كتاب «شخصية المرأة المسلمة ـ كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة» الدكتور محمد الهاشمي، نقلاً من بعض المجلات العربية، عن أن الدكتورة نوال السعداوي التي وقفت تهاجم الحجاب والمتحجبات زماناً طويلاً، وتدعو إلى نزع الحجاب بشراسة وعنف وإصرار، ها هي تقف اليوم لتنتقد ابتذال المرأة في الغرب وعريها الفاضح، فتقول: إنني في شوارع لندن. . أرى نساء شبه عاريات، وهؤلاء يعرضن أجسادهن كالبضاعة. الملابس لها وظيفة، وهي وقاية الجسم من العوامل الطبيعية، ولا ينبغي أن تقدّم رسائل إغراء. لو نظرت المرأة لنفسها كإنسانة، وليس كبضاعة، لما احتاجت أن تتعرى[1].

وتبيّن لنوال السعداوي بعد حين أن رفع الحجاب كان ينبغي أن يكون عن العقل، وخصوصاً عند المثقفين والمثقفات؛ فكم من نساء محجبات متوسطات التعليم يملكن عقولاً نيرة متفتحة،

(1) مجلة المجتمع الكويتية: العدد 932.

تزن عشرات من عقول بعض المتعلمات الرفيعات[1] المتبرجات، كاشفات الوجوه والرؤوس والأجساد، محجبات العقول والفِطَر والأفهام؛ ولذلك فهي تقول عن خطتها القريبة: (رفع الحجاب عن العقل من المثقفين والمثقفات)[2]. وتقول أيضاً: (أنا أعرف أستاذات وطبيبات ومهندسات يعانين من أمّية سياسية واجتماعية وثقافية)[3].

في الحقيقة لا أدري لماذا ذهبت الغيرة عن الرجال، ما أروع ما يقصه الكاتب معوض عوض إبراهيم[4] عن غيرة الديك وهو حيوان حيث يقول: قصّ عليّ صديق عن غيرة الديك وقال: «إنه وجد إحدى دجاجاته في حظيرة غير حظيرتها يوماً فحملها ليردها إلى مكانها ولكنه شاهد عجباً!! رأى الديك في الحظيرة التي غادرتها ثائراً يأبى أن تعود، ويبطش بها بعنف، وحاول الصديق أن يثنيه فما أفلح فغاب بالدجاجة فترة ثم عاد، فوجد الديك ما زال مصراً يأبى عليها أن تساكنه، وعاد بها ثم رجع إليه مرة ثالثة ومعه دجاجات أُخر، فلم يَثُر الديك ولم يأب عليهن مساكنته، وظن الصديق أنه يستطيع أن يعود بالدجاجة إلى حظيرتها بعد أن هدأت الثورة وسكنت العاصفة، فلما عاد بها، عادت ثورة غيور الذكور على الدجاجة التي تركت حظيرته!!»

(1) أي: الحمقاوات.

(2) مجلة المجتمع: العدد 931.

(3) المصدر السابق.

(4) الإسلام والأسرة.

فالديك يغار على الدجاجة، ومن البهائم العجماوات ما يغار على أنثاه، ويفنى دونها، وفي صحيح البخاري قال عمر بن ميمون الأودي: «رأيت في الجاهلية قرداً زنا بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا!!»[1].

ويقول علي كرم الله وجهه: الرجل الكامل من أخذ من الديك ثلاثة أشياء: سخاءه وشجاعته وغيرته. ومن الغراب ثلاثة أشياء: بكوره في طلب حوائجه، وشدة حذره، وستر سفاده[2]، وما أعظم توافق غيرة الديك، وستر الغراب سفاده!!

حوار بين ابنة وأمها حول المرأة

البنت: هل أنت يا أمي من شقائق الرجال؟

الأم: نعم.

البنت: ما دليلك؟

الأم: 1 ـ الآيات القرآنية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1].

2 ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

3 ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

---

(1) إرشاد الساري، ج8، ص: 122 ـ 123.

(2) السفاد: الجماع.

البنت: يعني ذلك أن الله تعالى يعلن أن الأصل التكويني للناس ذكوراً كانوا أم إناثاً أصل واحد. ولكن الغريب قبل حوالي 1400 سنة أعلن الإسلام هذه الحقيقة، في الوقت الذي لم تكن المرأة فيه إلّا مخلوقاً للمتعة أو الخدمة عند مختلف أمم الأرض.

الأم: نعم، إنه دليل كافٍ في لإثبات أن الإسلام شريعة ربانية تحكم بالعدل.

البنت: ما المقصود بالآية الأخيرة الآنفة الذكر؟

الأم: هذه الآية تكريم عظيم من الباري ﷻ، فهنا معنى السكن الدّال على أنه بحكمته قد جعل في المرأة من الخصائص ما يحببها لنفس الرجل حتى يسكن إليها.

البنت: كيف كان واقع المرأة في الجاهلية؟

الأم: كان واقعاً يرثى له بحق، إذ كانت المرأة عرضة للتسخير والإهانة والحرمان من جهة، ومحل لمتعة الرجل مع احتقار وازدراء من جهة أخرى. ولم يكن حالها في كثير من أمم الأرض وشعوبها بأحسن من حالها عند الجاهلية من العرب. وهذا ما جعل العرب الجاهليين يكرهون الإناث من مواليدهم كراهية شديدة، فإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً من شدة ألمه، كاظماً غيظه لأنه لا يجد من ينتقم منه. وكان بعضهم يتخلص من الأنثى التي ولدت له واستأمنه الله عليها، بأن يدسها في التراب وهي على قيد الحياة فيقتلها.

البنت: ما هو موقف الدين من ذلك؟

الأم: لقد صوّر القرآن هذه الحالة التي كان عليها العربي قبل الإسلام بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: 58-59].

البنت: سبحان الله.. إنهم كانوا يفرقون بين الذكر والأنثى هذا التفريق وهما شطرا النفس الإنسانية دون أن يكون لهم في ذلك سند من العقل أو سنّة الحياة وطبيعتها؟!

الأم: يا ابنتي.. لو تبصّروا قليلاً لعرفوا أن حكمة الله وقاعدة التكوين اقتضتا أن تنشأ الحياة بالمخلوقات من كلٍّ زوجين اثنين، ذكر وأنثى، حيث قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13].

البنت: ما هي الخطوة الأولى في مسار تحرير المرأة عندما قرر لها الإسلام ذلك؟

الأم: حديث رسول الله ﷺ: **«لا يقولن أحدكم عبدي وأَمَتي، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتايَ وفتاتي»**[1]، لذا فهنا وبهذا طارت المرأة فرحاً،

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 5835)، و(الحديث: 5836).

وتاقت لمشاركة أخيها الرجل في إعمار الحياة والنبوغ ومن يستنطق التاريخ يُنبئه بتفوق المرأة في مجالات متعددة. . فخديجة، وفاطمة، وأسماء، ونسيبة، وسمية، والخنساء، أفضل من رجال كثيرين.

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير للهلال فخر.

هكذا إذن يتساوى المرأة مع الرجل.

البنت: هل بمقدار صلاح المرأة في الأسرة يكون غالباً صلاح النشئ والذرية فيها، وبمقدار فسادها يكون غالباً فسادهم؟

الأم: نعم، لأن المرأة تستطيع أن تكون ذات أثر فعّال ـ مرشد أو مفسد ـ في تكوين أخلاق الأطفال الصغار وطبائعهم وعاداتهم أكثر من الرجل بكثير.

البنت: ولكن ما هي الأسباب؟

الأم: المرأة وهبها الله عاطفة متدفقة، ولين في الطبع، وقابلية للاندماج والمشاركة في أمور الصغار على مقدار طبائعهم ونفوسهم مما له أثر كبير في اكتساب حبهم وإحراز ثقتهم، حتى يتخذونها قدوة لهم في أقوالها وأعمالها وأخلاقها وسائر تصرفاتها.

البنت: ولكن هل المرأة الجاهلة قادرة على تكوين مثل هذه الأسرة؟

الأم: صدقت، لهذا يجب أن تكون المرأة متعلمة، ومحفوفة بتربية إسلامية حسنة وإلّا حال الأمر دون ذلك.

البنت: لماذا دعا الله الإنسان للعلم منذ اللحظات الأولى التي بدأ بها إنزال تعاليم الإسلام؟

الأم: العلم هو الطريق إلى معرفة الله والإيمان به، والطريق إلى معرفة الأحكام الدينية التي يكلف بها الإنسان ذكراً أم أنثى، فكان من المحتم على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ما يهديه إلى هذه الأمور والمسؤول عنها مسؤولية شخصية أمام الله.

البنت: غريب هذا الأمر! ففي أي مذهب من مذاهب العالم المتحضر مسؤولية العلم تتناول بشكل شخصي كل إنسان لديه ما يستطيع أن يتعلّم به ذكراً أم أنثى، ولكن هل هناك مسؤولية أدق وأشدّ وأحزم من هذه المسؤولية التي أناطها الإسلام بكل إنسان؟

فلا عجب بعد هذه الموجبات لإصلاح المرأة علماً وعملاً وخلقاً أن تكون مربية فاضلة.

ولكن هل لك من أمثلة على ذلك في صدر الإسلام؟

الأم: الإسلام حرص على تعليم المرأة، فهذا نبينا ﷺ كان قد خصص للنساء أياماً يجتمعن فيها، ويعلّمهن مما علمه الله، إضافة إلى الأيام التي يحضرن مع الرجال، ليتزودن من العلم ما يخصهن، ويتعلق بشؤونهن، مما ينفردن به عن الرجال، بمقتضى تكوينهن الجسدي والنفسي.

البنت: إذن نستطيع أن نقول الآن: إن النساء المسلمات في الصدر الإسلامي كنّ متلهفات لمعرفة أمور دينهن، وتبيين

مشكلاتهن الخاصة وبذلك كأنهن كن يذهبن إلى المدرسة، وإن لم تكن هناك مدارس بالمفهوم الحالي.

الأم: نعم صدقت، تشبيه صحيح، ومطابق لما تقولين، بارك الله فيك يا بنيتي.

البنت: الغريب لي هو أنه في وقتنا الحاضر هناك قرى لا توجد فيها مدارس، فكيف قبل أكثر من 1400 سنة كانت هناك هذه المدارس - إن صح التعبير - ؟

الأم: صدقت يا بنتي، فأنت حقاً ذكية في أسئلتك!

البنت: وهل كن الصحابيات في ذلك الزمان جريئات في السؤال عما يتعلق بأحوال النساء وخصائصهن؟

الأم: نعم... صحابيات الأنصار بلغت الجرأة فيهن إلى درجة بحيث أثنى الرسول ﷺ عليهن، ودعا لهنّ بالرحمة. عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»**[1].

البنت: أخيراً أنا معجبة بهذا المستوى الرفيع لسياسة الإسلام التعليمية، فهل يعد تبيان هذه الحقائق كلاماً يضلّ به أعداء الإسلام الناس في موضوع تعليم المرأة، إذ يحاولون أن يصوروا الإسلام بغير صورته الحقيقية؟ وهل بعد هذه التسوية التامة بين الرجال والنساء في طريقَي العلم والعمل يظل رغاء

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 748)، و(الحديث: 750)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 316)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 642).

المشوهين لصورة الإسلام الرائعة يؤذي الأسماع بما تنفر منه الطباع؟

تساوي الرجل والمرأة أمام التكليف والجزاء

يقرر الإسلام مبدأ التساوي بين الرجال والنساء، وليس كما يدَّعي أعداء الدين أن القرآن هضم حقوق المرأة، في الوقت الذي يخاطب المرأة بصفات هي حقاً قمة من الأخلاق والطهر، وإنه يخاطبها بما يخاطب الرجل أمام التكليف الشرعي والجزاء الأخروي دونما أي فارق في ذلك، ويكفي أن نُورد الآيات التالية لنبين ذلك:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ

وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 30-31].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 73].

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: 19].

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الفتح: 5-6] والآيات في هذا كثيرة[1].

هكذا سوّى الإسلام بين الذكر والأنثى في حق الحياة،

---

(1) استفدت في سرد الآيات من كتاب د. محمد بلتاجي 2000.

وحرَّمَ التعدي على هذه الحقوق. وقد دعا رسول الله ﷺ الرجال والنساء ـ على قدم المساواة ـ للإيمان به، فكان من السابقات إليه خديجة بنت خويلد وسمية بنت خياط (أم عمار) زوجة ياسر الذي كان (أول شهيد في الإسلام)[1]. كما كان من السابقين إليه أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ﷺ.

(1) أسد الغابة (7/ 152)، والاستيعاب (4/ 1864).

السبب الحقيقي في تعدد الزوجات

ويشمل على المبحث الآتي:

* الأسباب الأخرى لتعدد الزوجات.

السبب الحقيقي في تعدد الزوجات، هل هناك تفسير علمي ثابت لذلك؟ ما هو؟

هل أن الرجال لكونهم معرضون لمسؤوليات الحياة وأخطارها أقل عمراً من النساء أو العكس؟ وهل هذا هو سبب طبيعي لتعدد الزوجات؟

من المُسَلَّم به أنه لا شيء في هذا العالم يساوي الحياة[1]، فلو أن إنساناً خُيّر بين ماله وحياته.. لتخلّى عن المال والجاه والسلطان وكل ما يملك، لكي توهب له الحياة ولو لبضع سنين تعد على أصابع اليد الواحدة!

ولقد نالت المرأة خاصة هذه المكرمة.. إذ وهبتها الحياة من المهد إلى اللحد حياة أطول من حياة الذكور! نعم إذا عدنا إلى الإحصائيات البايولوجية فإنها تؤكد هذه الحقيقة، فحيث يكون متوسط عمر الرجل في مصر 51,6 عاماً، نجد عمر المرأة يصل إلى (53,8) عاماً.. وفي فنلندا (63,4) عاماً للذكور و(69,8) عاماً للإناث.. وفي إنجلترا (68) عاماً للذكور و(73,3)

---

(1) مسكين عالم الذكور.. د.عبدالمحسن صالح، (فهو في كتابه يذكر الناحية العلمية والإحصائية دون مقارنته بما أروم إليه) ولذا فقد قارنت ما توصل العلم للحقيقة وجعلته يتلاءم مع موضوعي بين حين وآخر.

للإناث، وفي الولايات المتحدة (67) و(73,6) عاماً للذكور والإناث على الترتيب، والشيء نفسه في الاتحاد السوفييتي.. للمرأة من سني الحياة (71,9) عاماً، وللرجل منها (64,4) عاماً. وهكذا منحت المرأة في جميع دول العالم عدداً من سني الحياة أطول من سني الرجل.. عدا دولتين اثنتين: هما الجزائر وكمبوديا.. لنساء الجزائر من العمر في متوسط (52,1) عاماً، وللرجال (54,3) عاماً، ولنساء كمبوديا (43,3) عاماً ولرجالها (44,2) عاماً.. وفي هاتين الدولتين شذوذ على القاعدة والشاذ لا يعتَدُّ به! فماذا يعني هذا بحق السماء؟

أليس الرجال أقصر عمراً من النساء، أليس الرجال معرضون لمسؤوليات الحياة وأخطارها.. وهم الذين تقع عليهم أعباء الحروب وتشييد الدول، وبالاختصار فهم بناة الحياة، وهم عمدها، أما النساء فليس لهن من كل ذلك نصيب محمود، ولهذا طالت أعمارهن أكثر من الرجال، ولكن في الواقع هذا استنتاج غير صحيح، ومردود عليه بإحصائيات علمية شتّى.. فالنساء والرجال الذين يقومون بالأعمال نفسها، أو حتى هؤلاء الذين لا يقومون بأعمال تذكر من كلا الجنسين، وفي الأعمار ذاتها، نجد أن الحياة تتحيز للأنثى وتمنحها عمراً أطول من عمر الرجال، وحتى الآن أعمار النساء غلبت أعمار الرجال، وهذا فضل من الله جلّ وعلا للنساء.

ولكي نبرهن أن السبب في قصر أعمار الرجال هو لا يكمن أبداً في أنهم معرضون لمسؤوليات الحياة وأخطارها.. دعنا نقدم

دراسة واحدة من هذه الدراسات، فلقد قام الراهب (فرانسيس ماديجان) بدراسة على متوسط أعمار الراهبات والرهبان، وهؤلاء بطبيعة حياتهم متساوون في سلوك الحياة، ولقد تناولت الدراسة حوالي 30 ألف راهبة وأكثر من 10 آلاف راهب، ثم تقدم ببحثه هذا إلى جامعة نورث كارولينا وفيه من الإحصائيات ما يؤكد أن متوسط عمر الأنثى أكبر من متوسط عمر الذكر بحوالي ست سنوات.

تتضح الحقيقة أكثر وأكثر عندما نتناول فرص الحياة بين الذكور والإناث في بدايات حياة الإنسان، أي وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه.

يذكر دكتور أشلي مونتاجو في كتابه: «الوراثة والبشر» أشياء مثيرة وإحصاءات غريبة عن الفرق بين الرجل والمرأة من المهد حتى اللحد.. فعند مجيء الذرية إلى الحياة نجد أن كل مائة مولود أنثى يقابله 105 مواليد ذكور، وهذا يعني أن عدد الذكور الذين يفدون إلى هذا الكوكب أكثر من عدد الإناث الوافدات.. ومع ذلك فإن الآية تنعكس عندما يصل هؤلاء وهؤلاء إلى سني الشيخوخة، فمن سن الستين حتى الرابعة والستين نجد أن عدد النساء أكبر من عدد الرجال بحوالي 23٪.. وفي سن 75 فما فوق ترتفع النسبة ويصبح عدد النساء أكبر من عدد الرجال مرتين.. أي أن كل حيّتين منهما يقابلن واحد منا!

لكن مأساتنا نحن معشر الذكور تتضح أكثر عندما تبدأ بدايتنا الحقيقية في الحياة، والبداية ليست من يوم الولادة، ولكنها من

يوم إخصاب بويضة بحيوان منوي، ولهذا فإن الصينيين هنا على حق عندما يضيفون أشهراً تسعة إلى عمر المولود هي الفترة التي يمكثها الجنين في الرحم من يوم الإخصاب حتى الولادة.

المفروض أن تكون فرص مجيء الذكور والإناث إلى الحياة فرصاً متساوية.. بمعنى أن يكون عدد المواليد من البنات مساوياً لعدد المواليد من الأولاد.. لكل منها نسبة 50٪.. فالذي يحدد نوع المولود هو الرجل لا المرأة.. ذلك أن 50٪ من حيواناتنا المنوية (أنثوي)، و50٪ منها ذكوري، أي أن تكويننا الوراثي نحن معشر الرجال ليس ذكوري صرف.. ففي كل خلية من الخلايا الجسدية (أشرطة) ميكروسكوبية دقيقة يطلقون عليه اسم (كروموسومات).. والكروموسوم بمثابة خريطة كيميائية وراثية، وفيه تتراص مواقع حيوية إستراتيجية نعرفها باسم المورثات أو الجينات.. والمورثات هي خطة العمل التي تترجمها الخلية إلى مخلوق أياً كان شكله وحجمه ونوعه وجنسه، لكن موضوع الكروموسومات والمورثات موضوع متشعب وطويل، وهو يفرض هنا نفسه ما دمنا قد ذكرنا أن جزءاً من مكوناتها الوراثية نحن معشر الذكور (أنثوي)، وجزءاً آخر رجالي.. ولكي نوضح هذا الأمر لغير المتخصصين ـ وهو غالبية عظمى ـ يكفي أن نذكر باختصار أن في كل خلية من خلايانا الجسدية نواة.. وفي النواة 46 كروموسوماً.. أو 23 زوجاً من الكروموسومات، 22 زوجاً منها متشابهة ومتكررة.. لكن الزوج الأخير أي رقم 23 يختلف عن الأزواج الأخرى.. هذا الزوج من الكروموسومات يتكون

من كروموسوم أنثوي يسمونه (س) أو (X) وكروموسوم رجالي يسمونه (ص) أو (Y).. في غددنا الجنسية (الخصي) نحن معشر الذكور تنفصل الأزواج بالتساوي، ويرحل نصفها إلى قطب الخلية الجنسية، والنصف الآخر إلى القطب الآخر، ثم يقام بينهما جدار حي رقيق، وبعد هذا ينفصلان ليصبحا حيوانين منويين، حيوان منوي منهما يحمل الكروموسوم (س) أنثوي، والآخر يحمل الكروموسوم (ص) ذكوري!

في عملية الإخصاب ينساب من الرجل حوالي 200 مليون حيوان منوي، ينقص هذا العدد أو يزيد على حسب فحولة الذكر وعمره وتكوينه الجسماني، ولكن ليس ذلك مهماً الآن بقدر ما يهمنا أن نعرف أن نصف الحيوانات المنوية في السائل المنوي تحمل الكروموسوم (س)، ونصفها الآخر يحمل الكروموسوم (ص)، فلو كان في المقذوف 200 مليون حيوان منوي، نجد أن مائة مليون منها أنثوي، ومائة مليون ذكوري!

من هذا يتضح أن فرصة المواليد للإناث كفرصة المواليد للذكور.. فإذا سبق الحيوان المنوي (السيني) ولقح البويضة، كانت المولودة أنثى، وإذا سبق (ص) ودخل جاء المولود ذكراً.. وعلى حسب قوانين الاحتمالات، وما دام نصف الحيوانات المنوية تحمل معها الصفات الوراثية الأنثوية، ونصفها الثاني يحمل الصفات الذكورية، فإنه من المتوقع أن يكون عدد حالات الإخصاب التي تؤدي إلى مجيء الإناث مساوية لعدد حالات الإخصاب التي تؤدي إلى مجيء الذكور!

وقد يبرز هنا تساؤل: ولكن هناك حالات تلد فيها النساء ذكوراً فقط، أو إناثاً فقط.. والجواب: أن العلم لا ينظر إلى حالات فردية، ولو اتخذها مقياساً لكان ذلك مدعاة إلى خطأ، ولكنه في تحليله لأي أمر من الأمور يرتكز على إحصائيات تتناول قطاعات كبيرة من السكان، أو حتى دولة بأكملها.. تماماً كما يحدث في الميزانيات والدخل والصرف وإنتاج الثروات الزراعية والحيوانية والصناعية.. فدائماً ما نذكر أن متوسط الدخل كذا جنيهاً ومتوسط محصول الفدان كذا أردباً أو قنطاراً... الخ.

دعنا نعود إلى تحليل موضوعنا الذي يهمنا لنقول: إن التقديرات الحسابية والرياضية توضح أن عمليات الإخصاب التي تتم ستؤدي إلى تكوين أجنة من الذكور والإناث بالتساوي!

لكن الأنثى قد لعبت بحساباتنا وتقديراتنا، كما لعبت من قبل عقولنا.. فالحيوان المنوي الذي يحمل الكروموسوم الذكري أو (الصادي) يؤدي إلى إخصاب أكثر[1] وسيقود ذلك حتماً إلى إنتاج عدد من الذكور أكبر.. ولهذا تشير الإحصائيات البيولوجية إلى أن عدد البويضات المخصبة التي ستؤدي إلى مجيء مواليد

(1) يعتقد العلماء أن السبب في ذلك يرجع إلى أن الحيوان المنوي (ص) أخف قليلاً من الحيوان المنوي (س) (الأنثوي)، فلهذا كان السيني أبطأ في الحركة نسبياً من الصادي، ولا بد والحال كذلك أن تكون فرص الإخصاب بالحيوان الذكري أكبر، وعلى أساس ذلك، فإن فرصة تكوين أجنة من الذكور أكبر من نسبة تكوين أجنة من الإناث بنسبة تتراوح ما بين 20 ـ 50%.

من الذكور تقع في حدود 120 ـ 150 بويضة، تقابلها مائة بويضة مخصبة بالحيوان المنوي الأنثوي لتأتي منها الإناث. ولماذا كانت هذه التفرقة من البداية؟

الواقع أن أحداً من العلماء لم يستطع أن يقدم تعليلاً مقبولاً لمثل هذه الظاهرة الغريبة.. لكن ذلك سيتضح من مجريات الأحداث التي تتم بعد الإخصاب، وسيتبين لنا أن الجنين الذكر هو أضعف من ناحية التكوين الوراثي، ولا بد أن يعوض هذا الضعف بزيادة في عدد حالات الإخصاب، لتصبح الأجنة الذكور أكثر من الأجنة الإناث، حتى إذا ما تعرضت الأولى لعوامل ومصائب ليست في الحسبان، فإن عددها الزائد عن الإناث، سوف يتوازن عند الولادة وما بعدها!

ولكي نوضح ذلك بالأرقام نقول: في سجلات المواليد يتبين أن كل مائة مولودة أنثى يقابلها 105 مواليد ذكور.. ولو قارنا هذين الرقمين مع عدد حالات الإخصاب التي ستؤدي إلى ذكور وإناث، لوجدنا أن عدداً من الأجنة الذكور يتراوح ما بين 15 ـ 45 جنيناً قد اختصروا الطريق إلى الحياة الآخرة وهم لا يزالون في الأرحام.. ذلك أن عدد البويضات المخصبة التي ستؤدي إلى ذكور يتراوح ما بين 12 ـ 15 ـ حالة، مقابل مائة بويضة فقط تؤدي إلى الإناث، فأين ذهبت البقية؟.. الجواب: ماتت قبل أن تخرج إلى الحياة.. لكن هذا لا يعني أن كل الأجنة الإناث تعيش، فلا شك أن هناك نسبة منها ستختصر الطريق إلى الآخرة وهي لا زالت في الأرحام.. لكن

الإحصائيات تشير إلى أن ما يموت من الأجنة الذكور أعلى من الأجنة الإناث!

يؤكد (مونتاجو) ذلك في كتابه فيقول: «في كل مرحلة من مراحل تكوين الجنين، وفي كل مرحلة من مراحل الطفولة، يكون معدل الوفيات في الذكور أكبر من الإناث.. والشيء نفسه صحيح بالنسبة لمراحل العمر المختلفة».

ثم يسوق بعد ذلك أرقاماً، فيذكر:

- أن ما يموت من الأجنة الذكور أعلى مما يموت من الأجنة الإناث بنسبة 50٪.

- في الشهر الأول من عمر الطفل ترتفع معدلات الوفيات بين الذكور عنها في الإناث بنسبة تصل إلى 40٪!

- عندما يصل المواليد إلى مرحلة من العمر تقدر بسنة واحدة، نجد أن ما مات من الذكور أكبر بحوالي 33٪ مما مات من الإناث!

- ما بين سن الخامسة إلى التاسعة من مراحل الطفولة ترتفع نسبة الوفيات بين الذكور عنها في الإناث، فالذين يموتون في هذه المرحلة من الذكور أكثر بنسبة 44٪ من الإناث.

- ترتفع نسبة الوفيات مرة أخرى فيما بين سن 10 ـ 14 عاماً، ليصبح ما مات من الصبيان أكثر بحوالي 70٪ مما مات من البنات.

- ترتفع النسبة بشكل يدعو للفزع فيما بين سن 15 ـ 19 عاماً، فتصبح نسبة عدد الضحايا من الذكور 170٪ منها في

الإناث، ثم تنخفض النسبة قليلاً إلى 130٪ حتى سن الواحدة والعشرين.

ـ تنقص نسبة الوفيات تدريجياً بين الجنسين حتى يحدث توازن بينهما عند سن 30 ـ 34 عاماً، وبعدها يقصف من أعمار الرجال أكثر مما يقصف من أعمار النساء.. وفي نهاية رحلة الحياة يزيد عدد الحيات عن عدد الأحياء بضعفين.. واحد منّا لكل اثنتين منهنّ، ويا قلب لا تحزن فهن أهم منا وأثمن!

هل يعني هذا أن الحياة تتحيز للأنثى وتحافظ عليها، في حين أنها تضحي بنسبة معينة من الذكور؟.. وما هو السر الكامن في ذلك؟.

إن هذه البراهين العلمية ما هي إلا إثبات لوحدانية الله وخلقه للبشر رجالاً ونساءً فهو عالم الغيب والشهادة، فانظر أخي القارىء: أنه تعالى خلقنا نحن الذكور وعددنا أقل من الإناث، ولهذا شرّع تعدد الزوجات، وهذا برهان آخر على أنه عالم في صنعته دقيق في تشريعه، فليس في الحرب وحدها التي يُقتل الرجال فتقل أعدادهم الأمر الذي يؤدي إلى تعدد الزوجات، كما يصفها علماؤنا، بل هناك سبب حقيقي يكمن في خلق الله وهو عالم الغيب، وقد علمنا هذه العلوم لنعرف سبب سنه للقوانين الشرعية.

فما هو رأي الغرب الآن في هذه النظريات العلمية التي أثبتتها مختبراتهم، فهناك زيادة في عدد الإناث بشكل غريب وقلة في عدد الذكور، فما الحل؟ وأين تذهب الزيادة، أليس أحسن

الحلول هو في تعدد الزوجات؟ وإن كان الجواب بالنفي، فما هو الحل؟

لهذا فلا يمكن أن يُتهم تشريع صدر من الله ﷻ.. لماذا؟ لأن الله هو الذي خلق وهو الذي شرع، وحقاً أنه ـ تعالى ـ فَمِن علينا أن نتقبل حكم الله الواحد العلاّم.

ولكن إذا زادت النساء زيادة كبيرة في المجتمع عن الرجال، فليس معنى ذلك أن كل رجل له الحق في أن يتزوج أكثر من واحدة، إنما ذلك مباح للقادرين على العدل المالكين لشروطه المادية وذلك مع وجود الضرورة العامة.

وفي ضوء هذا فإن الضرورة قد تكون موجودة عند الرجل ويكون التعدد محرّماً عليه مع ذلك، فمثلاً إن كانت الزوجة الأولى مريضة مرضاً شديداً، ورضيت الزوجة الأولى بأن تتزوج غيرها، لكنه خشي الجور إن تزوج ثانية وترجح عنده أنه إن تزوج فلن يعدل في حقوق الأولى، وحينئذٍ فإن الزوجة الثانية تكون محرّمة شرعاً عليه بنص القرآن الكريم: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴿٣﴾﴾ [النساء: 3] مع وجود الضرورة وإذن الزوجة الأولى.

ومحصلة القول في قضية (العدل) و(الضرورة) أن اشتراط الله ﷻ للعدل يتضمن في حد ذاته ـ ودون شرط آخر ـ أن يكون عند الرجل مبرر قوي مشروع لرغبته في التعدد، سواء كان هذا المبرر نفسيّاً أو راجعاً إلى ظروف خاصة أو عامة. أما إذا كان مبرره إلى التعدد محتوياً على الظلم بأن قصد الزواج بأخرى

للإضرار بالزوجة الأولى والكيد لها ولأسرتها، أو قصد منه الكيد لأبنائه منها بإنجابه أولاداً من أخرى يفضلهم على أبنائه من الأولى ويخصهم بثروته، فلا شك في أن التعدد حينئذ يكون محرماً على الرجل، لأن مصدره في نفسه إنما هو قصد الإضرار والظلم، وقد أمر الله تعالى بالاقتصار على الواحدة عند خشية الظلم، كما أمر بإمساكها بمعروف أو تسريحها بإحسان، وأمر أيضاً بالعدل بين الأبناء وذوي القربى[1]. أليس كل ذلك يعني أن الله يحمي المرأة من الظلم والأذى، وهل يوجد تشريع وقانون دافع عن حقوق النساء كما دافع القرآن عن تلك الحقوق؟

فالحقيقة أن اشتراط العدل ونفي الظلم يغني - في تحقيق الخير ونفي الشر - عن أي شرط آخر، بخاصة في أمور العلاقات الإنسانية التي ترجع إلى النفس البشرية ومتطلباتها المعقدة المتشابكة التي لا يلائمها اشتراط (ضرورات الظروف الخارجية) في وقت قد تكون فيه (الضرورات النفسية الداخلية) أهم وأكثر فعالية عند كثير من الناس، مما نقصده بالظروف النفسية حالة ما إذا تطلعت نفس الرجل بصورة قوية إلى امرأة أخرى ترضى بأن تكون زوجة ثانية له، وهو بين أن يطلق امرأته الأولى، أو يقيم علاقة غير مشروعة مع الثانية، ولم يفلح الرجل في حمل نفسه على الانصراف كلية عن هذه المرأة الثانية، وكان التعدد أفضل

---

(1) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، د.محمد بلتاجي، ص: 218، 2000، بتصرف.

وأنفع للزوجة الأولى من الطلاق، رغم ما في التعدد من مرارة غير منكورة.

وهناك مع الأسف من يتلاعب بكتاب الله، ويحرف كلامه عن معناه الصحيح إلى معنى فاسد باطل، حيث يقولون: إن الله تعالى قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ۝٣﴾ [النساء: 3] وقال أيضاً: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 129]. ولقد زعم هؤلاء المتلاعبون أن الآية تدل على عدم مشروعية تعدد الزوجات في الإسلام لأنها أفادت أن العدل غير مستطاع، وقد تلاعبوا مع الأسف الشديد بأفكار بعض الشباب المثقفين بهذا الدس الخبيث. ويدل كلامهم هذا على جهل واسع في التفسير لاسيما المأثور منه ويدل على عدم الاعتقاد بالله عز وعلا ونسبوا إليه التناقض في كلامه وهو منزه عنه وكيف وهو القائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. فهل من المعقول أن يفتح القرآن الحكيم باب التعدد في سياق التحذير ويقيده بشرط يجعله مغلقاً لا يدخل منه أحد...

ويقول الحيالي[1]: فالعدل في ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا

---

(1) مستوحاة من كتاب رعد مصطفى الحيالي: تعدد الزوجات في الإسلام لماذا؟ و كيف؟ بتصرف.

فَوَٰحِدَةً﴿٣﴾ [النساء: 3] هو العدل الواجب في القسم بين النساء من طعام وكسوة ومنزل ومبيت، والعدل في ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾ في الأُمور القلبية كالميل والحب وغير ذلك مما يكون الباعث عليه الوجدان والشعور النفسي، فهذا مما لا تملكونه ولهذا خفَّفَ الله عنكم ورفع الحرج. ونفي استطاعة العدل في الحب الخارج عن اختيار المرء لا يلزم منه نفي استطاعة العدل في القسم الداخل في اختياره. سياق النص يدل على ذلك، فإنه جاء في الإجابة على أسئلة عرضت على الصحابة حول أمور النساء منها قضية العدل بين الزوجات، فبين لهم في هذه الآية رفع الحرج عن ميل القلب، لذلك قال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129] أي لا تميلوا إلى إحدى الزوجات ميلاً يخل بتوازن المعاملة وعدالتها، فتذروا الزوجة الأخرى بأن تنقص من حقوقها وكأنها ليست زوجة أيضاً، فالآية تحدثت عن وجود زوجتين معاً أو أكثر للرجل وحذرت من عدم العدل بينهن، وهذا ظاهر في إقرار التعدُّد.

ولو كان المعنى ما فهم هؤلاء في التفسير لا في القرآن لقال: (فلا تنكحوا أكثر من واحدة) لكنه لم يقل ذلك، بل نهى عن الميل المفرط الذي يتجاوز نطاق المشاعر فيؤدي إلى الإجحاف في المساواة بين الزوجات وفي أداء الحقوق، وهذا يدل على مشروعية التعدد، لأن الميل إنما ينهى عنه إذا كان التعدد مشروعاً، وإلّا ما كان للنهي عن الميل مكان في سياق الآية..!

والمقصود بالمعلقة هي المتزوجة بزوج لا يحسن عشرتها ويدل عليه أيضاً بيان ما أنزل إليه القرآن وهو ﷺ أعلم الناس بتفسيره حيث كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول ﷺ: «**اللّهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»[1]، يعني المحبة.

وهذا هو العدل الذي ذُكر في القرآن، وأوجب على من يعدد زوجاته أن يقوم به.

الأسباب الأخرى لتعدُّد الزوجات؟

لا شك أن هناك أسباباً كثيرة أخرى لتعدد الزوجات، فحالات الحروب التي يفنى فيها عدد كبير من الشباب، فيختل الميزان حيث يزيد عدد النساء على عدد الرجال، وقد تكون النسبة بينهما نسبة مفزعة بعد الحروب.

وقد تصاب المرأة بمرض دائم، والذي يمنع الاتصال بينها وبين الزوج، وهذا أيضاً سبب وجيه من أسباب التعدد.

وقد تسوء العلاقات الزوجية بين الزوج وزوجته، فلا يجد الفرد هنا حلاً لذلك، فيقع الزوج بين أمرين إما طلاق الزوجة، وهذا الفعل يؤدي إلى تشريد الأولاد وهدم مستقبلهم، أو الأمر الآخر والحل الأمثل الذي لا مفر للزوج منه وهو الزواج بامرأة

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 3133)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1140)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 3953).

أخرى والإبقاء على الزوجة الأولى لرعاية أبنائها والإشراف عليهم.

وقد تكون الزوجة عاقراً، وفي هذه الحالة لا يخفى على أحد أن النسل رغبة بشرية عميقة، وهذه الرغبة لا عيب في اشتهائها، وهنا وإن كان لا ذنب للزوجة العاقر في عقمها، إلّا أن العدالة تقضي بعدم حرمان الزوج من حقه المشروع في إنجاب الأولاد. يا ترى ما هو خيار الزوج في هذه الحالة، أليس الزواج بأخرى هو الحل الذي لا بد منه، وهل طلاق الزوجة الأولى وعودتها إلى بيت أبيها، وبقائها بلا زواج ـ سيما إذا ظهر للآخرين أنها عقيم لا تنجب ـ هو الحل؟ أم البقاء في عصمة زوجها أفضل من بقائها بلا زوج هو الحل المثالي الذي لا شك فيه أبداً. إذن هل نلزم الزوج بطلاق زوجته، لا سيما إذا كان الزوج يحبها ويود الوفاء لها، وفي هذه الحالة نرفع الضيق عن الرجل ونحثه على الوفاء ونسمح له بالتعدد. بعد كل ما مضى أليست الشريعة الغراء فعلاً قد أبدعت في حل المشاكل الزوجية من جذورها؟!

حق المرأة في الميراث هل المرأة مظلومة أم رابحة في ذلك؟

إن أعداء الإسلام يقذفون الإسلام بأنه لم يُسوّ في الميراث بين الذكر والأنثى، بل جعل نصيب الأنثى في معظم الأحوال على مقدار النصف من نصيب الذكر، وهذا تفريق ينافي العدل على ما ذهبوا إليه.

هـذا وقـد أثـار أعـداء الإسـلام هـذه الثـغـرة فـي صـفـوف المسلمات لإثارة عواطفهن، والغريب أن ظاهرة إلقاء تساؤلات عن هذا الموضوع ليست عفوية كما يبدو، إذ يرجح الظن أن لها دلالتها على وجود من يسعون دوماً لبلبلة أفكار المسلمين، وزعزعة إيمانهم عن طريق هذه التساؤلات وإثارة الشبهات والشكوك.

إذا وضعنا توزيع التركات في مقابل الأعباء الاقتصادية على كل من الرجل والمرأة، فهذه العدالة يجب أن تلحظ المسؤوليات والأعباء الملقاة على كل منهما، وهذا يعني أنه لا يصح مطلقاً بأي حال من الأحوال أن ينظر إلى قضية الميراث، دون أن ينظر إلى مسؤوليات النفقة، والأعباء الاقتصادية التي يقررها الإسلام بشكل عام. وديننا العظيم فرّق في نظام توزيع الميراث بين نصيب الذكور والإناث في معظم الأحوال، ملاحظاً حاجة الأعباء الملقاة على كل منهما.

ولكي تكون الأحكام صحيحة وواقعية وشاملة في هذا الموضوع لا بد إذن أن نلحظ الأمور التالية:

1 ـ كما ذكرنا في مواضيع أخرى في هذا الكتاب، أن الإسلام كرّم المرأة فلم يكلّفها السعي لاكتساب الرزق، أي لم يحملها مسؤوليات أعباء المعيشة، لا لنفسها ولا لغيرها، وعليها أعباء الحمل والرضاعة وتربية الأبناء وتدبير منزل الزوجية

وخدماتها فيه، وهذا أمر عظيم إذ أن الإسلام لم يلق عليها عبئين في حياتها، وذلك صيانة لها عن التبذل، وبذلك وقى ديننا الحنيف المرأة من الكدح خارج منزلها. فعلى من تقع هذه الأعباء؟ على الرجل تقع الأعباء والمسؤوليات (ولكن لا يعني أن الإسلام منع المرأة من الخروج خارج منزلها للعمل الشريف إنْ هي اختارت ذلك)[1].

أن ينظر إلى المسؤوليات من ناحية النفقة والأعباء الاقتصادية التي يقرها الإسلام بشكل عام، نفقة المرأة في نظام الإسلام واجبة على زوجها، حتى وإن كانت غنية، ونفقة المرأة قبل الزواج هي واجب ولي أمرها.

ولو فرضنا أنها كانت غنية، وزوجها فقير..! هل يكلفها الشرع بأن تنفق من مالها عليه رغم أنه فقير؟ كلا، فإن عليه أن يذهب ليقترض ولا يأخذ منها، إذن فالرجل يجب عليه السعي لكسب الرزق، والنفقة على زوجته وأولاده، ولا يكلف الشرع المرأة شيئاً من هذه الأعباء، إلّا إذا قدمت شيئاً من ذلك تطوعاً. ويُضاف إلى ذلك أن الرجل مسؤول أيضاً عن نفقة ذوي قرابته من الفقراء، وضمن تفصيلات موضحة في الفقه الإسلامي.

بموجب ما أسلفنا آنفاً، فإن المرأة بموجب نظام الإسلام تكون أموالها معدة في أكثر أحوالها لزينتها الزائدة عن حدود النفقة الواجبة، ولعطاءاتها التي تحبو بها من تشاء من أولادها وبناتها وأقاربها وصديقاتها.

(1) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمٰن حسن حبنكة، ص: 517، بتصرف.

من هنا يظهر لنا جلياً أن المرأة كما وصفت أعلاه وفي الدين الإسلامي مكفية المؤونة، والآن إذا وزعنا التركة بين الرجل وأخته وأعطينا لأخيها الثلثين ولها الثلث. الثلثان أخذهما أخوها الرجل والثلث لها، والرجل (أخوها) مطلوب منه أن يتزوج ويفتح بيتاً لهذا الزواج ـ ويتزوج واحدة (أي زوجة) ـ ينفق عليها ـ فهو مكلف بالثلثين، وعليه أن ينفق هذين الثلثين على نفسه وعلى زوجته، أما أخته ـ أي أخت الرجل ـ فهي ليست مكلفة أن تنفق شيئاً، وبهذا يكون الثلث محفوظاً لها.

نرى هنا أن الإسلام في الواقع قد جامل المرأة أكثر من الرجل مع كونها لا تنفق لا في الأول ولا في الآخر؟ أين أعداء الإسلام؟! هل الثلث الذي تملكه المرأة معد لها فقط؟ نعم، إذن نستطيع القول بأن المرأة قد تزوجت وأخذت الثلث ووضعته في خزانتها دون أن تنفق منه شيئاً. لكن نعود إلى الأخ الذي أخذ الثلثين، وقد تزوج بزوجة وعليه أن يصرف عليها. إذا أردنا أن نقسم بعدالة، نجد أن الأخ تزوج فله الثلث من الثلثين، وامرأته التي تزوجها لها الثلث الثاني من الثلثين. ولو فرضنا أن الأخت لم تتزوج ولكن حصلت على الثلث، وستنفق على نفسها، والآن أهذا عدل أم لا؟ فيكون سوّاها بذات الرجل. فالمرأة إما أن تتزوج أو لا تتزوج، فإن لم تتزوج فهي عندها الثلث، وأخوها لديه الثلث (وزوجته الثلث)، وإن تزوجت الأخت، فعندها الثلث وتوفره، لأن زوجها سينفق عليها، أخذت من التركة بدون متطلبات إنفاق منها، وأخوها أخذ الثلثين

بوجود متطلبات مضاعفة تُطلب منه، وبهذا هل يكون الإسلام قد أنصف الرجل أم المرأة؟ من الرابح؟ فالجواب يكون المرأة، بلا شك أين أعداء الإسلام، فهذا شرعنا وهذه عدالة ديننا؟!! ورُبَّ سائل يسأل: لماذا جامل الإسلام المرأة وما سببها؟ نعم الجواب واضح، لأنها لا يُطلب منها الضرب في الأرض لكسب الرزق، وقد جعل الإسلام لها ذلك فلربما لا تتزوج. فإذا لم تكن متزوجة فيكون هذا الثلث كافياً لها، إذن من الرابح؟[1].

ولا يخفى علينا أن نذكر أن الرجل عند الزواج سيتحمل كافة نفقات الزواج من دفع المهر للزوجة وسائر النفقات الأخرى، في حين أن المرأة هي المستفيدة من المهر ومعظم نفقات الزواج، وهي غير مسؤولة عن أي شيء من ذلك. أين الذين يدافعون عن حقوق المرأة؟ لنقول لهم: إن ديننا الحنيف قد راعى المرأة أكثر من الرجل.

ولكي نزيد هذا الأمر بياناً أكبر وتوضيحاً أكثر. . نقول: إن الرابح في هذه المسألة في الواقع، هي المرأة لا الرجل. . ونود أن نعطي مثالاً يعتمد على الحسابات والأرقام وهو فيما لو توفي رجل ـ مثلاً ـ وترك بنتاً وولداً. . ولنفرض أن كليهما متزوجان، فالولد متزوج والبنت متزوجة. . وقد ترك لهما أبوهما ثروة لنفرضها (6000) ستة آلاف دينار. . فهذه الثروة نوزعها على

---

(1) استفدت من الشيخ الشعراوي في كتابه (المرأة كما أرادها الله) ولكن تصرفت فيه كثيراً حسبما يتلاءم مع موضوع بحثي.

قاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين، فيأخذ الولد الثلثين أي (4000) أربعة آلاف دينار، والثلث الباقي للبنت وهو مبلغ (2000) ألفا دينار.. ولما كان الولد هنا متزوجاً فهو مسؤول شرعاً عن إعالة زوجته وأولاده وبالتالي فإن هذه الـ(4000) دينار سيقوم بصرفها على نفسه وزوجته وأولاده.. وربما بأقل من سنتين ستضيع هذه الآلاف بين طلبات الزوجة ومشتريات الأولاد وتكاليف المعيشة!! ثم يعود الرجل بعد ذلك بِخُفَّي حنين..

أما شقيقته المتزوجة في مثالنا هذا.. فإن المفروض شرعاً على زوجها القيام بنفقتها وإعالتها وتوفير المأوى، والمسكن والملبس لها وبما يليق بحالها، حتى ولو كانت غنية.. وبالتالي فإن هذه الـ(2000) دينار ستتحول بسرعة إلى حلي ذهبية ومصوغات ألماسيّة تحتفظ بهما المرأة لزينتها ونوائب دهرها!! وهذا هو دَيْدن النساء وهمهن في الغالب..

فمن الرابح إذن؟ الرجل المسكين أم المرأة المدللة؟!.. الرجل.. الذي يصرف ما عنده وما يأتيه وربما استدان.. أم المرأة التي تحتفظ بثروتها وتخشى أن يطلع عليها أحد فتضعها في صرر من فوقها صرر من فوقها تراب ظلمات بعضها فوق بعض!!..

إذن.. فالإسلام حين وفر على الرجل في مقابل ما فرض عليه من واجبات.. وهذه هي العدالة.. وهذا هو الحق في المسألة..[1].

---

(1) كلمات مضيئة مهداة إلى المرأة- الشيخ ناجي النجار.

هذا.. . ولو تابع الأخ القارئ ميراث الأزواج، فيرى العجب، فالمرأة في هذه الحالة تأخذ ثلاثة أرباع الثروة.. والزوج وهو الرجل.. يأخذ ربعها فقط، وهذا دليل على علو نصيب المرأة على الرجل في الميراث في ديننا الحنيف.. وإذا أراد المرء أن يدخل بالتفاصيل، فعليه بقراءة المصدر السابق ذكره.

ولو كانت الآية القرآنية الآنفة الذكر وضعت المرأة مكان الرجل والرجل مكان المرأة من حيث التكليف، فماذا كان يحدث؟ وماذا كان يقال؟!.. وخاصة من قبل المتباكين على حقوق المرأة؟!

كان في ذلك الحين تلقى كل المتاعب على المرأة، من كسب الرزق، وإعانة الأسرة، من حيث تربيتهم وإرضاعهم، وحتى إعانة الرجل ـ القوي العضلات ـ وتحمّل أعباء الحمل في عملها وإلى آخره من الأمور.. وكان عندئذ يقول المتباكون على حقوق المرأة: لماذا حمّل الدين الإسلامي المرأة الضعيفة والرقيقة كل هذه الأعباء الإضافية وهي في خارج قدرتها؟ إذ أن عليها تربية أطفالها ومشقة حملها ورضاعة أطفالها، وكان ذلك أمراً مستحيلاً، لأنه في تلك الحالة كان يجب أن يكون الرضيع معها في العمل وهذا شيء مستحيل... وكان يقال أيضاً: كيف يجوز للرجل القوي بعضلاته، أن يكون قاعداً في داره والمرأة تعمل؟

وحتى لو كان الرجل ضارباً في الأرض طلباً للرزق، فماذا كان يكون مصير الأطفال؟ ومن يقدم لهم وجبات الأكل، ومن

يستقبلهم حين عودتهم من المدرسة؟ . هل كان بإمكان الرجل القاسي ـ في هذه الحالة ـ أن يتحمّل هذه الأعباء والعناية بهم من حيث مأكلهم، ومشربهم وتبديل ملابسهم. . .إلخ؟ ثم المشكلة الكبرى كانت تكمن في الأطفال الرضع، هل كان بإمكان الرجل أن يرضع طفله مما في صدره؟ إنه يفتقد ذلك، ورب مجيب يجيب: يمكن للرجل أن يغذي الطفل بحليب البقر، ولكن لحليب البقر مساوىء لا يمكن التغاضي عنها وسوف نتحدث عنه فيما بعد. إذاً في الحالة التي ذكرناها قبل قليل ـ أي تكليف المرأة بمهام الرجل وبالعكس ـ كانت الحياة مستحيلة.

مساوئُ الرضاع الصناعي

أما عن إرضاع الطفل من ثدي أمه، فإن اكتشافات تقضي بأن الأطفال المرضعون من الثدي قد حققوا أداءً عقلياً أفضل مما حققه الأطفال المرضعون من الزجاجة ـ أي من حليب البقر ـ وهذه النتائج قادت إلى إدراك أهمية إعطاء الأطفال معدلات عالية من الأحماض الدهنية الأساسية، هذا وإن استهلاك حليب البقر ليس أمراً مستحباً للأطفال قبل أن يبلغوا على الأقل (6) أشهر، وذلك لأن جهازي الهضم والمناعة لديهم غير مكتمل النمو كما ينبغي من أجل التعامل مع البروتين المركب (أي البروتين الموجود في حليب البقر) والنتيجة التي غالباً ما تحدث عنها: الحساسية . هذا كما تدل الأبحاث الحديثة بأن نشوء مرض السكري لدى الأطفال ينشأ عن جهاز المناعة الذي أصبح حساساً إزاء هذا البروتين الموجود في حليب البقر، ومن ثم

التفاعل المتعارض مع بروتين مماثل إجمالاً في البنكرياس مما يسبب إتلاف نسيج البنكرياس [1].

هل يجوز للرجل القيام بمهام الأم، وإرضاع الطفل حليب البقر الذي فيه مساوىء ذُكِرَتْ آنفاً، وهل يود الأبوان أن يصاب طفلهما بالحساسية والمرض السكري؟ وأن يكون أداء طفلهما العقلي أقل من الأطفال المرضعين من أثداء أمهاتهم؟

ويعد جيليف (Jellefe) وغيره من أطباء الأطفال العاملين من المؤيدين لفكرة استمرار الرضاعة فترة العامين كلما أمكن ذلك، وهكذا نجد طب الأطفال حديثي الولادة قد توصل بعد سلسلة طويلة من الأبحاث المضنية إلى ما أوصى به القرآن الكريم قبل أكثر من 14 قرناً في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۝٢٣٣﴾ [البقرة: 233][2].

ألا يكفينا تلك الأمثلة من القرآن ومن أشهر أطباء الأطفال في العالم، أن تبقى المرأة في بيتها سنتين، وإلّا فكيف ترضع طفلها من ثديها؟ هل باستطاعة الرجل أن يقوم بذلك؟ فالجواب يكون بالسلب حتماً لأن وضع الرجل مع المرأة في أعمالها غير ممكن.

(1) التغذية ـ دليل كامل ـ تأليف Patric Holford، ترجمة مركز التعريب والترجمة ـ الدار العربية للعلوم ـ 1999 .

(2) الموضوعات الطبية في القرآن الكريم ـ د.محمد جميل الحبّال، و د.وميض بن رمزي العمري، 1995.

اختلاط الجنسين

ويشمل على المباحث التالية:

* اختلاط الجنسين، خاصة في الابتدائية والمتوسطة والثانوية.

* متى يجوز اجتماع الرجال بالنساء.

اختلاط الجنسين، خاصة في الابتدائية والمتوسطة والثانوية

هل تقبل به المجتمعات؟ هل هو تحضر كما تتباهى به بعض الدول العربية، وذلك إرضاءً للغرب؟ ماذا قال عنه رئيس أكبر دولة في العالم، وهو الرئيس بوش، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية؟

أذاعت قناة الجزيرة يوم 22/10/2002 من أن الرئيس الأمريكي الابن (جورج بوش) أصدر قراراً بفصل البنين عن البنات في مرحلة الإعدادي والثانوي، إذ أثبتت الدراسات والإحصاءات جدوى هذا الفصل في رفع المستوى الدراسي للطلاب والطالبات[1].

غريب هذا الأمر إذ يتفوه به رئيس أكبر وأغنى دولة في العالم، بل أكبر قوة عسكرية في العالم، ويسنّ قانوناً، أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ ـ ولكن ربما (بوش) يدري أو لا يدري ذلك ـ أن هذا الأمر تشريع في ديننا الحنيف، وحيث أن الآثار الضارة لاختلاط الجنسين لمسها الغربيون الذين يمارسونه في مدارسهم على أوسع نطاق وأثبتوا آثاره في تدني مستوى التعليم، فعمدوا

---

(1) شخصية المرأة المسلمة ـ د.محمد علي الهاشمي ـ 2006.

إلى عزل الفتيات عن الشبان في كثير من مدارس التعليم. والعجب أن رئيس دولة كبرى ـ فيها قمة العلم ـ يشرع قانوناً أمر به رسول الله ﷺ قبل أكثر من 1400 عام، يعني أن أوروبا وأمريكا ودول الشرق غير الإسلامية بعد هذه الفترة الطويلة أفاقوا وفعلوا وطبقوا ما جاء في الشريعة الإسلامية، فكم من أخطاء كثيرة موجودة بينهم سيحيدون عنها وينبذونها، والمستقبل كفيل بذلك والأيام بيننا ستكشف الأخطاء الباقية، ويتركونها عاجلاً أم آجلاً وإنْ لم يسلموا، وهذا برهان ودرس من دروس الله للمؤمنين وغير المؤمنين حيث بدأ الغرب من حيث انتهوا.. أليس ما قام به بوش هو برهان عظيم لديننا الحنيف رغم عدم اعترافهم به؟

وفتنة الخلط بين الفتيات والفتيان في مدارس العلم، الذي منعه الرئيس الأمريكي في أمريكا، بعد أن أحسّ بتدني المستويات العلمية في تلكم المدارس، كان من الأسباب الكبرى التي هدمت مع الأسف حصناً عظيماً من حصون الآداب والأخلاق الإسلامية في مجتمعاتنا في الشرق ودول العالم الأخرى، وكان ذلك بفعل دسائس الغزاة، وعملائهم من داخل بلادنا الإسلامية، وقد أدى ذلك الغزو العلمي غزواً فكرياً يُزين الاختلاط ويحسنه، لا سيما في سن المراهقة التي تفتح فيها الغريزة الطائشة، ويبعد الناس عن دراسة العلوم الروحيّة، وبذلك يضعف الوازع الديني في القلوب. وإني لَعَلى يقين، أن الغزاة قد عرفوا بأنّ اختلاط الجنسين في مختلف مجالات الحياة من

أسباب انهيار المجتمعات، وانحرافها عن السجايا الفاضلة، ومتى انهارت المجتمعات فقدت بذلك أثقال قوتها الحقيقية، وبذلك فقد نشرتها بيننا، وتركتها هي الآن في بلادها مبتدأً بها بالمدارس الثانوية والمتوسطة وحتى الابتدائية.

هذا وقد لاحظ هذا العزل بين الجنسين عدد من كبار رجال التربية المسلمين الذين زاروا أوروبا وأمريكا وروسيا، ومنهم الأستاذ المربّي أحمد مظهر العظمة، فقد أوفدته وزارة التربية السورية إلى بلجيكا في رحلة علمية، زار فيها المدارس البلجيكية، وفي إحدى زياراته لمدرسة ابتدائية للبنات سأل المديرة: لماذا لا تخلطون البنين مع البنات في هذه المرحلة؟ فأجابته: قد لمسنا أضرار اختلاط الأطفال حتى في سنّ المرحلة الابتدائية.

وما فعلته أمريكا لفصل الطلبة لم يأت اعتباطاً، إنما جاء ذلك نتيجة دراسات علمية وإحصاءات.. وفي الحقيقة بدأت دولنا الإسلامية الآن تحذو حذوهم وبدأوا بما انتهوا عنه معتبرين ذلك تحضراً أو مجاملةً للغرب. ولكن ربّ سائل يسأل: لماذا حدثت المشاكل في اختلاط البنين بالبنات في تلك المدارس؟ نقول: الرجال والنساء عباد الله خلقهم الباري ﷻ ووضع في نفوسهم من الغرائز ما وضع، ووضع لهم موازين في الحياة، طبقاً لذلك، فإذا حادوا عنها، حدثت المشاكل. حيث يقول جلّ وعلا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: 124].

هذا والشواهد على مضار الاختلاط المطلق في العالم أكثر من أن تحصى، وكلها تقدم الدليل الناصع على حكمة الإسلام في حدِّه من الاختلاط، وتجنيبه المجتمعات الإسلامية المستهدية بهدي ربها مضارّه الوخيمة القاتلة، المبددة للطاقات، المزلزلة للقلوب والمشاعر والضمائر.

وها هو الكاتب الروائي الشهير (إحسان عبد القدوس) الذي أغرق السوق الأدبية برواياته الداعية إلى خروج المرأة من البيت والاختلاط بالرجال ومراقصتهم في الحفلات والنوادي والسهرات، يقول في مقابلة أجرتها معه جريدة الأنباء الكويتية في عددها الصادر بتاريخ 18/1/1989: أعتبر أن أساس مسؤولية أي امرأة هو البيت والأولاد، وهذا ينطبق عليَّ بالدرجة الأولى، فلولا زوجتي ما كنت أستطيع تحقيق الأسرة والاستقرار والنجاح، لأنها متفرغة للبيت والأولاد[1].

ويقول أيضاً في تلك المقابلة: لم أتمنّ في حياتي مطلقاً أن أتزوج امرأة تعمل، فأنا معروف عني ذلك، لأني أدركت من البداية مسؤولية البيت الخطيرة بالنسبة للمرأة!!.

وأخيراً، لا بد هنا أن نطرح سؤالاً في هذا الموضوع وهو: ماذا كان ينجم عنه، فيما لو صرح زعيم مسلم عربي بما صرح عنه الرئيس بوش؟ إنني لا أشك أن في ذلك الحين كادت تقوم القيامة على ذلك الزعيم، وكان الناس في الغرب ـ وربما حتى

(1) شخصية المرأة المسلمة: تأليف د.محمد علي الهاشمي، ص: 57.

في الشرق ـ يتهمونه بالرجعية والتخلف وما شَابه من تلك المصطلحات. . واعلموا أن بوش عاد إلى الوراء ليطبق قانوناً جاء به ديننا قبل أكثر من 1400 عام. فالتقدم إذن كان آنذاك. . وعجيب أمر رجل لا صلة له بالإسلام، ويأمر بتنفيذ ما أمر الله به. . !! ويعترف بخطأ بلاده بعدما رأى أن المستوى العلمي في بلاده في هذه المدارس قد انخفض إلى أدناه.

متى يجوز اجتماع الرجال بالنساء؟

هل اجاز الإسلام الاختلاط بين الرجال والنساء ومتى؟

نعم لقد أجاز ديننا الحنيف ذلك، وذلك لقضاء مصلحة راجحة، أو حاجة داعية إليه، كالصلاة في المسجد، أو حضور مجالس العلم، أو المشاركة في هدف نبيل كالجهاد والإحرام ومتطلباتهما، أو غير ذلك من الأعمال الصالحة التي تتطلب مشاركة من الجنسين وتعاوناً بينهما، فقد أجازه الإسلام بضوابطه الشرعية المعروفة، بل حضّ عليه في بعض الأحيان، كما في صلاة العيدين، لأن هذا الاجتماع غير الاختلاط المطلق الأهوج السائد في المجتمعات غير المسلمة[1].

وكذلك سمح الرسول ﷺ للنساء بالخروج إلى الحرب، حيث أن نسوة قُلنَ للرسول ﷺ تريد أن نخرج إلى الحروب مع أزواجنا لنحمل مرضاهم ونسقي ظمآهم. . فأجابهن. وعلينا أن لا ننسى ضحايا الاختلاط كيف تسود صفحات الصحف

(1) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام ـ د. محمد علي الهاشمي، ص: 59.

والمجلات وخاصة في الدول الغربية، ورحم الله الشيخ المعري فهو يقول في هذا المعنى:

لا يـأمـن عـلى الـنـسـاء أخ أخـاً ما في الرجال على النساء أمين

إن الأمـين وإن تـعـفـف جـهـرة يـومـاً تـراه بـنـظـرة سيخـون!

العنف ضد النساء

ويشتمل على المباحث التالية

- العنف ضد النساء، وتأديب المرأة في الإسلام.
- ضرب الزوجة، وأعداء الدين، وواقع الحال.
- سوء استغلال الدين لمآرب بعض الأزواج المنحرفين والعلاج.
- الماسوشزم وضرب المرأة.

العنف ضد النساء، وتأديب المرأة في الإسلام

هناك أشكال مختلفة من العنف تتعرض لها المرأة، حيث تستند الدكتورة سهيلة محمود[1] إلى مجموعة من الباحثين (D.Hage, S. and Bushway .2000) إن للعنف صوراً مختلفة، وأود أن أذكر أعنَفَهُ لأنه يمارس في كل دول العالم ضد المرأة وهو:

العنف الجسدي: ويعني استخدام القوة الجسدية نحو الزوجة، وهو أكثر أشكال العنف وضوحاً، ويتم باستخدام الأيدي أو الأرجل، أو أي أداة من شأنها ترك آثار واضحة على جسد المعتدى عليه، مثل السكين أو غيرها من الأدوات الحادة. ويكون العنف الجسدي على شكل الضرب، أو الركل، أو العض، أو الصفع، أو الدفع، أو اللكم، أو الحرق، أو شد الشعر، أو الطرح أرضاً، أو الخنق، أو التهديد بالأسلحة أو القتل، (Matlin 2000)، (والعامري 1998، Davies 1998، Walker 2002)، وتمر عملية الضرب قبل وقوعها بمراحل، حيث يحصل جدال بين الزوجين، يمتد ويتحول إلى صراع، ثم إلى الشتم، ويتطور إلى الضرب (Matlin 2000) ففي الحدام بين الزوجين، وبعد أن يفشلا

---

(1) العنف ضد المرأة، أسبابه، آثاره وكيفية علاجه، 2005.

يفشلا في مناقشة أمورهم يبدأ كل منهما بإلقاء اللوم على الآخر، وينتقد الواحد منهما الآخر، وهذا ما يميز العلاقات الزوجية المضطربة التي يسود فيها العنف، مؤدياً إلى نتائج جسدية ونفسية خطيرة خاصة عند النساء.

جمعت المُؤلِّفة الآنفة الذكر إحصائيات دقيقة عن العنف الذي يمارس ضد النساء، ومن مختلف أنحاء العالم، وأود ذكر بعضها وهي:

في دراسة قام بها يحيى حمدان (1996) حول العنف ضد المرأة في منطقة الجليل والمثلث والنقب، حيث شملت عيّنة الدراسة (434) امرأة. أشارت النتائج إلى أن (94٪) من الزوجات يسيء إليهن أزواجهن لفظياً وعاطفياً ونفسياً واجتماعياً مرة واحدة في السنة على الأقل، وأن (30٪) من النساء يسيء إليهن أزواجهن بتلك الأنماط من الإساءة مرة في الشهر على الأقل.

كما تظهر النتائج أن ما يقارب (39٪) من النساء يتعرضن للضرب والإيذاء الجسدي من قبل أزواجهن مرة واحدة في السنة على الأقل، و(5٪) من النساء يتعرضن للضرب والإيذاء من قبل أزواجهن مرة واحدة في الشهر على الأقل.

كما تبين أن (66٪) من الشباب يسيئون لخطيباتهم نفسياً، ولفظياً، وعاطفياً، واجتماعياً مرة واحدة على الأقل خلال فترة الخطوبة. كما صرح (13٪) من الشبان أنهم ضربوا خطيباتهم

ومارسوا عليهن شتى أشكال الإيذاء الجسدي مرة واحدة على الأقل خلال فترة الخطوبة.

أما عن العنف ضد المرأة في مصر فقد قام عبد الوهاب (سنة 1994م) بدراسة حول العنف الأسري في المجتمع المصري، معتمداً في جمعه للمعلومات على القضايا المعروضة على المحاكم أو المنشورة في الصحف، إضافة لعيّنة بلغت (224) امرأة ممن تعرضن للعنف. وقد أظهرت النتائج أن المرأة المصرية تتعرض لأشكال مختلفة من العنف الجسدي مثل الحرق، والقتل بالرصاص، والطعن بالسكين، والذبح، ودسّ السم، والضرب المبرح الذي يحدث عاهة أو تشويهاً في الوجه، والدهس بجرار زراعي، والخطف، والتعذيب، والدفع. وأشارت إلى أن السبب الأهم وراء تعرُّض النساء للعنف هو سبب اقتصادي، إذ يشكل ما نسبته (45,6٪)، وأن الأسباب الاجتماعية بلغت (35,4٪)، إضافة إلى أسباب ثقافية. أما عن الفئة العمرية التي تتعرض فيها المرأة للعنف، فقد كانت الفئة العمرية من (15 ـ 24) سنة وبنسبة (30٪)، وأقل فئة عمرية هي الفئة من عمر (45 ـ 55) سنة، إذ بلغت (5,4٪) .

وتنتشر الإساءة للمرأة بشكل واسع في العالم، فقد وجد (نيكريبهم وتيسكي (Knickrehem and Teske (2000) من خلال مسح قاما به للجرائم في أمريكا عام 1994، أن النساء هن ضحايا للعنف الأسري بنسبة تفوق ثلاثة أضعاف الرجال، وأن (91٪) من ضحايا جرائم عنف الزواج من النساء كانت على أيدي أزواجهن أو مطلقيهن أو أصدقائهن .

ويذكر حمدان (1996) دراسة لجوانا بانكر(Joanna Banker) حول نفسية النساء اللواتي يتعرّضن للعنف من قبل أزواجهن في أمريكا عام (1979م) . وقد أظهرت نتائجها أن (1,5) مليون امرأة أصبحت تلجأ إلى منازل متخصصة لإيواء النساء المضروبات. وبينت أن المراكز الإيوائية لم تَحم النساء من العنف، حيث يشعر قسم كبير منهن بالخوف، وعدم الأمان والقلق، والإحباط. وقسم كبير منهن لم يَجِدنَ الحل لمشكلتهن. وذكرت (بانكر) أن القانون لا يساعد هؤلاء النسوة، فهو ينصف الرجل ويقف إلى جانبه.

وقـــام ســـتـــراوس وزمـــلاء (Strus, et al). (1997) (Munroe, et al ـ Holtzworth). بعمل مَسْحين وطنيين، تم المسح الأول عام 1975 واشتمل على مقابلات وجهاً لوجه مع أكثر من (2000) من الأزواج أو الأزواج المتعايشين. أما المسح الثاني فقد تم عام 1985 واشتمل على مقابلات عبر الهاتف لأكثر من (3500) من الأزواج. أظهرت نتائج المَسْحين أن واحداً من كل ثمانية من الرجال يعتدي جسدياً على زوجته كل عام (الشد، الدفع، الصفع)، وأن (1,5 ـ 2) مليون امرأة يعتدى عليها سنوياً من قبل زوجها.

كما أن (95٪) من ضحايا العنف في فرنسا هن من النساء، (50٪) منهن ضحايا للعنف من قبل أزواجهن. وفي كندا فإن (60٪) من الرجال يمارسون العنف ضد زوجاتهم. وفي الهند يتعرض حوالي (80٪) من النساء للعنف بأنواعه المختلفة من

مصادر مختلفة ومن الأزواج بشكل رئيسي (عزام، 2000) .

وتذكر ماتلين (Matlin 2000) أن معدلات الإساءة في المجتمعات الأوروبية مشابهة لما هو موجود في شمال أمريكا . كما تكشف البيانات عن آسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا عن معدلات مرتفعة من الإساءة، حيث أكثر من نصف النساء ذكرن أنهن تعرضن للإساءة الجسدية من قبل شركائهن.

قام بيني وآخرون (Binney, et al (1981 . الوارد في (Browne & Herbert (1977)) بعمل مسح لـ (150) ملجأ في إنجلترا، وويلز. حيث اشتملت العينة على (656) امرأة تراوحت أعمارهن ما بين (20 ـ 42) سنة ولديهن أولاد بمعدل (2 ـ 3) أولاد. أما معدل تعرضهن للعنف فهو سبع سنوات . حيث أن حوالي (59٪) من العينة تعرضن للإساءة لمدة ثلاث سنوات فأكثر. وتبين أن (90٪) من النساء تركن بيوتهن هرباً من العنف الجسدي الموجه نحوهن، و(27٪) منهن هربن خوفاً من العنف الموجه نحو أطفالهن. وقد ذكرت النساء أيضاً تعرضهن للإساءة النفسية وحرمانهن من النقود للإنفاق على أنفسهن وعلى أولادهن.

وقام دوباش ودوباش Dobash & Dobash (1979) المذكور في Browne & Herpert (1997) بإجراء مقابلات مع (106) من النساء المتأذيات جسدياً. كشفت نتائج المقابلات أن الاعتداء الجسدي يكون وفقاً للفئات التالية: إيذاء الوجه أو

الجسم بنسبة (44٪)، الرفس والنطح بنسبة (27٪)، الدفع على أو داخل أداة غير جارحة (15٪)، الضرب بأداة (5٪)، ومحاولات الخنق (2٪).

وفي دراسة حول انتشار العنف وجد جلز وستراوس Gelles & Straus (1988) المشار إليها في Walker (2002) أن (161) عائلة من كل (1000) عائلة في أمريكا تتعرض فيها النساء والأطفال للعنف في السنة التي سبقت دراستهما مباشرة[1].

وورد في خبر في إحدى المجلات[2] يقول: حاول القنصل العام في كندا أن يفسر الثقافة اليابانية على هواه، وقام بضرب زوجته مدعياً أنه يؤدبها وفقاً للتقاليد المتبعة في بلاده، ولكن هذه الادعاءات لم تنقذ القنصل، حيث أجبرت السلطات الكندية السفير الياباني على تجريد القنصل من حصانته، ليقف مُدَاناً أمام المحكمة الكندية، وبالطبع لم يكن هذا القنصل مسلماً. . .!! وهل يجوز لرجل دبلوماسي مثقف ثقافة كاملة من كل جوانب الحياة أنْ يمارس العنف ضد زوجته؟ ويَظهر أن الثقافة وحدها لا تمنع ذلك العنف، وهل يتغاضى الغرب والمستشرقون عن هذه الجرائم كلها، وتنصب انتقاداتهم فقط

---

(1) العنف ضد المرأة، أسبابه، آثاره وكيفية علاجه، للدكتور سهيلة محمود، 2005.
نقلت المصادر في هذا الجزء من المسح الإحصائي من نفس الكتاب.

(2) نصف الدنيا، عدد 482، 9 مايو 1999، ص: 24.

على الإسلام الذي لم يفهموه، أو إنهم يعملون على تشويه ما ذهب إليه الإسلام لإرضاء مآرب أعدائه؟ وما أكثرهم!

نظرة في إحصائيات العنف ضد المرأة

وإذا ما علقنا بعض الشيء على نتائج الإحصاءات التي ذكرت آنفاً، فعلينا أن نتساءل ساكني منطقة الجليل والنقب والمثلث، هل هكذا علمتكم تعاليم دينكم؟ وهل أن 94٪ من زوجاتكم يساء إليهن من قبلكم بشتى أنواع الإساءات اللفظية والعاطفية والنفسية والاجتماعية مرة في السنة؟ من شرَّع لكم هذا التشريع؟ أما سمعتم أن رسولكم قد أوصى بالنساء في كثير من أحاديثه، عن عائشة ﵂ قالت: سألت رسول الله ﷺ أيُّ الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال: «زوجها»، قلت: فأي الناس أعظم حقاً على الرجل؟ قال: «أمه». رواه البزار[1] والحاكم[2].

أيها الرجل أهكذا تمنح حقّ زوجتك؟ أتقابلها بالعنف بكافة أشكاله؟ على أي أسس نسمي أنفسنا مسلمين؟ بالعنف اللفظي والإهانة...!! والعنف الجسدي الذي بلغ في هذه المناطق إلى 39٪، يعني أن 39 زوجة من كل مئة امرأة تتعرض في هذه المناطق إلى العنف الجسدي!! وقد بلغ نسبة العنف اللفظي والنفسي والعاطفي في هذه المناطق خلال فترة الخطوبة مرة

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (الحديث: 1462).
(2) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 4/ 150) و(الحديث: 4/ 175).

واحدة في السنة 13٪، أي أن 13٪ من شبابهم ضربوا خطيباتهم ومارسوا جميع أشكال الإيذاء الجسدي مرة واحدة خلال فترة الخطوبة. . ! إذن ما بالكم بعنفهم بعد الزواج. . !! أما سمعتم الرسول ﷺ في خطبة الوداع وهو يقول: «**استوصوا بالنساء خيراً**». أين التزام الرجال بتوصية الرسول ﷺ؟ رحم الله الشاعر الذي يقول:

الأم مـــدرســـة إذا أعـــددتهـــا   أعددت شعباً طيب الأعراق

أين نحن من كل هذا؟ هل بالضرب والعنف نبني حضارتنا؟ هذه الحضارة التي أدهشت أعداءنا، وبدأوا يعدون لها إعداداً لتدميرها، وَبِكم وبأيديكم تعمر هذه الحضارة، في الرجوع إلى وصايا رسولنا الكريم وفي الكف عن إيذاء المرأة نبني الأمة بلا ريب. وإذا ما عدنا إلى الإحصاءات عن العنف ضد المرأة في مصر، فنرى أنها هي الأخرى تتعرض إلى أشكال مختلفة من العنف الجسدي المشين، كالحرق، والقتل بالرصاص، والطعن بالسكين، والذبح، ودسّ السُمّ، والضرب المبرح الذي يحدث عاهة أو تشويهاً في الوجه. . وإلخ من الأمور التي لا أود استعراضها؛ لأنها تحيّرُ العقول، يا لهول المصيبة، لقد نسي هؤلاء الأزواج حديث رسولهم ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً، وخيركم خياركم لنسائهم**»[1]. أين أنتم من هذا الحديث؟!!

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 463، 464).

إن نسبة العنف في مصر حسب الإحصائية السابقة نسبة لا يُستهان بها، وقسوة العنف على أشد ضراوتها.

أمّا تعليقي على العنف في أمريكا، هذا المجتمع الغربي، فإن النساء هنّ ضحايا العنف الأسري أيضاً، ويظهر أن 91٪ من ضحايا جرائم عنف الزواج من النساء كانت على أيدي أزواجهن أو مطلقيهن أو أصدقائهن، حيث لا تعليق لي كثيراً على العنف هناك لأنهم ليسوا من ديننا، والنساء هناك يفتقدن حتى للمدافعين عن حقوقهن، ولكن لنا مولًى ورسولاً أوصيانا بالقوارير خيراً، فالمسلم الذي في قلبه ذرة من الإيمان لا يزاول هذا العنف ضد امرأته، فربوا أولادكم على تربية إسلامية وثقفوهم وعرفوهم بالحقوق الزوجية الصحيحة منذ نشأتهم فضلاً عن الأحكام الشرعية لكي يكونوا رجالاً يحترمون نساءهم ويطبقون ما جاء في الحديث الشريف حول تقدير المرأة ومكانتها في المجتمع.

وبلغت ضحايا العنف من النساء في فرنسا ـ بلد العطر والذوق الرفيع ـ 95٪، ومعدلات الإساءة في المجتمعات الأوروبية مشابهة لما هو موجود في شمال أمريكا، وكذلك تكشف البيانات عن آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا معدلات مرتفعة من الإساءة للمرأة، حيث أن أكثر من نصف النساء البالغات تعرضن للإساءة الجسدية من قبل شركائهن. ولإنجلترا وويلز نصيب في العنف أيضاً حيث يظهر من الإحصاءات الآنفة الذكر وبعد مسح إحصائي يضم (150) ملجأ فيهما، يظهر 90٪ من النساء تركن بيوتهن هرباً من العنف الجسدي الموجه

نحوهن، و26٪ منهن هربن خوفاً من العنف ضد أطفالهن، وتعرضت النساء في هذه البلاد حتى للإساءة النفسية وحرمانهن من النقود للإنفاق على أنفسهن وعلى أولادهن، وأكثر ما يتردد على ألسنة كثير من التربويين في هذه البلاد: أن الثقافة الاجتماعية والعامة ضرورية للحد من العنف ضد المرأة، وأنه لَمِنَ المضحك أن نقول ذلك عن أمريكا وفرنسا والمجتمعات الأوروبية، حيث خلت هذه البلاد نهائياً من الأمية، وثقافتهم الاجتماعية رجالاً ونساءً في أوجها. فأين هو أثر هذه الثقافة؟ أين حقوق المرأة؟ فَنِساء إنجلترا تركن بيوتهن هرباً من العنف الجسدي الموجه نحوهن، فلنتساءل إذاً: هل أزواجهن مثقفون؟ ألا يدّعون أنهم من أفضل بلدان العالم التي تنادي بحقوق المرأة؟ أين ادعاءاتهم؟!! والأغرب من ذلك أن نسبة معينة من الرجال لا يقومون في إنجلترا بالإنفاق على زوجاتهم وأطفالهم، وهذا يدل على أن العلاقات الاجتماعية متدهورة جداً في هذا المجتمع، فالرجال في بلادنا الإسلامية والعربية نادراً ما يتكاسلون أو حتى يمتنعون عن الإنفاق على أولادهم وزوجاتهم والحمد لله. والظاهر أن سوء الحالة الاقتصادية وتدني الثقافة في بلادنا الإسلامية من أهم الأسباب الرئيسية المؤدية إلى العنف، بينما نجد أنه ليس هناك من مشكلة اقتصادية ولا ثقافية في بلاد الغرب. وهذا يدل على أن لديننا تأثيراً إيجابياً، ولو أجرينا تَحسيناً اقتصادياً وثَقَّفنا أُسَرَنا لتوصلنا إلى أدنى نسبة في العنف ضد المرأة.

وفي الواقع تصاعد العنف ضد المرأة في بعض المناطق مثل طولكرم ـ حسب الإحصائيات ـ وغيرها من المدن الفلسطينية، يعود إلى تفاقم سوء الأحوال الاقتصادية بشكل لا يمكن وصفها بالقلم، ولكن يقع اللوم على الدول الإسلامية والعربية الغنية بالموارد الطبيعية التي قد لا تقوم بواجباتها على الوجه الأكمل لمساعدة سكّان هذه المدن، فلو وقعت هذه الحالة الاقتصادية السيئة جداً في أمريكا، لانتهت أمريكا عن بكرة أبيها، إلّا أن الوازع الديني قد حال نوعاً ما دون ذلك في تلك المدن الفلسطينية.

ولكن رغم ذلك فالمؤمن الكامل لا تؤثر الأحوال المادية السيئة على طبيعته وتصرفاته، فلا يجوز لمن كان فقيراً أن يضرب زوجته، أو يغيّر طبائعه نحو الأسوأ، ودليلي على ذلك حال الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، فقد أخرجهم الجوع في وقت اشتداد الحرّ نصف النهار من بيوتهم، فسئلوا عن خروجهم في هذا الوقت، فقالوا: والله ما أخرجنا إلّا ما نجده في بطوننا من حاقّ الجوع، فانظر أيها الزوج، هل بعد هذا الفقر فقرٌ، ولكن مع ذلك فإنه ﷺ لم يمد يده الشريفة لضرب امرأة قط. ولكي يعلم القارئ كيف حاق الجوع برسول الله ﷺ، وأصحابه فليقرأ هذه القصص عنه ﷺ وعن أصحابه الكرام ﷺ.

هذه قصة جوع رسول الله ﷺ وجوع أصحابه أبي بكر وعمر ﷺ، وقصتهم مع أبي أيوب:

أخرج الطبراني[1]، وابن حِبّان[2] في صحيحه عن ابن عباس ﷺ قال: خرج أبو بكر ﷺ بالهاجرة[3] إلى المسجد، فسمع عمر ﷺ، فقال: يا أبا بكر، ما أخرجك هذه الساعة؟ قال: ما أخرجني إلّا ما أجد من حاقّ الجوع[4]. قال: وأنا ـ والله ـ ما أخرجني غيره. فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: **«ما أخرجكما هذه الساعة؟»** قالا: والله ما أخرجنا إلّا ما نجده في بطوننا من حاقّ الجوع. قال: **«وأنا ـ والذي نفسي بيده ـ ما أخرجني غيره! فقوما»**، فانطلقوا فأتوا باب أبي أيوب الأنصاري ﷺ، وكان أبو أيوب يدّخر لرسول الله ﷺ طعاماً كان أو لبناً، فأبطأ عليه يومئذٍ فلم يأت لحينه، فأطعمه لأهله، وانطلق إلى نخله يعمل فيه.

فلما انتهوا إلى الباب خرجت امرأة فقالت: مرحباً بنبي الله وبمن معه. قال لها نبي الله ﷺ: **«أين أبو أيوب؟»** فسمعه ـ وهو يعمل في نخل له ـ فجاء يشتد فقال: مرحباً بنبي الله وبمن معه، يا نبي الله، ليس بالحين الذي كنت تجيء فيه؟! فقال ﷺ: «صدقت». قال: فانطلق فقطع عِذقاً[5] من النخل فيه

(1) «المعجم الكبير» (الحديث: 19/ 254)، و«المعجم الصغير» (الحديث: 185).
(2) «صحيحه» (الحديث: 5216).
(3) الهاجرة: وقت اشتداد الحرّ نصف النهار. النهاية: (5/ 246).
(4) حاق الجوع: صادقه (القاموس: حوق).
(5) العذق ـ بالطبع ـ النخلة، وبالكسر: العرجون بما فيه من الشماريخ ويجمع على عِذاق. (النهاية) (3/ 199).

كلّ من التمر والرّطب والبُسر. فقال ﷺ: «ما أردت إلى هذه، ألا جنيتَ لنا من تمره؟» قال: يا رسول الله أحببت أن تأكل من تمره ورُطبه وبُسره، ولأذبحنّ لك مع هذا. قال: «إن ذبحت فلا تذبحنّ ذات درّ»[1]، فأخذ عَناقاً[2] أو جدياً فذبحه، وقال لامرأته: اخبُزي واعجني لنا وأنت أعلم بالخبز. فأخذ نصف الجَدي فطبخه وشوّى نصفه. فلما أدرك الطعام[3] ووُضع بين يدي النبي ﷺ وأصحابه، أخذ من الجدي فجعله في رغيف وقال: «يا أبا أيوب، ابلغ بهذا فاطمة، فإنها لم تُصب مثل هذا منذ أيام». فذهب أبو أيوب إلى فاطمة. فلما أكلوا وشبعوا، قال النبي ﷺ: «خبز، ولحم، وتمر، وبُسر، ورُطب، ـ ودمعت عيناه ـ والذي نفسي بيده، إنّ هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة»[4].

وبعد هذه القصص ألا يتعظ الأزواج؟! وهل يجوز ضرب زوجاتهم لسوء حالتهم الاقتصادية التي لم تصل ذروتها إلى عُشر ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، بل ليستْ هناك مقارنة بين هذا وذاك.

وهذه قصة أخرى لفاطمة رضي الله عنها مع أبيها ﷺ حين ذهبت إليه للدنيا ورجعت من عنده بالآخرة:

---

(1) الدَّرّ: اللبن إذا كثر وسال. (النهاية) 2/ 112.

(2) العَناق: هي الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم له سنة. (النهاية) (3/ 311).

(3) أدرك الطعام: نضج واستوى (من حاشية المطبوعة).

(4) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (6/ 389).

أخرج أبو الشيخ في جزء من حديثه عن سويد بن غَفلة قال: أصابت علياً ﷺ خصاصة[1]، فقال لفاطمة ﷺ: لو أتيتِ النبي ﷺ فسألته، فأتته وكان عنده أم أيمن ﷺ، فدقت الباب فقال النبي ﷺ لأم أيمن: **«إن هذا لَدَقُّ فاطمة، ولقد أتتنا في ساعة ما عودتنا أن تأتينا في مثلها»**. فقالت[2]: يا رسول الله هذه الملائكة طعامها التهليل والتسبيح والتحميد، ما طعامنا؟ قال: **«والذي بعثني بالحق، ما اقتبس في بيت آل محمد منذ ثلاثين يوماً، ولقد أتتنا أعنز، فإن شئت أمرنا لك بخمسة أعنز، وإن شئت علمتك خمس كلمات علمنيهنّ جبريل»**. فقالت: بل علمني الخمس كلمات التي علمكهنّ جبريل، قال: **«قولي: يا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين»**. فانصرفت فدخلت على عليّ فقال: ما وراءك؟ فقالت: ذهبت من عندك للدنيا وأتيتك بالآخرة، فقال: خير أيامك. كذا في الكنز (1/ 302) وقال: ولم أر في رواته من جُرح إلا أن صورته صورة المرسل، فإن كان سويد سمعه من علي فهو متصل.

و بعد هذه القصة المثيرة لسيدنا علي كرم الله وجهه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ يتضح للفرد أن الفقر وقتئذٍ بلغ درجة لا تطاق، هل بعد هذا الفقر فقرٌ؟ أليس عار علينا كمسلمين أن يُودي بنا

(1) خصاصة: الفقر والحاجة. (النهاية 2/ 37).

(2) القائلة هي السيدة فاطمة ﷺ.

الفقر درجة بحيث من هوله نضرب نساءنا؟.. أين نحن من الإسلام؟

هذا والمختصون في علم النفس وعلم الاجتماع يرون أن إدمان المخدرات والإحباط وسيطرة الماديات وفقدان الوازع الديني والشذوذ السلوكي هي من أبرز عوامل انتشار حادثات تعدي الأزواج على الزوجات في بلاد الغرب.

وبعد أن عرفنا مفهوم العنف الجسدي الذي يمارس من قبل الزوج نحو الزوجة، نقول: هل أن الشريعة الغراء أجازت هذا العنف؟ أما آن الأوان أن يفكر العاقل بأن الضرب الذي أجازه ديننا أسيء فهمه وأنه يجوز فقط في الحالات المستعصية وبكيفية معينة، وسنشرح ذلك فيما بعد. وأعداء الدين يجسدون هذا الجواز لمآربهم الخاصة وذلك محاولة منهم لِلَوْي ذراع الشريعة الإسلامية ليدّعوا أنها تبيح على الإطلاق ضرب الزوجات، والواقع يؤكد أن الرجال أساؤوا تطبيق عقوبة (ضرب الزوجة) حتى عاب علينا المستشرقون هذا التطبيق الخاطئ، فيعرف الناس بالإسلام لا أن يعرف الإسلام بالناس. فالزوجة الناشز أيضاً بدورها تنقاد وراء الشيطان وتعصي زوجها بما فيه طاعة الله وتهمل شؤون بيتها وأولادها ولا تراعي واجبها الصحيح تجاه أسرتها.

لقد فوّض الله الزوج داخل نطاق الأسرة، عقوبات على الزوجة الناشز، تتدرج بخطاب العقل وتنتهي بالضرب الخفيف غير المبرح في الحالات المستعصية فقط، والضرب غير المبرح

يخلو من العض، والركل، والحرق، أو شد الشعر، والطرح أرضاً، والخنق، والتهديد بالأسلحة والقتل.

فعقوبة الضرب التي عابها المستشرقون ونادوا بها على الإسلام تعود حتماً لسوء تطبيق هذه العقوبة، وأن تلك العقوبة تكون في العادة للزوجات التي فسدت أخلاقهن، ولم يُجْدِ معهن كل وسائل العقوبات المتدرجة التي تبدأ بخطاب العقل ثم تنتهي بالضرب الخفيف غير المبرح، وهي نهاية المطاف، ولهذا قال ﷺ: «ولن يضرب خياركم».. أي: أحسنكم عشرة لن يلجأ لهذه العقوبة، فهذا الأمر منه ﷺ وهو واجب التنفيذ.

يقول مؤلف كتاب أجنحة المكر الثلاثة: لقد أرشد الإسلام إلى استخدام وسائل التربية والتأديب الحكيمة، وجعلها على مراحل في مراتب بعضها أشد من بعض.

المرتبة الأولى: الموعظة، وللموعظة درجات كثيرة تبدأ بمعاريض القول وبالإشارات الخفيفة والتلويح دون التصريح، ثم ترتقي إلى لفت النظر والتنبيه والتصريح مع الرفق في الموعظة، ثم بعد ذلك ترتقي إلى التصريح المصحوب بشيء يسير من العنف، ثم ترتقي إلى الزجر والتعنيف، وأخيراً قد تصل إلى درجة التوبيخ والإنذار، فإذا لم تُجْدِ كل درجات الموعظة كان لا بد من الانتقال إلى المرتبة الثانية من مراتب التربية والتأديب.

المرتبة الثانية: الهجر في المضجع، وهذا الهجر يتضمن إشعاراً بمقدار من السخط أدى إلى المعاقبة بالحرمان من متعة اللقاء على المودة والصفاء. وهجر الزوج لزوجته في المضجع

أبلغ أنواع الهجر وعقاب قاسٍ ليس بالهيّن على زوجة عاقلة حريصة على زوجها، حريصة على أن تكون مالكة قلبه، وتخشى أن يتجه لغيرها. وللهجر في المضجع درجات بعضها أقسى من بعض، ويعرف هذه الدرجات العقلاء الحكماء من الرجال، الخبيرون بأدواء النساء وبطرق معالجتهنّ، وليس من الحكمة في التأديب معاقبة الزوجة بأشد هذه الدرجات قبل امتحان أخفها وسيلة للإصلاح، فإذا لم تُجدِ في تأديبها الدرجات الخفيفة انتقل إلى الدرجات العنيفة. وقد هجر الرسول صلوات الله عليه، زوجاته قرابة شهر، وكان هذا عليهن أقسى تأديب تلقّينه منه. وقد أشار الإسلام إلى أن المدة القصوى للهجر ينبغي أن لا تزيد على أربعة أشهر، وذلك إذ جعل للذين يؤلون من نساءهم ـ أي: يحلفون أن لا يعاشروهن المعاشرة الزوجية ـ، أن يتربصوا أربعة أشهر، فإما أن يعودوا إلى معاشرتهن، وإما أن يكون لزوجاتهم الحق بأن يطالبن بالفراق. فإذا لم تُجدِ وسيلة الهجر في رد الزوجة إلى الطاعة والاستقامة، لم يكن للزوج مندوحة قبل العزم على حل عقدة الزواج بالطلاق من اللجوء إلى المرتبة الثالثة من مراتب التأديب.

المرتبة الثالثة: مرتبة الضرب غير المبرح، الذي لا يصل إلى أدنى الحدود الشرعية. وما نظن امرأة في الدنيا توجه لها أشد درجات الموعظة فلا تستقيم، ثم تهجر أبلغ أنواع الهجر وأقساها فلا تستقيم أيضاً، إلا أن تكون مبلدة الحس، سيئة العشرة، كريهة الطبع، لا تشعر بكرامة نفسها، فهي تستحق

التأديب بالضرب، أو أن تكون مكارهة تبغي الفراق، ولكنها لا تحاول أن تُصَرِّح به لغرض في نفسها.

فإذا كانت كارهة راغبة بالفراق فإن لديها من الوسائل ما يبلغها مرادها، دون أن تُكاره الزوج بالنشوز والعصيان والخروج عن طاعته، وبإمكانها أن تعرب عما في نفسها منذ أن استخدم في إصلاحها المرتبة الأولى فالثانية، فهو يظنها زوجة راضية به حريصة عليه.

أما إذا لم تعلن رغبتها بمفارقته فالظاهر من أمرها أنها امرأة إما أن تكون ممن يصلحهن الضرب، أو أن يكون نصيبها الفراق، إلا أن إهانتها بالفراق ووسمها بأنها امرأة لا تصلح للمعاشرة الزوجية أقسى عليها وأشد من إهانتها بالضرب غير المبرح، على أن في يديها حق المطالبة بالفراق، قبل أن يمارس الزوج هذه الوسيلة في إصلاحها وردها إلى الطاعة والاستقامة، وبذلك تحفظ كرامتها إذا كانت من الصنف الذي لا يتحمل الإهانة بالضرب، وهي مصرة على أن تظل معاندة غير مستجيبة لوسائل التربية[1].

وإذا أخذنا ـ من ناحية أخرى ـ بقاعدة (أخف الضررين) في الشريعة بمعنى أن مثل هذه الزوجات الناشزات العاصيات المترفعات على أزواجهن بدون سبب، إما أن يكون تأديبهن عن

---

(1) أجنحة المكر الثلاثة: عبدالرحمٰن حسن حبنكة الميداني، 1980، ص: 539 ـ 540.

طريق الطلاق والانفصال ـ وهذا الحل لا بد أنه يؤدي إلى هدم الأسرة وتشريد الأبناء ـ أو بالطريقة المثلى التي تنحصر في استخدام وسائل التربية والتأديب الحكيمة المقيدة كمًّا وكيفاً وصفةً، هي الحل الوحيد والأمثل.

على الأزواج أن ينتهجوا منهج الشرع الحكيم في استخدام العقوبة النهائية وألّا يلجأوا لها إلا بعد أن يتأكدوا أن المراحل الأولى من التأديب معها قد فشلت، ومن الخير لهم أن يتركوها تماماً مصداقاً لفعله ﷺ فإن يده الشريفة لم تضرب امرأة قط، ولقوله: «ولن يضرب خياركم».

ضرب الزوجة، وأعداء الدين، وواقع الحال...

رغم سوء استغلال بعض الرجال المستشرقين وأعداء الإسلام مسألة تأديب الزوجة بالضرب ـ وهي مسألة مشروطة في الإسلام ـ فإن الواقع يؤكد أن المرأة في مجتمعاتنا الشرقية أسعد حالاً من نظيراتها في المجتمعات الغربية. وخلال وجودي في الغرب مدة ست سنوات، لحظت هناك، أن الزوجات بالرغم من أنهنّ بدّعين الحضارة والمدنية، إلا أنهن يعانين من الهجر والإيذاء وضياع حقوقهن المعنوية، ولا أبالغ إن قلت: إن السبب الرئيسي في ذلك هو أن الأزواج ـ ونسبة كبيرة منهم من مُدمني الخمر ـ لا يتورعون أن يضربوا زوجاتهم وأن يقتلوهن بنسب وإحصائيات تفوق كثيراً ما هو مسجل لدينا، وخير دليل على ذلك الإحصائيات التي ذُكرت في بداية موضوع العنف ضد

النساء، فليركز المستشرقون على بلادهم ولينتقدوا ما يحصل لنسائهم من الضرب المبرح الذي قد يصل في كثير من الأحيان إلى القتل، وليتركوا شأن ديننا الحنيف الذي أعطى كل شيء حقه. ولينتقدوا هؤلاء المستشرقين وسائل إعلامهم وأفلامهم التي يعرضونها في التلفزة والتي لها دورٌ كبير في تشجيع عنف الرجل نحو المرأة، حيث أن هناك عنفاً إعلامياً تجاه المرأة، وقد أثر ذلك لا على شبابهم فحسب، بل حتى على شبابنا، حيث أن ذلك العنف الإعلامي يأخذ عدة صور ومنها:

إغفال الدور الكامل للمرأة كإنسانة منتجة مساهمة في التنمية، وباحثة ومساهمة في تطور المجتمع، فلماذا نعدّ المرأة أقل ثقافةً وعلماً من الرجل؟ فهناك نساء طبيبات ومهندسات، وشاعرات، وأديبات، وعالمات، فالمرأة في دولة قَطَر مثلاً أخذت مواقع هي كفؤٌ لها، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، فإن الدكتورة عائشة المناعي هي عميدة كلية الشريعة في جامعة قطر، ولنساء قطر دور كبير في قطاع التعليم، وكثير منهن يشغلن مواقع حساسة في ذلك القطاع. إن المعرفة للمرأة هي أرقى طريق إلى تعميق الحياة وتنويعها، وترسيخ أفقها وخلق صلة بينها وبين العالم، وإعطاء كل لحظة من الحياة طعماً، هذا وقد حث الإسلام على تعليم المرأة، وكان رسولنا ﷺ يخصص للنساء أياماً يجتمعن فيها، ويعلمهن شؤونهن، مما ينفردن به عن الرجال، بمقتضى تكوينهن الجسدي والنفسي. ولكن ما يحدث اليوم في التعليم هو أن أعداء الإسلام استطاعوا توجيه مؤسسات

التعليم والتربية في أكثر من أربعة عقود ومن ضمن خططهم، أن يقنعوا الفتيات المسلمات اللواتي تعلمن فيها بأن التقاليد والعادات والأخلاق المنافية لتعاليم الإسلام والمستوردة من الغرب أمورٌ حسنة، فيجب الأخذ بها حسب رأيهم، فَهانَ على المرأة المسلمة أن تعرض نفسها وتمشي في الطرقات العامة بهيئة مخالفة لديننا الحنيف، وأن تنظر إلى التعاليم الإسلامية الحنيفة نظرة مُجافاة في التطبيق.

هذا وإذا عدنا إلى دور العنف الإعلامي في وسائله نرى أنه تبرز صورة الرجل ـ في كثير من الأحيان ـ خاصة في الدراما، ملامح البطولة والعنف والقوة والذكاء، بينما يبرز دور المرأة وصورتها ملامح الضعف والسذاجة والبعد عن العقلانية في السلوك والتصرف والتفكير، والإعلام إذ يبرز دور المرأة صورة المستهلكة للملابس، ومستحضرات التجميل وغيرها.

هل نسي التاريخ قصة المرأة البطلة (امرأة فرعون)، إنها قصة جديرة بالاعتبار من قبل المرأة، فليست المبالغة ولا الخيال يدعوان القرآن إلى القول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: 11]، وهي آسية.. فهذه المرأة البطلة التي فازت بالخلود في كتاب الله وجنته حين جعل الله منها ذكراً تردده آلاف الألسنة جيلاً بعد جيل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11]، وليس قصدي وأنا أتحدث الآن عن المرأة التي جعل القرآن منها قدوة

للمؤمنين، وضرب بها المثل الأعلى في التضحية والجهاد والالتزام بخط العقيدة، كسب عواطف المرأة والتزلف إليها كما يفعل أصحاب الكتابات الرخيصة، لكني أروم من كلامي أمراً آخر. . . فيه كل الخير للمرأة لأن غرضي الرئيس هو لفتُ نظرها إلى أمرين رئيسين: إلى الكتاب الكريم الذي جاء من أجل تكريمها والمحافظة على إنسانيتها ووجودها وكرامتها. . وإلى المرأة التي فازت بالخلود في كتاب الله وهي آسية بنت مزاحم!

فلماذا تبرز وسائل الإعلام دور المرأة بالضعف والسذاجة، والبعد عن العقلانية في السلوك والتصرف والتفكير، ناهيك عن أن هناك نساءً في الإسلام لهن دور البطولات والتضحيات في التاريخ، كأم عمارة وخديجة وفاطمة وأسماء ونسيبة وسمية والخنساء، فإنهن أفضل من رجال كثيرين. فالقرآن أعظم كتاب تحدَّث عن المرأة، وقد جعل منها ـ قدوة للأجيال ـ وضرب ببطولاتها وإيمانها وأدبها المثل.

وليعلم المستشرقون أن شريعتنا الغراء واضحة في جعلها الزواج علاقة مقدسة أبدية، قوامها ليس الدمار ـ كما في الغرب ـ بل المودة والامتزاج والرحمة، ولا أقول ذلك من عندي إنما يتضح كل ذلك من قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187]. كما يقول جل وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]. ويظهر من معنى هذه الآية الكريمة أن الزوجة هي

المكان الذي يجد فيه الزوج راحتهُ وأمنهُ وسكينتهُ. فعلى رجالنا ونسائنا أن يبتعدوا عن كل عبث وهراء، وثرثرة وافتراء، ويعودوا إلى النظر السديد، ويعلموا أن أعداء الإسلام الذين ينادون بحقوق المرأة، والذين يضربون المناضد بأيديهم من أجل حقوقها، مثلهم كمثل الطبل يرتفع صوته وهو في الداخل أجوف، وليدافعوا هؤلاء عن العنف القاسي الذي يمارس في بلادهم ضد نسائهم، ويتركونا وشأننا.

سوء استغلال الدين لمآرب بعض الأزواج المنحرفين والعلاج...

يرى الدكتور عمرو جنيدي أُستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر: إن ظاهرة ضرب الأزواج للزوجات جملة وتفصيلاً هي بمنتهى البساطة امتداد لظاهرة سيئة في المجتمع الشرقي، وهي تفسير الدين تبعاً للتقاليد المتخلفة، بينما القاعدة الإسلامية الأساسية هي: «المعاشرة بمعروف أو التفريق بإحسان» أما غير ذلك من التصرفات غير السويّة أو التعاملات التعسفية فمرفوضة جملة وتفصيلاً، ومبرره هو الخلل النفسي أو المرض الاجتماعي أو محاولة وضع عمامة الدين على ما هو ليس من أصل الدين[1].

إن ما يصدر من مخالفات وشذوذ وصفات شخصية يجب أن لا يحسب على الإسلام كدين أو كنظام، وإنما على

(1) مجلة نصف الدنيا، عدد 482 ، 9 مايو 1999 ، القاهرة.

المخالفين من الناس الذين خالفوا وشذوا، فإن مخالفة الناس ليس خطأ الإسلام أبداً. حيث أن ذلك يحدث عند غياب الإسلام الصحيح عنهم وقد حادوا عن تطبيق مبادئها بصورة صحيحة، بسبب ميلهم إلى رغباتهم الشهوانية والنفسية الضعيفة، وضعف عقيدتهم وتقواهم. ومن هنا يجب أن يعرف الناس بالإسلام لا أن يعرف الإسلام بالناس. فالدين الإسلامي ميزان يوزن به الناس، فمن خالف تعاليمه يلقى اللوم عليه لا على الإسلام.

شَرعَ الإسلام الضرب لحالة قد يكون نسبتها غير معنوية من الناحية الإحصائية لنساء ناشزات، فَشرعَ ذلك كدواء لداء قلما يكون المجتمع الإسلامي الصحيح بحاجة إليه، ويستخدم الضرب بعد اليأس من استخدام الوسائل التربوية والتأديب الحكيمة على مراحل في مراتب بعضها أشد من بعض، ولكن للأسف فأعداء الإسلام بصورة عامة ينطبق عليهم المثل: «يرون الذباب في عيون الناس ولا يرون الجبال في عيونهم».

فالضرب الصارخ المبرح الذي ذكرته في مستهل الموضوع، والمنتشر في أنحاء العالم، يعدّ ذلك العنف الجسدي أمراً قاسياً ضخامته كأكبر جبال العالم، وأنه منتشر في الغرب بشكل مفرط، ولأسباب كثيرة تختلف تلك الأسباب من بلد إلى بلد.

والضرب غير المبرح الذي أجازه ديننا والذي لا يتعدى فيه استخدام (السواك)، وأنه بذلك أشبه في ضخامتها بالذباب إذا ما

قورن بالضرب الصارخ المبرح الذي يمارس في العالم. وأن هذا الضرب البسيط غير المؤذي لا يستخدم إلّا بعد نفاذ كافة الوسائل التربوية من تأديب ونصيحة وهجر وتنبيه، والتي قد تؤدي إلى النجاح في حل المعضلات بين الأزواج، فالضرب في الإسلام دواء لداء، والضرب الصارخ المبرح الذي يمارس في العالم داء وليس دواء. ثم إن الإسلام يَعُدّ الأسرة مؤسسة أو شركة تتوزع المسؤوليات فيها، واقتضت الحكمة أن يكون الرجل هو القيّم على زوجته وأولاده وهو ولي أمرهم، واقتضت أيضاً أن يكون لكل منهما ـ أي الزوجين ـ حقوق على الآخر والواجبات نحوه.

ومن حقوق الزوج على زوجته أن لا تكون ناشزاً خارجة عن طاعته، ما لم يأمرها بما فيه معصية الله، أو هضم لحقوقها التي شرعها الله لها.. وأية مؤسسة اجتماعية لا بد أن يكون في يد صاحب الأمر فيها وسائل يضبط بها نظام هذه المؤسسة، حتى لا تتعرض للفوضى، فالفساد فالتفكك والانحلال. وأبرز عناصر وحدة مؤسسة اجتماعية إنما هو عنصر طاعة أعضائها لصاحب الأمر فيها، والخروج عن هذه الطاعة نشوز يجعل المؤسسة مُنْحلة أو بحكم المنحلة.

ولما كان في طبائع الناس نزوع إلى التحرر من قيود الطاعة، كانت المؤسسات الاجتماعية الإنسانية عرضة للانحلال والتفكك باستمرار، ما لم تهيمن على أفرادها الضوابط الاجتماعية المعنوية والمادية، ومن الضوابط الاجتماعية التي

تصون وحدة الجماعة وسائل التربية والتأديب، عند حدوث بوادر النشوز والخروج على الطاعة، ويدخل في التأديب أنواع العقاب التي تسمح بها الأعراف الإنسانية الكريمة.

وقد أرشدت الحكمة النظرية والتطبيقية إلى استخدام طائفة من وسائل التربية والتأديب، للمحافظة على استمرار عنصر الطاعة مهيمناً على أفراد الجماعة وتتفاوت هذه الوسائل فيما بينها رغبة ورهبة، ورفقاً وشدة، ولطفاً وعنفاً.

ويختار بعض أولي الأمر أسلوب العنف والقسوة فيفشلون، مهما اضطهدوا رعيتهم، ويختار بعضهم أسلوب الرفق واللين باستمرار، فيتطاول عليهم الباغون المنحرفون، فينتزعون منهم سلطانهم، أو يلجؤونهم إلى التغاضي عن الفوضى، التي يستغلونها استغلالاً ظالماً آثماً.

أما الحكماء العقلاء فيستخدمون الوسائل كلها، إلا أنهم يضعون كلّا منها في موضعه، وبذلك يسلم لهم الأمر، وتسعد بهم الجماعة. وهذا ما أرشد إليه الإسلام أولياء الأمور بشكل عام، كما أرشد إليه ذوو الولايات الخاصة الصغيرة، ومنهم القوامون على الأسر(1).

أيتها المرأة الناشز عودي إلى حياة الأمل، كوني كما أُمرتِ به من الله ورسوله مع زوجكِ، فهو أقرب الناس إليكِ، ارحمي أطفالك وقولي كلمة الحياة (في نهاية الأمر، كلمة الذي تعذب

(1) أجنحة المكر الثلاثة، عبدالرحمٰن حبنكة الميداني، 1980، ص: 537.

أكثر من الكل، فعرف أكثر من الكل). إن الأخلاق هي روح العبقرية.. والأخلاق هي أثمن موهبة.. وما هي الأخلاق.. إنها احتضان العالم، وحب الإنسان واحترامه ومحاولة فهمه، فاحترمي وأطيعي زَوجَكِ، وكذلك أَنْتَ أيها الزوج إن ما قيل آنفاً هو لك أيضاً، وليس لها فقط، انسيا الحياة القاسية التي قد مَرّت بكما، فالضوء سيشع لكما بعد تجارب العذاب المريرة التي مرّت بكما.

هذا وإن مطرقة العنف في مجتمعنا (لا الغرب الذي وصلت فيه مشاكل العنف إلى قمتها) بَدَت تظهر لأسباب عديدة، ومن أهم الأسباب سوء فهم الرجل الصحيح لدينه الإسلامي، وأحاديث نبيه الشريفة، خصوصاً بالنسبة للقوامة والطاعة وتعدد الزوجات وحتى قضايا الطلاق، وبخاصة حق الرجل - الزوج - في التأديب - والأفضل أن أقول: في توجيه زوجته في الحالة التي ترفض الخضوع لأوامر الرجل. فإذا عدنا إلى حياة نبينا الكريم ﷺ نرى أنه كان يعامل زوجاته بكل احترام وعطف وحنان، وكان في كثير من الأحيان يجلس معهن ويستشيرهن في أمور عديدة، إضافة إلى مداعبتهن وتدليلهن.

كما أود أن أشير إلى السبب الآخر للعنف والذي يكمن في نقص كبير في كل من وسائل التربية والتعليم لبناء التنشئة الاجتماعية الصحيحة بشأن العلاقات بين المرأة والرجل، وإن افتقاد المجتمعات لهذه الوسائل يسهم كثيراً في استمرار ظاهرة العنف فيها نحو المرأة، بينما توضيح ظاهرة العنف في المناهج

والتوجيه الصحيح قد يقضي على الأسباب الموجبة للعنف الخاطئ والمتعلقة بسوء فهم الرجل للمرأة، بعد أن يفهم الرجل دينه بصورة صحيحة، وليس كما توارثه بصورة محرفة من آبائه بسبب افتقارهم للوازع الديني الصحيح.

وليطَّلع الرجال والنساء المسلمات معاً على تعاليم دينهم في هذا السياق للوقاية والعلاج معاً من العنف حيث أن الدين الإسلامي يفرض على الزوج الحقوق المادية للزوجة كالمهر والنفقة والمتعة، وحقوق معنوية غير مادية قد لا تكون حتماً أقل من الأولى أهمية، وهي حسن المعاشرة، فقد أوجب الدين الحنيف على الأزواج إكرام الزوجة وحسن معاشرتها، ومعاملتها بالمعروف، يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

ويقول ﷺ: «حبب إليّ من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة»[1]. فكيف يجوز للمسلم أن يستخدم العنف مع النساء البريئات بعدما يقرأ هذه الآيات والأحاديث.

وعن معاوية بن حيدة ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن يطعمها إذا طعمت، ويكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبّح، ولا تهجر إلا في

(1) أخرجه النسائي في (الحديث: 3949)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 128)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 2/ 160).

البيت»[1] وقال معنى: (لا تُقبِّح) أي: لا تقل قبّحك الله.. وهذا عنف لفظي وإن الإسلام بهذا الحديث نهى حتى عن العنف اللفظي تجاه المرأة فكيف بالعنف الجسدي.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً، وخياركم خيارُكمُ لنسائِهم**»[2].

هل الخيّرون من رجالنا يجوز لهم أن يستخدموا العنف ضد النساء بعد أن يسمعوا هذا الحديث؟ أين نحن من دين محمد ﷺ؟! الذي ينقصنا الكثير من فهمه، ولذلك نقع في مشاكل الحياة الكثيرة، التي لا تحمد عقباها.

وعن أياس بن عبد الله بن أبي ذباب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تضربوا إماء الله**»، فجاء عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فقال: ذَئِرنَ النساء على أزواجهنّ، فرخّص في ضَربِهنّ، فأطاف بآلِ رسول الله ﷺ نساء كثيرٌ يشكون أزواجهنّ، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أطاف بآل بيت محمد نساءٌ كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخيارِكُم**»[3]. رواه أبو داود بإسناد صحيح.. وقوله: (ذَئِرنَ): هو بذال معجمة مفتوحة ثم هَمزة

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 1242)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 1850).

(2) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4682)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 250)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 1/ 3).

(3) أخرجه أبو داود في (الحديث: 2146).

مكسورة ثم راء ساكنة ثم نون، أي: (اجترأنَ)، قوله: (أطاف) أي: أحاط.

هذا... ولا يستخدم الضرب في كل حالة ومع كل امرأة، فقد كان الرسول ﷺ - وهو أولى المؤتمرين بأوامر القرآن - يكره الضرب ويعيبه ويقول: «**لا يجلد أحدكم امرأتهُ جَلْدَ العبد ثم يجامعها آخر اليوم**»[1].

الماسوشيزم (Masochism) وضرب المرأة

ما حكم من يقترف ذنباً، سواء كان ذلك في حدود الأسرة الواحدة، أو في الوظيفة...، ثم إذا تكرر ذلك الذنب الذي يستوجب العقوبة مرات عديدة، ما حُكمُهُ؟

طبعاً الحكم في البداية يكون التنبيه ثم التوبيخ ثم يليه الحكم الأقوى، فعلى سبيل المثال إذا كان لأحدنا ولدٌ في المدرسة ولم يقم بواجباته المدرسية، ما ردّ فعلنا؟ سنقدم له النصائح الحسنة التي تؤثر فيه وننبهه، وإذا استمر في عدم الالتزام بواجباته نقوم بتوبيخه والتوبيخ أقوى من التنبيه، فإذا لم يُجْدِ معه نفعاً كل ذلك، ماذا نفعل؟ حتماً سنعاقبه بعقوبة أخرى أقسى منها. وهكذا تتدرج العقوبة إلى أن تصل إلى ضرب غير مبرح، ضرب لا للتذليل بل للإصلاح والتقويم، والوصول إلى القرار الأخير هو لعدم جدوى العقوبات الأدنى. فشرع الإسلام في ضرب الزوجة الناشز، دائماً يأتي العقوبة بالموعظة والحكمة

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 5204).

أولاً ثم التنبيه والتوبيخ، وإن لم تُجدِ في تأديبها الدرجات الخفيفة من العقوبة، فيرتقي الحكم إلى الضرب غير المبرح.

يفسر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ الآية: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34] حيث يقول: إن الزوج في حالة نشوز المرأة كأنه يُلَمّح للزوجة قائلاً: إن كنت ستذلّينني بهذا فأنا أقدر على نفسي، ويتسائل بعضهم وماذا يعني أن يهجرها في المضاجع؟ يقول: ما دام المضجع واحداً فليطلعها ظهره ثم يكمل فضيلته: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ [النساء: 34] بقوله أن الضرب يشترط فيه أن لا يسيل دماً ولا يكسر عظماً. تقول الدكتورة سعاد صالح: الضرب غير المبرح، أي الذي يبعد عن الوجه ولا يترك أثرا في الجسد[1]. أي يكون ضرباً خفيفا يدل على عدم الرضا، ولذلك يقول بعض أهل العلم: يضربها بالسواك لأن المسألة ليست استذلالاً وإثباتاً للقوة، بل هي إصلاح وتقويم.

وهناك كلام نفيس للدكتور مصطفى محمود ـ في إحدى كتاباته ـ بهذا الخصوص إذ يقول : الضرب والهجر في المضاجع من معجزات القرآن في فهم النشوز، وهو يتفق مع أحدث ما توصل إليه علم النفس العصري في فهم المسلك المَرَضي للمرأة. وكما هو معروف في علم النفس فإن هذا العلم

(1) د. سعاد صالح، رئيس قسم اللغة بجامعة الأزهر، عن مجلة: نصف الدنيا، العدد 482 ، ص: 25، 1999.

يقسم هذا المسلك المَرَضي إلى قسمين:

القسم الأول: المسلك الخضوعي وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي: ماسوشيزم (masochism): وهو تلك الحالة المَرَضِيّة التي تلتذ فيها المرأة أن تُضرَبَ وتُعَذَّبَ وتكون الطرف الخاضع.

القسم الثاني: المسلك التحكمي وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي سادزم (sadism): وهو تلك الحالة المرضية التي تلتذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط وتوقع الأذى بالغير، ومثل هذه المرأة لا حل لها سوى انتزاع شوكتها وكسر سلاحها الذي تتحكم به، وسلاح المرأة أنوثتها وذلك بهجرها في المضجع فلا يعود لها سلاح تتحكم به.. أما المرأة الأخرى التي لا تجد لذتها إلّا في الخضوع والضرب فإن الضرب لها علاج، ومن هنا كانت كلمة القرآن: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾، وَ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ إعجازاً علمياً في كلمتين فيهما كل ما أتى به علم النفس في مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها.

وهذا يعني أن هناك بعض من الناس مصابون بانحراف نفسي غريب المزاج، يلذ لهم معه أن يتلقوا معاملة قاسية مؤلمة، جسدية كانت هي أو نفسية، فلا يطيب مزاجهم ولا يعتدلون إلا بالضرب أو ما يشبهه من مؤلمات، وأكثر ما يكون هذا اللون من الانحراف في صنف النساء. إذاً ما رأي أعداء

الإسلام، فإن علماء النفس قد توصلوا لهذه النتائج فهل من حل آخر؟

بعيداً عن الإنصاف، أو بعيداً عن الرؤية، ينتقد أعداء الإسلام والمنخدعون بهم المتأثرون بتضليلهم، التعليم الإسلامي الذي يأذن للزوج ـ بموجب سلطته القوامة ـ أن يضرب زوجته إذا خاف نشوزها ضرباً غير مبرح، في آخر مراحل التأديب ذات الدرجات المتعددة بغية إصلاحها وإعادتها إلى حظيرة الطاعة المشروعة، وكما قلنا سابقاً، بأن هذا الضرب وسيلة احتياطية لا تستعمل إلّا في أشد الحالات استعصاء على الحل، وتفادياً لوقوع الطلاق، الذي هو أشد منه وأقسى على قلب الزوجة والأطفال.

فاعلم أيها الزوج، أن الضرب هو آخر ما سيأتي من حلول لأنك إذا كنت ماهراً فسوف تستخدم سلاح الهجر في المضاجع وستحرم أنثاك من سلاحها المتمثل في الإغراء وذلك بتحييدها وتحجيمها وإظهار لا مبالاتك بها..

واعلم أيها الرجل بأن نبيك الكريم قد ألحّ في خطبته في حجة الوداع موصياً بالنساء خيراً. فقال: «**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[1].

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 2941)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 1905)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 3074).

وقال أيضاً: «**إن المرأة خُلقت من ضلع، ولن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**»[1]. ففي هذا تنبيه إلى اختلاف خصائصهن النفسية عن الخصائص النفسية التي يتمتع بها الرجال، ولذلك يجب مراعاتهن بما يناسب خصائصهنّ.

ومن غريب المفارقات، أن الذين ينتقدون بصراحة تعاليم ديننا الحنيف، حول ضرب الزوجة، وضمن منهج تربوي منقطع النظير، فإنهم لا يتورعون عن إنزال أشد أنواع الاضطهاد والعذاب على جميع فئات البشر من رجال ونساء وفتيات وفتيان، من أجل ماذا؟ من أجل خلافات في الرأي السياسي، أو المذهب الاجتماعي، معتبرين ذلك خروجاً على طاعتهم، إذ أنهم فرضوا أنفسهم عليهم أولياء أمور بدون حق. فكيف بمن يملك ناصية الولاية في الأمر وله الحق في أن يطاع؟

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3331)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 3632).

معاضدة النساء للرجال في ساحات الوغى

ويتضمن المواضيع التالية :

- قصص لا تنسى.
- خروج امرأة من بني غفار مع رسول الله ﷺ.
- خروج امرأة وقصة عنزتها.
- خروج أم حرام بنت ملحان خالة أنس.
- خدمة النساء في الجهاد في سبيل الله.
- خدمة الرُّبَيِّع بنت معوذ وأم عطية وليلى الغفارية في الجهاد.
- خدمة عائشة وأم سليم وأم سليط الأنصارية يوم أحد .
- خروج النساء للخدمة يوم خيبر.
- قتال النساء في الجهاد في سبيل الله ـ قتال أم عمارة يوم أحد.
- قتال صفية يوم أحد ويوم الخندق.
- قتل أسماء بنت يزيد تسعة يوم اليرموك.
- أجر النساء أعظم . . . يعدل ذلك كله.

معاضدة النساء للرجال في ساحات الوغى

قصص لا تنسى ...

إنها حقاً قصص مثيرة عن المرأة في زمن سيدنا محمد ﷺ، إنها تستحق الذكر، ومن هذه القصص تتبين تضحية النساء وجهادهن في سبيل الله، وتُذكّر هذه القصص المرأة بأن لها دوراً كالرجل في هذا الأمر وأنها ليست منسية في الإسلام، وهذا يعني أن دورها ليس منحصراً في الالتزام بطبخ الطعام كما يصورها أعداء الإسلام، واعلمي أيتها المرأة أن دورك في أمور شتى ليس خافياً على أحَدٍ فدورك دور عظيم، وإنه يختلف عن أدوار النساء في البلاد الغربية التي يكثر فيها الصخب والعنف و(الجاز)، والناس في مثل هذه البلاد يسرعون في الأكل والكلام والحركة ولا يجدون وقتاً للهدوء والتفكير... إنها بلاد مهووسة بالضجة، وهي كل يوم تفكر في تقاليع تغزو بها العالم...

إن الصخب والضجيج يخفيان في هذه البلاد حزناً عميقاً يأكل قلب كل فرد... حيث وقف ذات يوم مهندس فنان في نيويورك وقال: «هذه مدينة مليئة بالزينة... لكنها مفجعة»، والإنسان هناك يحس بالضياع وسط الزحام والأضواء وناطحات السحاب، فأنت أيتها المرأة لك الدنيا والآخرة، فحلاوة الدنيا

هي بالإيمان وليس بالصخب والعنف و(الجاز)، دورك عظيم إذ لا يمكن إخفاؤه، لذا فإن لك أدواراً في ثنايا التاريخ فاقرأي دور أمهاتك في زمن الرسول ﷺ ، فالنساء في ذلك الزمان حاربن وسقين المرضى وداوينَ الجرحى. . . .

خروج امرأة من بني غفار مع رسول الله ﷺ

أخرج ابن إسحاق عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار، فقلنا: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ـ وهو يسير إلى خيبر ـ فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين ما استطعنا. فقال: «**على بركة الله**». قالت: فخرجنا معه. قالت: وكنت جارية حديثة السنّ، فأردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رَحْله. قالت: فوالله لَنَزَلَ رسول الله ﷺ إلى الصبح وأناخ ونزلت عن حقيبة رَحْله. قالت: وإذا بها دم مني، وكانت أول حيضة حضتها. قالت: فتقبَّضْتُ إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم قال: «**ما لك لعلك نفست؟**»[1]، قالت: قلت: نعم. قال: «**فأصلحي من نفسك، ثم خذي إناء من ماء، فاطرحي فيه ملحاً، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك**».

قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا[2] من الفيء، وأخذ

---

(1) نفست ـ بالفتح ـ: حاضت، «النهاية» (5/ 95).

(2) الرضخ: العطية القليلة، «النهاية» (2/ 228).

هذه القلادة التي ترين في عنقي ، فأعطانيها وعلّقها بيده في عنقي ، فوالله لا تفارقني أبداً، وكانت في عنقها حتى ماتت ، ثم أوصت أن تدفن معها . قالت: وكانت لا تَطْهُر من حيضها إلّا جعلت في طهورها ملحاً، وأوصت به أن يجعل في غُسلها حين ماتت. وهكذا رواه الإمام أحمد[1]، وأبو داود[2] من حديث ابن إسحاق. ورواه الواقدي بإسناده عن أمية بنت أبي الصلت ﷺ . كذا في البداية (4/ 204) .

خروج امرأة وقصة عنزتها

وأخرج الإمام أحمد عن حميد بن هلال قال : كان رجل من الطُّفاوَة[3]، طريقه علينا يأتي على الحيّ فيحدثهم. قال: أتيت المدينة في عِير لنا، فبعنا بضاعتنا، ثم قلت: لأنطَلِقنَّ إلى هذا الرجل فلآتين من بعدي بخبره، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو يريني بيتاً. قال: «**إن امرأة كانت فيه، فخرجت في سرية من المسلمين وتركت اثنتي عشر عنزة، وصيصتَها**»[4]، التي تنسج بها. قال: «**ففقدت عنزاً من غنمها وصيصتها. قالت: يا رب، قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزاً من غنمي وصيصتي، وإني أنشدك عنزي وصيصتي**». قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر له شدة

(1) في «مسنده» (الحديث: 6/ 65).
(2) في «سننه» (الحديث: 313).
(3) الطُّفاوَة: بالضم : حي من قيس عيلان (القاموس : طفا) .
(4) الصيصة : الصنارة التي يغزل بها وينسج، «النهاية» (3/ 67) .

مناشدتها لربها تبارك وتعالى. قال رسول الله ﷺ: «**فأصبحت عنزها ومثلها وصيصتها ومثلها، وهاتيك فأتها، فاسألها إن شئت**». قال: قلت: بل أصدّقك. قال الهيثمي (5/ 277): رواه الإمام أحمد[1]، ورجاله رجال الصحيح. انتهى.

خروج أم حرام بنت ملحان خالة أنس

أخرج البخاري[2] عن أنس ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان، فاتّكأ عندها ثم ضحك. فقالت: لِمَ تضحك يا رسول الله؟ فقال: «**ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر[3] في سبيل الله، مثلهم مثل الملوك على الأسرة**». فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**اللّهم اجعلها منهم**»، ثم عاد فضحك. فقالت له مثل ذلك ـ أو ممَّ ذلك؟ ـ فقال لها مثل ذلك. فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «**أنت من الأوّلين، ولست من الآخرين**». قال: قال أنس ﷺ: فتزوجت عبادة بن الصامت، فركبت البحر مع بنت قرظة[4]، فلما قفلت ركبت دابتها، فوقصت[5] بها فسقطت عنها فماتت[6].

(1) في «مسنده» (الحديث: 5/ 67).

(2) «صحيحه» (الحديث: 2877) و(الحديث: 2878).

(3) هو البحر الأبيض المتوسط (حاشية المطوعة).

(4) هي زوجة معاوية بن أبي سفيان.

(5) وقص: نزا ووثب وقارب الخطو. «النهاية» (5/ 214).

(6) دفنت في قبرص ويسمى قبرها هناك المرأة الصالحة.

خدمة النساء في الجهاد في سبيل الله

خروج النساء مع النبي ﷺ لسقي المرضى ومداواة الجرحى

أخرج الطبراني[1] عن أمّ سُلَيم ﵂ قالت: كان النبي ﷺ يغزو معه نسوة من الأنصار، فتسقي المرضى وتداوي الجرحى. قال الهيثمي (5/ 324): رجاله رجال الصحيح.

وأخرجه مسلم[2]، والترمذي[3]: وصححه، عن أنس ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأمّ سُلَيم ﵂ ونسوة معها من الأنصار، يسقين الماء، ويداوين الجرحى.

خدمة الرُّبيِّع بنت معوذ وام عطية وليلى الغفارية في الجهاد

وأخرج البخاري عن الربيع بنت معوذ ﵂ قالت: كنا مع النبي ﷺ فنسقي القوم، ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة، وأخرجه أيضاً الإمام أحمد كما في المنتقى. وأخرج الإمام أحمد، ومسلم وابن ماجه عن أم عطية الأنصارية ﵂ قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات[4]، أخلفهم في رحالهم، وأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على الزمنى[5]. كذا في المنتقى.

(1) «المعجم الكبير» (الحيدث: 740)، و«المعجم الصغير» (الحديث: 324).

(2) «صحيحه» (الحديث: 4659).

(3) «سننه» (الحديث: 1575).

(4) أخرجه مسلم في (الحديث: 5019)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 3812)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1821).

(5) زمنى: جمع زمين، وهو ذو العاهة (القاموس: زمن).

وأخرج الطبراني[1] عن ليلى الغفارية ﷺ قالت: كنت أخرج مع رسول الله ﷺ أداوي الجرحى. قال الهيثمي (5/ 324): وفيه القاسم بن محمد بن أبي شيبة وهو ضعيف. انتهى.

خدمة عائشة وأمّ سلَيم امُّ سليط الأنصارية يوم أحد

أخرج البخاري[2] عن أنس ﷺ قال: لما كان يوم أُحُدٍ انهزم الناس عن النبي ﷺ. قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمّ سُلَيم ﷺ وأنهما لمشمِّرتان، أرى خدم[3] سوقهما، تنقزان القرب[4]. وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما[5] ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها[6] في أفواه القوم. وأخرجه أيضاً مسلم[7]، والبيهقي (9/ 30): عن أنس ﷺ بنحوه.

وأخرج البخاري[8] عن ثعلبة بن أبي مليك ﷺ: أن عمر بن

(1) «المعجم الكبير» (الحديث: 25/ 28).

(2) «صحيحه» (الحديث: 2880)، و(الحديث: 3811)، و(الحديث: 4064).

(3) الخدم: جمع خدمة يعني الخلخال ويجمع أيضاً على خدام «النهاية» (2/ 15).

(4) تنقز: أي تقفز وتثب، «النهاية» (5/ 105) والقرب: جمع قربة: الوطب من اللبن وقد تكون للماء (القاموس: قرب).

(5) المتون: جمع المتن وهو الظهر (القاموس: متن).

(6) في الأصل: (فتفرغانه)، وما هنا عن صحيح البخاري.

(7) «صحيحه» (الحديث: 4660).

(8) «صحيحه» (الحديث: 2881)، و(الحديث: 4071).

الخطاب ﷺ قسم مروطاً[1] بين نساء من نساء المدينة، فبقي مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي ﷺ - فقال عمر ﷺ: أمُّ سَليط أحق - (أمُّ سَليط من نساء[2] الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ) - قال عمر ﷺ: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحُد. قال أبو عبد الله - أي البخاري - : تزفر: تخيط، وأخرجه أيضاً أبو نعيم وأبو عبيد؛ كما في الكنز (7/ 97).

خروج النساء للخدمة يوم خيبر

وأخرج أبو داود[3] من طريق حشرج بن زياد عن جدته - أم أبيه - ﷺ: أنهن خرجن مع النبي ﷺ في خيبر[4]، وفيه: أن النبي ﷺ سألهن عن ذلك؛ فقلن: خرجنا نغزل الشعر، فنعين به[5] في سبيل الله، ونداوي الجرحى، ونناول السهام، ونسقي السويق.

وعن عبد الرزاق عن الزهري قال: كان النساء يشهدن مع النبي ﷺ المشاهد، ويسقين المقاتلة[6]، ويداوين الجرحى. كذا في فتح الباري (6/ 51).

(1) المروط: الأكسية الواحد مرط. «النهاية» (4/ 319).
(2) ما بين القوسين زيادة من (صحيح البخاري).
(3) «سننه» (الحديث: 253).
(4) في الأصل: (ونعين).
(5) في الأصل: (حنين) وما هنا للسياق.
(6) المقاتلة: بكسر التاء: جمع مقاتل.

وللخنساء صفحات في حرب القادسية يقصها علينا الدكتور أحمد الكبيسي، وهي فعلاً قصة لامرأة ذات إيمان قَلَّ بل ندر أمثالها وإلى يوم القيامة، الخنساء: (تماضر بنت عمرو بن الشريد)، الخنساء هذه نفسها يأتيها الإسلام فيعلمها المعنى الجديد للحياة[1] والصياغة الجديدة للمرأة، وتمضي الأيام سريعة حافلة، ويخرج المسلمون إلى حرب القادسية، وتخرج إليها مع أبنائها الأربعة، وفي ليلة المعركة تجمعهم وتوصيهم فتقول:

يا بني، إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، وقد تعلمون ما أعد الله لعباده المجاهدين، امضوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين.

فيخرج الأبناء الأربعة إلى الحرب وتبقى الخنساء تقوم بدورها في مؤخرة الجيش، تواسي الجريح، وتسقي العطشان، وتحضر المؤن، ويستبسل الأبناء في القتال وينشدون الشعر بذكر العجوز الخنساء، ويقتلون واحداً تِلْو الآخر، ويبلغ الخنساء خبر مقتلهم جميعاً، فتقول:

الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. ثم تمضي في سبيل ما هي فيه لم تتوقف، وكأن شيئاً مروعاً لم يقع، وكأن حدثاً جليلاً لم يحدث.

---

(1) مقالة للدكتور أحمد عبد الكبيسي - مجلة العربي - بتصرف.

ولست ثقيل الظل إلى الحد الذي جعلني أفسد على القارئ تأملاته بالتعليق، أو أقتحم عليه انبهاره بالكلام، أو أربك له خشوعه بالتوضيح. لأن أي كلام في مثل هذا المقام لا بد وأن يكون غثاً مهما أحكمته الفصاحة، ولأن أي تعليق على مثل هذه المواقف لا بد وأن يكون فجاً مهما زوقته البلاغة، ولأن أي توضيح لمثل هذه الملاحم لا بد وأن يكون فظاً مهما كانت الملاحظة دقيقة وعميقة وذكية.

ولقد صادف رسول الله ﷺ مثل هذه البطولات فاكتفى بالتثمين، ومرت أمامه مثل هذه التضحيات فقابلها بالإجلال، وامتحنت المرأة من حوله فتفجرت على شفتيه ابتسامة إعجاب عريضة، هي أبلغ من أي حديث.

هكذا كانت المرأة في عهد رسول الله ﷺ، وكانت قلوبهم مملوءة بالإيمان والتوحيد، إنها فقدت أعز ما عند الإنسان في الحياة الدنيا ومع ذلك وهي تقول: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته... هل نجد في زماننا نساء مثلها؟ نعم لو كانت صحوة الإيمان تماثل صحوة إيمان الخنساء وقلوباً تحذو حذو قلبها المفعم بنور الهداية...

قتال النساء في الجهاد في سبيل الله:

قتال ام عمارة[1] يوم أحد

ذكر ابن هشام عن سعيد بن أبي زيد الأنصاري ﷺ: أن أُم

(1) أم عمارة نسيبة بنت كعب ترجمتها في الاستيعاب (الاستيعاب/ 1948) و (سير أعلام النبلاء) (2/ 278).

سعد بنت سعد بن الربيع ﷺ كانت تقول: دخلت على أُم عُمارة ﷺ، فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك؟ فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين[1]. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليّ، قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت لها: من أصابك هذا؟ قالت: ابن قمئة، أقمأه الله[2]، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: **دلّوني على محمد، لا نجوت إن نجا،** فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. كذا في البداية (4/ 34). وأخرجه أيضاً الواقدي من طريق ابن أبي صعصعة عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ﷺ، كما في الإصابة (4/ 479).

وأخرج الواقدي بسند آخر إلى عمارة بن عربة[3] ﷺ إنها قتلت يومئذ فارساً من المشركين. ومن وجه آخر عن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما التفت يوم أُحُدٍ يميناً ولا شمالاً إلّا وأراها تقاتل دوني**». كذا في الإصابة (4/ 479).

---

(1) الريح: النصرة والدولة (القاموس: روح).

(2) أقمأه الله: أذله الله.

(3) لعل عمارة هو ابن نسيبة من زوجها عربة بن عمرو، وكانت تكنى به.

فأم عمارة: نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف الأنصارية، من أوائل المسلمات، وحضرت ليلة العقبة وبايعت النبي ﷺ وشهدت أُحُدْ مع زوجها يزيد بن عاصم وابنيها: حبيب وعبد الله، ولما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ بالسيف، وأخذت ترمي بالقوس حتى أقبل ابن قمئة وهو يصيح:

دلوني على محمد ـ فلا نجوت إن نجا ـ فاعترض له مصعب بن عمير وأم عمارة فضربها ضربة وضربته على ذلك ضربات، لكن كان عليه درعان فاتقى بهما ضرباتها.

وحدثت أم عمارة عن أُحُدْ فقالت: انكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقي معه إلّا نفر ما يتممون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه، نذب عن رسول الله والناس يمرون منهزمين.

ورآني رسول الله ﷺ لا ترس معي، فرأى رجلاً منهزماً معه ترس فقال لصاحب الترس: **«ألق ترسك إلى من يقاتل»**[1] فألقى ترسه وأخذته، فجعلت أتترس عن رسول الله ﷺ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، فيقبل رجل عليٌّ على فرس، فضربني فتترست له، فلم يصنع سيفه شيئاً وولى، فضربت عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح على ولدي قائلاً: **«يا ابن أم عمارة، أمك أمك»** فعاونني عليه حتى أوردته الهلاك.

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 302، 303).

وجرح ابنها عبيد بن زيد، وجعل دمه يسيل، وهي لاهية عنه بقتال الأعداء حتى نادى رسول الله ﷺ ابنها فقال: «**اعصب جرحك**» فتنبهت إليه، وأقبلت عليه معها عصائب قد أعدتها للجراح، فربطت جرحه، والنبي واقف ينظر إليها بإعجاب وإكبار، ثم قالت لابنها: بني انهض فضارب القوم، فنهض ونهضت معه. فلم يزد رسول الله على أن قال وكأنه يحدث نفسه: «**ومن يطيق ما تطيق أم عمارة**».

ثم أقبل الرجل الذي ضرب ابنها، فقال رسول الله ﷺ لها: هذا ضارب ابنك.

قالت: فاعترضت له، فضربت ساقه فبرك. قالت: فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجذه.

وحدث رسول الله ﷺ عنها بعد ذلك فقال: «**لمقام نسيبة خير من مقام فلان، وفلان، ما التفت يميناً وشمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دوني**». وكان يراها تقاتل يوم أُحُدٍ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر رجلاً.

قتال صفية يوم أحُد ويوم الخندق

وأخرج ابن سعد عن هشام عن أبيه أن صفية ﵂ جاءت يوم أُحُدٍ وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب في وجههم فقال النبي ﷺ: «**يا زبير المرأة**». كذا في الإصابة (4/ 439).

وأخرج ابن إسحاق عن عبّاد قال: كانت صفية بنت عبد المطلب ﵂ في فارع ـ حصن حسان بن ثابت ﵁ ـ قالت:

وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان؛ فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم من يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا، إذ أتانا آتٍ، فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي ـ كما ترى ـ يُطِيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود؛ وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله. قال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنده شيئاً احتجزت[1]، ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته. فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان، انزل فاستلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلّا أنه رجل. قال: ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب . كذا في البداية (4/ 108).

وأخرجه البيهقي (6/ 308) من طريق ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه ﷺ بنحوه؛ ثم أخرج من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن صفية ﷺ مثله، وزاد فيه: قال: هي أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين. وأخرجه أيضاً ابن أبي خيثمة، وابن منده من رواية أم عروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها عن جدتها صفية ﷺ ، وابن سعد من طريق هشام عن أبيه، كما في الإصابة (4/ 349). وأخرجه ابن عساكر من

(1) احتجز الرجل الإزار إذا شده على وسطه . (النهاية) (1/ 344) .

حديث صفية والزبير ﷺ معناه، كما في الكنز (7/ 99). وأخرجه أيضاً الطبراني (عن عروة) وأبو يعلى، والبزار عن الزبير (وإسنادهما ضعيف)[1]؛ كما في مجمع الزوائد (6/ 133).

اتخاذ أمّ سُلَيم[2] خنجراً للقتال يوم حنين

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال: جاء أبو طلحة يوم حنين يضحك إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: ألم تر إلى أمّ سُلَيم معها خنجر؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أمّ سُلَيم ما أردت إليه؟» قالت: أردت إن دنا لي أحَدٌ منهم طعنته به. كذا في كنز العمال (5/ 307). وأخرجه أيضاً ابن سعد بسند صحيح، كما في الإصابة (4/ 461). وعند مسلم عن أنس ﷺ أن أمّ سُلَيم ﷺ اتخذت يوم حنين خنجراً، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أمّ سُلَيم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» فقالت: اتخذته إن دنا مني أحَدُ المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك.

قَتْلُ أسماء بنت يزيد[3] تسعةً يوم اليرموك

وأخرج الطبراني عن مهاجر: أن أسماء بنت يزيد بن السّكن

---

(1) انظر (مجمع الزوائد) (6/ 133 ـ 134).

(2) أم سليم بنت ملحان لها ترجمة في (الاستيعاب) (1847) و (سير أعلام النبلاء) (2/ 304).

(3) أسماء بنت يزيد بن السكن لها ترجمة في (الاستيعاب) (1787) و (أسد الغابة) (7/ 18) و (سير أعلام النبلاء) (2/ 296).

بنت عم معاذ بن جبل ﷺ قتلت يوم اليرموك تسعة من الروم بعمود فسطاط. قال الهيثمي (9/ 260): ورجاله ثقات، انتهى.

فيا عزيزي القارئ: هل اطّلعت على القصص الآنفة الذكر؟ إنها بحق قصص مثيرة عن النساء، إنهن دخلن وجاهدن في سبيل الله بشتى الوسائل، إنها حدثت قبل أكثر من (1400) عام، وحينذاك كان للمرأة دور في مختلف مجالات الحياة فلو كانت في ذلك الزمان طائرة من كان يمنع المرأة من أن تكون قائدة لها، وتنقل بها المؤن والأغذية لجيش المسلمين، وبالأحرى لو كنَّا بحاجةٍ ملحة إليهن - مثلاً في حالة النفير العام - ولو كانت في صدر الإسلام بنادق أو رشاشات فمن كان يمنع المرأة أن تتعلم استخدامها وهي في عقر دارها تدافع بها عن نفسها إذا ما هوجمت من قِبل الأعداء.

والفرق بيننا وبين الغرب في معارك القتال هو أننا نلتزم بالأمور الشرعية التي أمرنا بها الباري ﷻ.

إذن هل فرّق الإسلام بين الجنسين في هذه الأمور؟ ولكن لكل منهما وظيفته الخاصة... وعلينا أن لا ننسى أن هناك جهاد بشكل آخر لو تم الالتزام به لكان أجر المرأة كأجر الرجل دون أن يكون لها نصيب في ساحات الوغى. أتدرين ما هو ذلك أيتها المرأة؟ إنه طاعة الزوج والاعتراف بحقه وهذا يعدل الجهاد في سبيل الله، وسأروي لك قصة في الموضوع التالي لأثبت ذلك... وهل بعد كل هذا يتباهى الغرب في أن نسائهم يشتركن في الوغى مع الرجال؟ فالفرق بين صدر الإسلام وزماننا هو

أدوات الحرب فالرمح والسيف والمنجنيق والطائرات والدبابات والمدرعات كلها أدوات حرب، ولكن الفرق الأهم بيننا وبين الغرب هو الأخلاق والإيمان، فالجندي الأمريكي لا يقاتل لأنه مؤمن بالحرب (في كثير من حروب أمريكا) بل من خوفه من السجن إذا عصى الدخول في الحرب، أو ربما يخشى من ملاحقته قضائياً إذا امتنع عنها، ثم إن المردود المالي المغري للجندي الأمريكي، هو الذي يُحَفِّزه للدخول في الحروب، أما المسلم فلا غاية له إلّا رضى الله ورسوله بإيمانه الذي يملكه، ولا يهاب من الموت.

ولا فرق هنا بين المرأة والرجل من حيث غايتهما في القتال وهو رضى الله تعالى، وذكرنا فيما سبق أمثلة مثيرة عن تلك النساء البطلات.

هناك سؤال وهو: متى تمارس المرأة القتال في شرع الإسلام؟ أو بعبارة أخرى: متى يجب أن تقاتل المرأة؟ لا شك أن ممارسة القتال حين تدعو الضرورة إليه هي أصلاً تقع على الرجل، ولكن في حالة النفير العام أي عندما يجتاح العدو بلاد المسلمين فقد وجب حينئذٍ على الجميع ممارسة القتال (بكل ما لديهم من وسائل الدفاع) رجالاً ونساءً، فالحكم يشمل كل قادر عليه من المسلمين والمسلمات. وهناك نقطة مهمة هنا أود الإشارة إليها: أن المرأة تدخل المعركة في إطار القيم والضوابط الإسلامية الصحيحة حيث لا خلاعة، ولا تبرج، ولا انفلات في

القول أو الفعل، ويكون القتال هنا لكل منهما خالصة مخلصة لوجه الله تعالى ونصرة دينه. . هذا ودخول المرأة في المعارك في الإسلام إنما جاء دفاعاً عن النفس وإعلاء كلمة الدين، وليست تلك الحروب لإرهاب الناس ولا لإرهاب الأبرياء.

مع كل ذلك أعفيت المرأة في معظم الأحوال من الخروج إلى قتال الأعداء، رعاية لحالتها الجسدية، وحيث أن التكوين النفسي والعاطفي للمرأة لا يتناسب بالأحرى فيما يتعلق بالحروب وقيادات الجيوش، وليس بخافٍ أن الدخول في الحروب يقتضي من قوة الأعصاب وتغليب العقل على العاطفة والشجاعة في خوض المعارك، لذا فالإسلام لا يدعو المرأة للدخول إلى القتال في معظم الأحيان، وإلّا لكانت الحياة فقدت أجمل ما فيها من حنان ورحمة ورأفة ووداعة، هذا ولا تكلف المرأة بالقتال إلّا في حالة النفير العام وتؤدي بذلك من الأعمال على قدر استطاعتها، وليس معنى إعفائها في الأحوال العادية عدم ترغيب الإسلام بأن تشارك المرأة في مساعدة المقاتلين، وتضميد جرحاهم، وجلب الماء وإعداد الطعام لهم، ونحو ذلك ممّا تحسنه وتجيده من الأعمال.

وإذا كانت الدول الغربية تفتخر بمشاركة المرأة في حروبها مع أعدائها. نعم هذا صحيح، إلّا أن تلك المشاركة شكلية، ونحن حتى الآن لم نر في أكثر الدول تطرفاً في دفع المرأة إلى ميادين الحياة مَنْ رضيت أن تتولى امرأة من نسائها وزارة الدفاع،

أو رئاسة الأركان العامة لجيوشها، أو قيادة فيلق من فيالقها، أو قطع حربية من قطاعاتها[1].

صحيح أننا نرى النساء في عصرنا هذا في الجيوش الغربية وعلى رأسها أمريكا، إلّا أنهن لا يدخلن في المعارك الحقيقية (وجهاً لوجه مع العدو) ـ كحرب العصابات التي نراها في أماكن شتّى، فالمجندة لا تدخل في هذا النوع من الحروب ـ وإن كان هنا وهناك مجندات يقدن طائرات هيليكوبتر وغيرها، ولكن تعد تلك المشاركة ضئيلة فيما لو قورنت بدور الرجل، أنا شخصياً أرى اشتراك المرأة في الجيش في الغرب خدعة دعائية يريد الغرب من ورائها أن يظهر أنهم حريصون على سعادة المرأة وهنائها ويشركونها في كل المجالات، ولم أسمع في حياتي مثالاً حيًا في الغرب، من أن مجندة غربية قاتلت كما قاتلت أم عمارة ، حيث قال الرسول ﷺ في حقها في معركة أُحُدٍ: «ما التفت يميناً ولا شمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دوني».

أجر النساء أعظم .... يعدل ذلك كله .....

روي أن أسماء بنت يزيد بن السكن ـ خطيبة النساء ـ أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله ﷻ بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلٰهك، إنا معشر النساء مقصورات قواعد بيوتكم،

---

(1) المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي، بتصرف.

وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فُضِّلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله ﷻ وإن أَحَدَكُمْ إذا خرج حاجاً، أو معتمراً، أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا أولادكم أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟

أيها القارئ الكريم: إن النساء في زمن الرسول ﷺ، أردْن أن يتقربن إلى الله ﷻ وينافسن الرجال في كسب رضى الله ورسوله ﷺ. هل استجاب ﷺ لطلب هذه المرأة العظيمة؟ نعم... التفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كلّه ثم قال: **«أسمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟»** فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا القول! فالتفت ﷺ فقال: **«افهمي أيتها المرأة واعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله»**.

إن هذه المرأة العظيمة إذ طلبت من سيدنا محمد ﷺ حقاً من حقوق المرأة ودافعت عن المرأة، وإنها قد دافعت عن تلك الحقوق ونالتها بالفعل، ويظهر من هذا الحديث أن للمرأة حقين، حق يؤجر عليها، وهي قائمة به فعلاً: كتربية الأولاد وتدبير أمور الدار وغيرها.. والحق الآخر هو مشاركة في الأجر ـ وإن لم تفعلها ـ فالزوج يذهب للجهاد، وفي الوقت نفسه، فالمرأة تحفظ له أمواله وتغزل أثوابه وتربي أولاده، فإنها تشاركه في ذلك الأجر وإن لم تدخل في ساحات الوغى في الجهاد

فعلاً، هكذا كانت المرأة في عهد سيدنا محمد ﷺ. وهذا الحديث إنما هو ذكرى للمرأة الذكية التي تأخذ عبرة منه وتعرف أن الدين الحنيف يصون حقوقها ويعطيها المزيد ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: 9]... والتاريخ أصدق دليل لمن أراد أن يستقي منه الدروس والعبر...

قدوة النساء في الإيمان

ويتضمن المواضيع التالية:

- آسية في بلاط فرعون.
- مؤمنتان في القصر.

قدوة النساء في الإيمان
آسية بنت مزاحم زوجة فرعون

قصة آسية بنت مزاحم

هذه المرأة البطلة زوجة فرعون

إنها باعت الملك.. وباعت القصور... وباعت الحياة وكل هذا من أجل من؟ من أجل حبها لله... وإيمانها به...

امرأة تتباهى بها الرجال والنساء، وهي امرأة من أفضل أربع نساء في الجنة... كما ورد عن نبينا محمد ﷺ: «**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم**»[1].

إنه لفخر لكل نساء الكون عندما تقع على أسماعهم قصة هذه البطلة التي ضرب الله بها مثلاً في كتابه العزيز، إنه انتصار للمرأة، فَضْلت الآخرة على الدنيا، وضحّت بالنعيم الذي كانت ترفل فيه وتحيط بها الجواري وسط القصور... والمنتزهات التي بناها لها ـ أكبر طاغية على مر العصور ـ بناها على شاطىء

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 84) والطبراني والحاكم في «المستدرك» (الحديث: 2/ 497)، وصححه عن ابن عباس .. كما في الدر المنثور للسيوطي مجلد : 6، ص: 246 .

النيل ووسط ذلك الترف والبذخ كانت تقضي آسية أيامها ولياليها على طريق الملوك والأباطرة.. ولكنها ضحت بكل هذا وذاك.

هذه هي المرأة التي سطرت بطولتها آيات الذكر الحكيم لتكون أُمثولة لنا وللعالم بمشرقها ومغربها، وهي القدوة التي وجد الله فيها خير نبراس لأجيال المؤمنين فصاغها الرحمٰن قرآناً: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: 11].

إن آسية هي حقاً قدوة للأجيال التي جاءت من بعدها، وضرب ببطولتها وإيمانها وأدبها المثل... وما ذاك إلّا ـ لأن المرأة قد عاشت لله تعالى....

صائنة لنفسها... حافظة لدينها... مخالفة لهواها... مطيعة لأمر مولاها...

وسأنقل للقارئ الكريم قصة آسية وماشطة عائلتها في بلاط فرعون نصاً ومن كتاب: «كلمات مضيئة مهداة للمرأة»، للمؤلف (الشيخ ناجي النجار) وأتصرف فيها بين حين وآخر بما يتلاءم مع موضوعي وهي كالآتي:

عاشت هذه الشابة في القصر الفرعوني وكانت الزوجة المدللة لفرعون وتحف بها الجواري وترفل في الحرير...

لقد بلغ بفرعون الغرور وادَّعى الأُلوهية، وفرض على شعبه

عبادته، وقد أصدر بذلك مرسوماً نقل لنا نصه القرآن: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 23-24].

آسية في بلاط فرعون

وتبدأ خيوط القصة يوم ظهرت «آسية بنت مزاحم» الشابة الناعمة ذات الجمال الخلاب والقوام الساحر... على المسرح الاجتماعي مع فرعون حين اختارها لتكون سيدة مصر الأولى!... وصعدت «آسية» إلى البلاط..

وراحت تعيش في القصر الإمبراطوري زوجة مدللة لفرعون تحف بها الجواري وترفل بالحرير.. وبيدها قلب أعتى رجل في البلاد وأطغاهم... «فرعون»! الطاغية الأكبر.. والجبار العنيد والذي بلغ به الغرور أن ادّعى الربوبية وفرض على الشعب عبادته، وقد أصدر بذلك مرسوماً نقل لنا القرآن نصه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 23-24].

وقد نفّذت أجهزة سلطته ذلك الأمر بالحديد والنار حتى خضع الناس ودانوا له بالعبودية وراحوا يؤدون إليه طقوس العبادة!.. وراح آلاف الأبرياء ضحايا ذلك الغرور والكفر!.. فلقد كان فرعون يسعى بنفسه إلى تصفية المعارضة جسدياً بواسطة التعذيب الوحشي الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً والذي كان فرعون يشهد بعض حفلاته الدموية بنفسه حتى اشتهر عنه كما في القرآن الكريم ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر: 10].

حيث أنه ـ لعنه الله ـ كان يقوم باعتقال المعارضين ثم

يوتدهم في الأرض بواسطة أوتاد أربعة، يثبتها في أيديهم وأرجلهم وبعدها يبدأ بتمزيق أجسامهم وهم أحياء حتى يمشط اللحم من العظام بواسطة جهاز ذي أسنان حديدية حادة كالسكاكين..

ثم يرجع إلى قصره وكأن شيئاً لم يكن..

ولم تكن هذه كل أعمال فرعون.. وتجبّره فقط!

فكم استحيا من النساء.. وكم هتك من الأعراض..

وحتى الأطفال لم يسلموا من ظلمه وكفره وفساده!..

فكان نصيب الواحد لمجرد أن يلامس الهواء رئتيه حتى تتلاقفه السكاكين التي أعدها فرعون ليذبح بها حياته، وذلك لأنه رأى في منامه رؤيا فسّرها له أهل التنجيم أن هلاكه وسقوط دولته سيتم على يد طفل يولد لبني إسرائيل فما كان منه إلّا أن أصدر أوامره إلى أجهزة الأمن بتعقيب كل طفل ينزل إلى الحياة ليحيلوه في الساعة التي يستهل بها وهو في حضن أمه جثة هامدة، لترجع روحه إلى بارئها تشكو إليه ظلم الإنسان وكفره وجحوده.. وقد طلبوا من كل قابلة ومولدة أن ترفع بياناً إلى السلطة بكل حامل من بني إسرائيل تلد ذكراً لتسارع حينها أجهزة القمع فتذبح الطفل وهو في حجر أمه بلا رأفة ولا شفقة ولا إنسانية!..

وأساليب الطغاة يعجز القلم عن تسطيرها، ويندى جبين التاريخ لذكرها، وتقشعر منها الأبدان لهول بشاعتها لأنهم ـ أي

الطغاة ـ فاقوا بأساليبهم الوحوش الكاسرة في غاباتها . . .

ومن تلك الأساليب التي ينقلها لنا التاريخ عن فرعون هذا أنه كان يأمر بقطع الحديد فتقطع ويصنع له منها شفار حادة «والشفار: السكين العريضة.. العظيمة» فيصف بعضها إلى بعض ثم يؤتى بالحبالى من النساء! .. فيوقفهن على تلك الشفار فتتمزق أقدامهن وتجري منها الدماء.. حتى أن المرأة منهن ـ كما يروي صاحب قصص الأنبياء ـ ليسقط جنينها فيقع بين رجليها فتظل تطأه لتتقي حد الشفار عن رجليها لما بلغ بها من جهد! .. وأما الرجال من أزواجهن فكانوا يقبعون في أقبية السجون والمعتقلات ويستخدمون في أعمال السخرة بلا أجر يرافق كل ذلك الاحتقار والازدراء والتعذيب ! ..

وهذه مشاهد لم نغال في وصفها من عندنا بل صورها القرآن الكريم لنا حين تحدث سبحانه في سورة القصص عن فرعون بقوله الكريم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [القصص: 4].

ومع هذا المفسد «فرعون» كانت تعيش «آسية بنت مزاحم» ..

ترفل في النعيم وتحيط بها الجواري وسط القصور، .. والمنتزهات التي بناها فرعون على شاطئ النيل ووسط ذلك الترف والسرف والبذخ تقضي آسية أيامها ولياليها على طريقة

الملوك والأباطرة!، ولكن تشاء العناية الإلهية أن تنتشل آسية لما كانت تملك من قلب بر رحيم، فتنقذها من الجحيم الذي ينتظر فرعون في دنياه وآخرته وكان ذلك يوم دخل موسى النبي ﷺ إلى القصر يعرض على فرعون الإيمان بالله وترك التجبر والجحود!..

وكان موسى ﷺ نفسه قد تربى حتى شب في قصر فرعون منذ أن ألقاه اليمّ على الشاطئ الذي يحيط بقصر فرعون وكان موضوعاً في صندوق وهو رضيع، فأخذه الحرس الموكلون بحفظ الشواطئ المحيطة بالقصر وجاؤوا به إلى فرعون، وكانت إلى جانبه آسية وهما في شرفة من شرف القصر المطل على النيل.. ولما فتحوا الصندوق ووجدوا فيه ذلك الرضيع أراد فرعون أن يبطش به مخافة أن يكون هو الصبي الموعود.. ولكن آسية التي ألقى الله في قلبها حب موسى ﷺ قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۝٩﴾ [القصص: 9].. فوافق فرعون.. وأخذته آسية عندها.. وظل موسى ﷺ يترعرع في قصر فرعون..

حتى إذا كبر وشب... جاء الأمر إليه من الله ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: 24].

وكيف يؤمن بالله من يقول الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾!..

فازداد فرعون حين عرض موسى ﷺ عليه الإيمان تجبراً.. وتعنتاً وكفراً..

أما آسية فقد تسرب الإيمان إلى قلبها كما يتسرب الماء حين يجد له مسرباً في الأرض، فآمنت بالله وصدقت برسالته.. ولكنها كتمت إسلامها.. ولم يطلع عليه أحد.. إذ كيف يمكنها أن تعلن عن إيمانها وهي تعيش في القصر مع أعتى طاغية وسفاك وكافر..

وهكذا أصبحت سيدة البلاد الأولى من المؤمنين بالله الكافرين بفرعون، المتبرأين من عمله وقومه الظالمين..

مؤمنتان في القصر

ولكن هل كانت (آسية) المرأة الوحيدة التي تؤمن بالله في القصر؟

الجواب: لا!..

فلم تكن آسية هي المرأة الوحيدة التي تعبد الله في قصر فرعون فقد كانت هنالك إلى جانبها امرأة أخرى تؤمن بالله وتكفر بفرعون، ولكنها لم تكن من سيدات القصر والبلاد كآسية!!..

بل كانت من العاملات في القصر.. تلك هي الماشطة!.. أو بتعبير النساء اليوم (الحلّاقة) والتي كانت مهمتها تصفيف الشعر لبنات فرعون وعمل التسريحات لهن وتزيينهن، فكان القصر يضم في أروقته امرأتين مؤمنتين فقط آسية بنت مزاحم.. سيدة البلاد.. والحلاقة.. امرأة من خادمات القصر..

وكانت هذه الحلاقة أيضاً تتكتم على إسلامها وإيمانها بالله

كسيدتها؛ لأنها هي الأخرى تخشى بطش فرعون وجبروته!..

ولكن البطش والإرهاب لم يكن ليمنع الطاهرتين من الاجتماع سوية والالتقاء على صعيد الإيمان في ودّ وصفاء ومحبة وتحت ظلال العقيدة!..

فكانتا تلتقيان كلّما سنحت لهما الفرصة.. ويتناقشان في مسائل الدين بلا أي اهتمام للفارق الطبقي..

فكانت سيدة البلاد وزوجة الملك تزور الحلاقة وتجتمع بها.. وكانت الحلاقة تأنس بزوجة الملك وترتاح إليها.. وليس هذا غريباً في نظر الدين..

فحين تكون العلاقة.. علاقة حب في الله.. وأخوة في الدين.. فإن فوارق الدنيا حينذاك تذيبها حرارة الإيمان.. ويبقى جوهر الإنسان النقي...

وهذه بعض نعم الإيمان!..

ولكن برغم ذلك التكتم الشديد.. وتلك التقية الصارمة.. فقد شاءت الصدف في يوم من الأيام أن تسقط (المشطة) من يد الحلاقة وهي في إحدى صالونات القصر الفرعوني تجلس مع إحدى بنات فرعون تصفف لها شعرها.. فتناولت الحلاقة «المشطة» ورفعتها من الأرض قائلة:

بسم الله..

انتبهت الفتاة إلى قولها فاستفهمت:

أبي؟!..

لم تستطع الحلاقة في هذه المرة السيطرة على أعصابها وهي ترى أمامها بشراً وهبه الله العقل ليميز بين الحق والباطل.. فإذا بالإنسان يعطل عقله فلا يفرق بين الخالق والعبد.. ولا بين الحق وبين الزيف والباطل!..

فانفجرت الحلاقة بوجه بنت فرعون:

لا.. بل ربي وربك ورب أبيك!..

يا سبحان الله إن هذه المرأة الشجاعة التي لا تخشى في الله لومة لائم، ولا تخشى حتى من الموت الذي ينتظرها على يد زعيم الطغاة (فرعون)، وإنها متأكدة في نهاية المطاف أنها ستواجه الطاغوت الأرعن الذي يدعي الألوهية... هكذا هي المرأة إذا دخل في قلبها الإيمان بالله. فما أعظمها من امرأة وكم يفتقر مجتمعنا هذه الأيام لأمثال هذه الشخصيات العظيمة وما أحوجنا إليهم.

لم تتمالك الفتاة صبرها وقد رأت امرأة بسيطة ـ من رعاع الناس ـ من عبيد أبيها فرعون وهي تكفر جهرة بربوبيته، فخرجت مسرعة من عندها لتدخل على أبيها وتخبره بما جرى.. وبأقل من لمح البصر.. انقضت مجموعة من وحوش القصر الكاسرة على تلك المرأة الضعيفة واقتادتها أسيرة مكبلة بالحديد، وأوقفتها بين يدي فرعون!..

ثم انطلقت تلك المجموعة نفسها مسرعة كالريح لتلقي القبض على أولاد الحلاقة بلا مقدمات ودون أن يعلموا بالسبب

وجاؤوا بهم مقيدين تبدو عليهم آثار الضرب وأُحضر الجميع عند فرعون..

ما أشبه طغاة اليوم بالبارحة، ففي عالمنا اليوم أمثال فرعون من الطغاة الذين لا يحصى عددهم، وحتى على مر الزمان فإنهم كُثُر..

وبلا مقدمات..

انطلقت من فرعون نظرات نارية نحو الحلاقة وأولادها ثم صرخ بعدها بوجه الحلاقة بصوت خلا من كل نبرة رحمة:

ـ من ربك؟

فرفعت الحلاقة رأسها إليه ونظرت إليه بنظرات فيها الاستصغار له ولشأنه ولم تأخذها أية شائبة من خوف! بل بإيمانها الكبير ردت عليه:

ـ إن ربي وربك الله !! ..

وينطلق الغضب من عيني فرعون كما ينطلق البركان حين سمعها تجابهه بقولها: «وربك الله» فقد جعلت منه عبداً مثلها لله.. وليس رباً كما يزعم ! ..

إنه حقاً يصعب حتى على أقوى رجل أن يقف هذا الموقف الذي وقفته هذه البطلة التي قلّما وندر أن يكون لها نظير، بل لا تعد أمثالها على عدد الأصابع في عصرنا هذا....

فراح يصرخ كالمجنون بزبانيته آمراً إياهم أن يوقدوا المصهر النحاسي، وتلك هي جهنمه التي أعدها للكافرين به...

وأشعلت النار في المصهر.. حتى اتّقد وكأنه جمرة حمراء، وعندما تقدم فرعون وأمر بإلقاء الحلاقة وأولادها فيه، ولكنه أمر بأولادها أولاً ليستجيش بذلك عاطفتها، ولعلها تستجيب له وليبقى هو محافظاً على كبريائه وجبروته بعد أن حطّمتها هذه المرأة بصلابتها..

اللحظات الأخيرة:

ونظرت الحلاقة إلى فلذات أكبادها المكبلين بالحديد والزبانية تقتادهم لتنفذ فيهم حكم الإعدام.. وراحت الأم تلقي نظراتها الأخيرة.. وفي ساعة الوداع الأخيرة.. التفتت إلى فرعون وقالت:

ـ ولكن لي إليك حاجة!..

فانفرجت أسارير الطاغية.. وأطلق ضحكة مدوية وقد غلب على ظنه أنها ستطلب منه المغفرة لها ولأولادها حين رأت النار وهي تتقد.. فقال بكبرياء مصطنعة:

ـ سلي!

قالت.. والدموع تترقرق في عينيها:

ـ حاجتي أن تجمع عظامي وعظام أولادي فتدفنها معاً!!!..

هكذا هي العقيدة الراسخة، إنها عقيدة لا تتزحزح، فلو كان غيرها ـ حتى الرجال ـ لطلبت العفو من فرعون، إلّا أنها أبت أن تفعل ذلك، وهكذا هو الحب في الله... فلا يرسخ

الإيمان في قلب أَحَدٍ، إلّا إذا أحب الله أكثر من نفسه وأولاده وماله، وهكذا هو الحب الحقيقي..

وتنقلب الفرحة من وجه فرعون إلى حزن كئيب.. ويغور كبرياؤه ليعقبه ذل مهين بدا عليه.. ويذوب جبروته حتى بدا يشعر بحقارته.. فلقد عرفت تلك البطلة كيف تشعره بتفاهته أمامها حين اختارت هي وأولادها الموت مع الإيمان على الحياة مع الكفر.. ولكن فرعون حاول جاهداً أن يخفي انهياره فتظاهر أمامها وأمام الجلادين باللامبالاة وقال:

ـ ذلك لك.. لما لك من حق!..

وعندها رفع إصبعه مشيراً على الجلادين بتنفيذ الإعدام، وبلا رأفة..

وأمام تلك الأم.. المرأة!..

راح الزبانية الجلادين يلقون بأولادها واحداً بعد الآخر في ذلك المصهر النحاسي الذي اتقد ناراً، وهي تنظر إليهم مدهوشة.. وكان آخر من ألقوه منهم في النار طفلها الرضيع الذي انتزعوه من يديها.. فلم يرقوا لبراءته ولم يرحموا أمومتها!!.. وكادت أن تسقط من هول الفاجعة حين شاهدتهم يهمون بإلقائه في النار.. وإذا بالرضيع ينطق بقدرة الله حين هموا بإلقائه في النار:

ـ اصبري يا أماه إنك على الحق[1].

---

(1) قصص الأنبياء، الجزائري، ص: 260.

واستقبلت الأم (المرأة) تلك البشارة من فم رضيعها بدموع تساقطت كحبات اللؤلؤ على ذلك الوجه الذي كان يطفح بالرضا منتظراً ساعة اللقاء مع الحبيب (الله)..

وتقدم إليها الجلادون ..

فتقدمت هي إلى النار.. هرباً من كفرهم .. حتى جعلتهم وفرعونهم يتصاغرون خجلاً منها ومن ثباتها.. تقدمت بخطوات ثابتة.. وهي تتمتم بكلمات مع حبيبها الله.. والبشر يطفح على وجهها..

وكيف لا تفرح بذلك.. وها هي في طريقها إليه..

إلى الله.. مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. وحَسُنَ أولئك رفيقاً!

ثم ألقى بها الجلادون في مصهر النار..

لتجد الملائكة تقف في موكب سماوي جليل وهم ينتظرون قدومها الميمون عليهم... وقد اشتاقوا إلى رؤية تلك السيدة التي أمرهم الله أن يكونوا في استقبالها..

وراح الموكب الملائكي يعرج بروحها إلى السماء..[1] في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

وعندما انتهى فرعون من تنفيذ جريمته النكراء تلك.. رجع إلى القصر ليستريح فيه من مشاكل الكفار بربوبيته المزعومة!..

(1) قصص الأنبياء، الجزائري، ص: 260.

ولكنه ما إن دخل حتى وجد في القصر مصيبة كبرى.. فلقد وصل خبر إعدام الحلاقة وأولادها إلى سيدة القصر والبلاد «آسية» زوجة فرعون.. ولم تستطع آسية وقد فقدت رفيقها في الجهاد.. والتي كانت تجد عند لقائها بها السلوان والحب والكلمة الحلوة..

وها هي اليوم فارقتها لتتركها وحيدة في قصر مليء بالبهائم والوحوش من البشر والذي شهدت فيه أبشع الجرائم ترتكبها تلك الحفنة بحق الأبرياء.. فلم تستطع السكوت على مثل ذلك العمل الوحشي والجريمة النكراء..

وإن كان إعدام الماشطة في الواقع قد زاد من إخلاص آسية لله أكثر من ذي قبل بعد أن رأت بأم عينيها ـ كما ورد ذلك في الخبر ـ الملائكة وهم يعرجون بروح رفيقتها إلى السماء..

وما إن دخل فرعون عليها تبدو عليه علائم الزهو الكاذب بما صنع وقبل أن يفتح فمه ليخبرها، صرخت آسية في وجهه الكالح:

ـ الويل لك يا فرعون.. ما أجرأك على الله!..

وإذا بهذه الكلمات الحارقة تقع على مسامع فرعون كوقع الجبل، وانقلبت فرحته إلى كآبة.. ولم يدر: أيصدق أذنيه بما سمع.. أهو في حلم؟!..

قلَّما نجدُ حتى في رؤوساء العالم من الرجال من يدافعون عن المستضعفين كما دافعت وضَحَّت آسية. لماذا؟ لأنهم

يخشون من أن يفقدوا كرسي عرشهم، ولدينا هنا وهناك أمثلة غير قليلة عن أولئك الزعماء فإنهم يخشون من الدول الكبرى وينفذون كل ما يأمرون به ، وما يفرضون عليهم تلكم الدول. . . ولكن مم يخشون. . .؟ من عرشهم الذي لا يضاهي عرش (آسية) ـ هذه البطلة ـ حيث إنها لم تفكر لا في أموالها ولا في قصورها، ولم تخش من تعذيب جلاوزة (فرعون)، ونقول بحق: أبت أن تخضع له وتخلّت عن عرشها وحليها ومجوهراتها وقصورها، وما بدلتها بالجنة الموعودة، حيث دعت ربها وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11]. إنها دافعت عن (حلاقة بلاطها)، لأنها كانت مؤمنة بالله. . . . وضَحَّت بما لديها للدفاع عن رفيقتها المؤمنة في الجهاد، والتي كانت تجد وتشعر بالسلوان والحب عند لقائها بها.

هكذا هو حال المؤمنين والمؤمنات «فآسية» لم ترضَ عن فعل فرعون تجاه الماشطة المؤمنة، وهذا يدل على أن الحلاقة كانت أختها في الله، والأخوة في الله. . . تنعدم فيها الطبقية بين الحرة والأمة وبين الرئيس والمرؤوس. فأرادت أن تدافع عن أختها في الله فقالت لزوجها فرعون عندما أخبرها عن أمر الماشطة: الويل ما أجرأك على الله !. .

ولقد حار فرعون كيف يحصل هذا؟ فزوجته ـ هي الأخرى ـ تكفر بعبادته وتعترف بالله. . ولم يصدق ما سمع منها فقال مندهشاً:

ـ لعلك اعتراك الجنون الذي اعترى صاحبتك!؟. .

فردت عليه آسية بثبات الصادقين:

ـ ما اعتراني جنون..

بل آمنت بالله.. ربي وربك ورب العالمين!

ولقد هزَّت كلمات آسية هذه (ربي.. وربك) فرعون هزاً عنيفاً جعلته يضطرب من الغضب، فهي نفس الكلمات التي سمعها من الحلاقة قبل إعدامها بلحظات عند استجوابها..

وها هي امرأة ثانية تذكره بأنه:

عبد من عبيد الله..

ولكن هذه المرأة الثانية هي زوجته وحبيبته!...

فماذا يفعل؟...

أيبطش بها كما بطش بتلك المرأة؟!..

وتخونه شجاعته فراح يمنِّي نفسه بالتريُّث في الأمر، واستدعى في الحال إلى قصره حماته ـ والدة آسية ـ وطلب منها التوسُّط في الأمر.. وأن تشرح لابنتها ـ وهنا أقسم بعزته ـ مصيرها المروع إذا هي أصرَّت على كفرها به فقال:

ـ أخبري ابنتك أني قد أقسمت بعزتي لتذوقن الموت أو لتكفرن بإله موسى!!..

وكانت أم آسية ممن تعيش للدنيا ولا تهمها الآخرة بحال فدخلت على ابنتها وحاولت جاهدة بكل ما لديها من وسائل لتقنع ابنتها بالإيمان بفرعون وأن تترك الأفكار التي يدعو إليها النبي، حفاظاً على حياتها وعرشها.. وجاهدت الأم في ذلك:

مرة تذكرها بالنعيم الذي ترفل به مع العرش والقصر.. وأخرى تحذرها من بطش فرعون وإرهابه وانتقامه وهي الضعيفة أمامه!.. وثالثة تتوسل إليها بالدموع وحق الأمومة عليها، ولكن مساعيها باءت بالفشل.

فلم تجد عند ابنتها «الإمبراطورة» غير الإصرار على إيمانها بالله.. وكفرها بفرعون التافه!..

وفي آخر محاولة حين طلبت الأم من ابنتها أن توافق فرعون فيما يريد.. أعلنت آسية بإصرار:

ـ أما أن أكفر بالله.. فلا!

وخرجت الأم وهي تجر أذيال الخيبة.

عجيب أمر هذه المرأة (آسية)، فأي امرأة في الدنيا، ليست مستعدة من أن تتنازل عن هذه النعمة التي كانت عليها (آسية).. أي امرأة تملك هذه النعمة، تنسى الآخرة وتتكبر وتتجبر..، فالمال والملك والجاه هي في أكثر الأحيان جرثومة، جرثومة الطمع الذي تُذْهِبُ الإيمان....

وبلغ الخبر مسامع فرعون: (أما أن أكفر بالله فلا).. وبدأت الأرض تتزلزل تحت قدميه، فها هي رياح الثورة بدأت تهب على فرعون من القصر نفسه، والذي أعده ليكون عرشه على الأرض...

ولم يجد من حل أمامه إلّا كتمان هذا الصوت الجديد الذي بدأ يجاهر بالإيمان. وعندما رأى فرعون تمسكها بدينها وإيمانها

خرج على الملأ من قومه، فقال لهم: ماذا تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ . . . فأثنى عليها القوم . . . فقال: إنها تعبد رباً غيري . . . فقالوا: اقتلها، وهنا أود أن أقول لكل امرأة فاضلة: هل سمعت قول بطانة السوء . . . لقد قالوا لفرعون: اقتلها، وقبل لحظات كانوا قد أثنوا عليها بخير . . . سبحان الله من هذه البطانات الممتدة على مر العصور . . !!، وماذا حدث بعد ذلك؟ . . .

وأومأ فرعون إلى الجلادين من الجلاوزة لينقضوا على آسية (المرأة) كالوحوش المتعطشة إلى الدماء . . . ونقلت إلى خارج القصر . . . حيث أمرهم أن يطرحوها أرضاً، ثم جيء بالأوتاد فأمر بتثبيتها في يديها ورجليها . . . وهي صابرة . . .

وتركت على تلك الحالة . . . تحت وهج الشمس اللاهب وقد وضع فوق صدرها صخرة كبيرة . . . وفي سبيل الله تحملت آسية العذاب . . . من أجل ذلك الحبيب (الله) . . . الأوتاد . . . تسمر يديها ورجليها في الأرض . . .

وعلى صدرها الرقيق الناعم الذي كانت تحليه المجوهرات والألماس التي لا تثمن . . . ترقد فوقه اليوم صخرة كبيرة تضيق عليها أنفاسها.

وظهرها الذي ما رقد إلا على الحرير . . . تحرقه الرمال اللاهبة . . . ووجهها الأبيض الذي يشبه القمر . . . بدأت الشمس ولهيبها المتوهج تحيله إلى قطعة سمراء متقشرة !! . . .

هكذا أوتدوا لـ«آسية» أوتاداً وشدوا يديها ورجليها ووضعوها

في الحر اللاهب... تحت أشعة الشمس المحرقة ووضعوا على ظهرها صخرة كبيرة، لقد كانت متنعمة بالفرش الوثير وشتى أنواع الطعام... والمقام الكريم، والآن تُضرب بالأوتاد تحت أشعة الشمس...

ويقال: إن فرعون قال لزبانيته: انظروا أعظم صخرة فألقوها عليها. فإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، ولكن لم يُفد ذلك، وأخذ فرعون يتلذذ بتعذيبها... وهذا شأن الطغاة في كل زمان.

ومع كل هذا... الجوع والعطش..

وهي الملكة المدللة... والغريب هنا أنها لم تنتحر ولم تتجرع السم للخلاص من (فرعون) وتعذيب جلاوزة الطاغية، بل إنها أرادت أن تذوق عذاباً من أجل حبها في الله... نعم صدق الشاعر الذي قال:

سرى طيف من أهوى فأرَّقني   والحب يعترض اللذات بالألم

وقد رقت الملائكة لحالها فكانوا يأتون إليها ـ كما ورد في الخبر ـ ليظللوها بأجنحتهم حين يذهب فرعون وجلادوه عنها، وهي تنظر إليهم مبتسمة ...

فما كان حبيبها لينساها... وهي على تلك الحالة الشاقة تذكر... ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: 152].

وظل الأمر على ذلك.. حتى خارت قواها ...

وإذ وصل الأمر بها مرحلة لم تطق معها العذاب ...

هنالك رفعت رأسها لحبيبها تشكو إليه بقلب أضناه الشوق إليه:

- رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة!! . . .

وهنا الأدب الكبير! . . .

فآسية (المرأة) . . لم تَشكُ إليه ما بها من الآلام والعذاب بل اشتكت إليه بأسلوب أظهرت رغبتها في جواره ليخلصها مما هي به . . .

فكانت بالإضافة إلى بطولتها الفذة . . . وصبرها العظيم مثالاً في أدبها ودعائها . . .

وقبل أن تتم دعاءها الذي صدر عن قلب صادق أوحى الله إليها أن:

- ارفعي رأسك ؟! . . .

فرفعت رأسها وكشف الله عن بصيرتها فأطلعها على مكانها في الجنة، وإذا بها ترى البيت الذي طلبته من الله قد بني لها في الجنة من (در) !! . . . هنالك علت على شفتيها ضحكة . . . امتزجت بفرحتها الكبرى بجوارها عند الله . . . وأسلمت روحها قائلة:

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: 11].

وراحت تصعد إلى السماء في موكب ملائكي . . . تزفّها الحور وتحف بها الملائكة وكلهم يهللون ويسبحون ويكبرون

إلى حيث الجنان... في مقعد صدق عند مليك مقتدر...

هذه هي ـ قارئتي الكريمة ـ (آسية بنت مزاحم)!... هذه هي المرأة التي ضرب بها الله ﷻ المثل للذين آمنوا...

هذه هي قصتها باختصار...

قصة المرأة التي عرفت حقيقة ثمن الجنة؟! ...

فأعرضت عن فرعون... حين أحبت الله...

ورغبت عن الدنيا... حين اختارت الآخرة...

ونسيت القصور على شاطئ النيل... حين تذكرت القصور على شواطئ الجنة.

فباعت الثراء... وباعت الجاه ...

وباعت الملك... وباعت الزوج !! ...

وباعت القصور...

ثم باعت الحياة ... وهي أغلى شيء في الحياة ...

وكل هذا حبّاً لله ... وإيماناً به ...

من أجل هذا كله كانت آسية (مثلاً) ذكره الله تعالى في كتابه المجيد (للذين آمنوا) بربهم وقرآنهم وشريعتهم! ...

وآسية التي عشنا معها الآن ـ قارئتي الكريمة ـ ...

امرأة مثلك...

مثلك في الأنوثة...

ومثلك في العواطف... ومثلك في الصفات...

ومثلك في كل شيء...

إلّا أنها عرفت كيف تتميَّز عنك....

حين استطاعت أن تحقق لنفسها انتصاراً كبيراً لم تحققه امرأة غيرها على مستوى القرآن وعلى مستوى التاريخ، وعلى مستوى الشهادة...

فآسية اليوم ...

آي من القرآن يردده المؤمنون والمؤمنات في شتى بقاع العالم...

ما أحلى وقفات «آسية» إنها وقفة إيمانية، نجد فيها مدى إشراقة نور الإيمان في قلب هذه المؤمنة. إنها بحق امرأة وحيدة ... آمنة مطمئنة في بلاطها تتحدى واقعاً جاهلياً يرأسه زوجها ... لقد كانت نظرة «آسية» نظرة متعدية... تعدّت القصر... تعدّت الحلي والمجوهرات، وتعدّت الفرش الوثيرة... تعدّت الحياة الرغيدة، كما تعدّت الجواري...، لذلك كانت تستحق أن يذكرها رب العالمين في كتابه العظيم ويضعها جل وعلا مثالاً، وذلك عندما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: 11] إنها استحقت أن يضعها الرسول ﷺ مع النساء اللاتي بلغن درجة النضج والكمال، وذلك عندما قال: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل**

من النساء إلّا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإنَّ فَضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

آسية المؤمنة هي السراج الثاني الذي أضيء في ظلمات قصر فرعون... والآن من يضيء لنا سراجاً يَشع منه نوراً حمل معه الصبر... الثبات... والدعوة إلى الله.

نعم حقاً، كما قال نبينا ﷺ: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**[2].

وآسية اليوم...

واحدة من أفضل أربع نساء في الجنة... كما ورد ذلك عن نبينا محمد ﷺ: **« أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم»**[3].

وأي انتصار هذا...

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3411)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6222)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1834)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 3957)، وأخرجه ابن ماجه في (الحيدث: 3280).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 6507)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6761)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1066)، وأخرجه النسائي في (الحديث: 1835).

(3) أخرجه أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 84) والطبراني والحاكم في «المستدرك» (الحديث: 2/ 497)، وصححه عن ابن عباس... كما في الدر المنثور للسيوطي، مجلد: 6، ص: 46.

حين يضرب الله بها . . . مثلاً . . .

ويشهد النبي ﷺ لها بالكمال والفضل . . .

فعنه ﷺ: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربع: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»**(1).

وكما تحدث الله ﷻ عن آسية . . .

فقد تحدث النبي الكريم ﷺ عنها كثيراً. . . وأثنى عليها كثيراً. . .

وشهد لها بالكمال. . . وبالفضيلة. . .

ولئن كنا نعرف سر هذا الحديث المسهب عن آسية من قبل نبينا الكريم ﷺ باعتبارها المثل الذي ذكره الله له في القرآن. . .

فإننا يجب أن لا ننسى أن هناك سراً آخر وراء هذا الاهتمام بـ«آسية» من قبل نبينا محمد ﷺ. . .

وقبل أن أذكر هذا السر. . .

أستسمح النبي ﷺ عذراً في ذكره فما كنت لأذيع سراً من أسرار حياته الشخصية الشريفة لولا أنه ﷺ قد تحدث عنه وأذاعه. . . إذ جاءت الرواية عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ دخل على خديجة وهي تجود بنفسها فقال لها:

ـ **«أكره ما نزل بك يا خديجة، وقد جعل الله في الكره**

(1) مجمع البيان، الطبرسي، مجلد: 5، ص: 320.

خيراً كثيراً . . . فإذا قدمت على ضرائرك فاقرئيهن مني السلام!»

ـ وتساءلت خديجة ومن حقها أن تتساءل هنا:

ـ يا رسول الله ومن هن ؟! . . .

ـ فقال ﷺ: «مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم، . . . وكليمة أخت موسى! . . .»

ـ فردت عليه خديجة سلام الله عليها بابتسامة صادقة قائلة:

ـ بالرفاء والبنين . . . يا رسول الله !! . . .

وأخيراً . . .

وبعد هذا كله . . .

نقول: إن القرآن هنا قبل كل الكتب التي تحدثت عن المرأة قد جعل منها ـ أي من المرأة ـ قدوة للأجيال . . . وضرب ببطولتها وإيمانها وأدبها المثل . . . وما ذاك إلّا لأن المرأة قد عاشت لله . . .

صائنة لنفسها . . . حافظة لدينها . . . مخالفة لهواها . . . مطيعة لأمر مولاها . . .

وليس أمامك ـ قارئتي الكريمة ـ اليوم لكي تلتحقي بركب آسية . . . إلّا أن تؤمني بالله وتعملي له وقبل العمل بما يحبه الله ويرضاه . . . ارفعي يديك إليه جلّت قدرته بالدعاء واسأليه أن يجعلك . . . من المتأسيات بـ (آسية) . . . التاسيات لـ (الدنيا) . . . المقبلات على (الجنة) . . . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ

أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: 21-24].

وعلى كل عاقل أن يجعل من قصة «آسية» درساً له، إذ آمنت بنبي الله، وتحدّت إغراءات السلطة وضغوط الطاغية ـ زوجها ـ في سبيل الله، رغم تضافر العوامل المادية التي يعتبرها البعض من الحتميات، حيث كان فرعون زوجها، وكانت في الوقت ذاته من رعاياه. كانت تنتمي إلى نبي الله إسرائيل الطبقة المستضعفة والمعدمة بينما كان فرعون قائد المستكبرين والمترفين، وكانت مصالحها المادية مؤمنة عند فرعون فما الذي جعلها تتحداه وتواجه جبروته وسلطانه؟ الإيمان، إنه الإيمان الذي جعلها تتحدى كل الظروف لتكون مثلاً رفيعاً يقتدي به المؤمنون عبر التاريخ، وجبلاً لا تتأثر بإغراء ولا بإرهاب أو تضليل. ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11]، وهنا إشارتان لطيفتان نستوحيهما من الآية:

الأولى: إن أعظم سبب للانحراف كانت تواجهه «آسية» هو غرور السلطان والملك، فلقد كانت زوجة لأعظم الملوك الذين عرفهم تاريخ البشرية، إلّا أنها انتصرت على قمة تحدي الدنيا للإنسان بالرغبة في نعيم الآخرة الذي يتصاغر أمامه كل نعيم، ولقد جاء في الأخبار أنها رأت قصورها في الجنة وهي موتدة تصب عليها أنواع التعذيب.

الثانية: إن هذه المرأة الشريفة لم يحالفها الحظ في الزوج الذي يرغب إليه أمثالها من المؤمنات فطلبت من الله أن تصير

إلى نعم بيت الزوجية، وكان طلبها ﴿بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11]، بمثابة طلب من فيه، وماذا يطيب من البيت للمرأة من دون زوج كريم؟ وإذا كان دعاؤها بهذا المعنى فلماذا لم يصرح به في القرآن الكريم؟ لعل ذلك لأن الآداب الاجتماعية عند العرب (وربما عند غيرهم أيضاً) ما كانت تستسيغ للمرأة العفيفة أن تطلب زوجاً.

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: 11].

فكانت ترفض البقاء في ظله، ويهدينا قوله سبحانه: ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ إلى فكرة هامة هي أن الإنسان المؤمن قد ينجو بالهجرة أو بسقوط النظام الفاسد من أذى الظالمين المباشر، لكنه قد لا ينجو من أعمالهم، فإذا به يصبح ظالماً مثلهم ويعمل الفواحش ويقع في الفساد، لذلك ينبغي الدعاء للنجاة من الظلمة ومن الظلم[1].

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: 11].

وأخيراً بارك الله في كاتب القصة[2] حيث أنه أبدع في عرضها، وإن كنت أنا بين حين وآخر أعلق تعليقاً متواضعاً في هذه القصة المثيرة.

لقد أصاب الكاتب والرحالة الفرنسي (جيراردي نرفال) عندما قال: إن الإسلام قد وضع المرأة في موضع كريم،

(1) من كتاب تفسير من هدي القرآن، الجزء السادس عشر.

(2) الشيخ نجاة النجار، كلمات مضيئة مهداة للمرأة، 1978، بتصرف.

وضرب القرآن الأمثلة للناس بالنساء الصالحات مثل: آسية امرأة فرعون ومريم أم المسيح، في حين استبعد التلمود اليهودي النساء من الطقوس الدينية، وحرَّم عليهن دخول المعبد، فإن الإسلام قد أباحَ لَهُنَّ الصلاة في المساجد[1]، وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، وكرَّرَ الوصية بإكرام الأم (ثلاثاً) قبل الأب، وكرَّرَ الوصية بالنساء وإكرامهنَّ في مواطن عديدة وجعل المرأة الصالحة من أفضل الكنوز ففضلها على كل ما يكنزه الناس من مال وجاه وولد. . . وإلى آخره مما يملكها الإنسان في الدنيا، إذن هل يجوز القول بعد كل هذا بأن المرأة في الإسلام كائنة محتقرة؟! كما صرح بذلك العالم الاجتماعي التركي (ضياعوك ألب) (ت 1924م).

(1) رحلة إلى الشرق، (3/ 29).

الزوج ... هل يشاور زوجته ؟...

اعلم أيها الرجل أن المرأة العاقلة الناضجة تكملك وأنت تكملها، فهي إذن نصفك، ما تنجح في عمل إلّا أن تستشيرها، وهذه المشورة شاملة وتضم كل أمور حياتك في الشراء، والبيع، والتجارة، وتربية الأطفال، وتعليمهم وإلى آخره من الأمور.

اعلم أن الحياة بدون مشورة ناقصة جوفاء، والتعنت في الحياة برأي واحد إنما هي حياة وحيدة موحشة يوقعك في أخطاء جسيمة ربما لا تحمد عُقْباها...

فالمرأة العاقلة الناضجة إنما هي (طاقة) وليست (كتلة)، وفرقهما شاسع، وهو كالفرق بين قطعة من الخشب وتيار الكهرباء، ففي الأولى جمود، وفي الثاني حيوية، لذا من الغريب أن أكثر رجالنا لا يشاورون المرأة في أمورهم، لا لسبب ما، بل مجرد لكونها امرأة وهو سبب غير مرضٍ أو حجة واهية....

وقد أخطأ كثير من الرجال بعد أن استندوا إلى أحاديث موضوعة في هذا المجال ومنها: (شاوروهنّ فخالفوهن) فهذا الحديث وغيره لا صلة له بأحاديث المصطفى ﷺ وإنها مجرد روايات من هنا وهناك لا تمّت بصلة لديننا الحنيف.

وعلى الرجال أن يعلموا جيداً بأن الثقافة تربي الإرادة

وتخلق الشخصية الفعالة التي تقول الكلمة الصحيحة حسب الاستنتاج الواعي من الموقف. . . وليعلم الزوج أنه لا وجود للتفكير البشري خارج الجماعة.

ولعل قصة أم سلمة زوجة رسول الله ﷺ وأم المؤمنين خير دليل على أن مشاورة الرجل لامرأته ذات أهمية كبيرة، وبالأحرى: إذا كانت المرأة ناضجة واعية، فقد كانت أم سلمة معروفة بالرؤيا السياسية الصائبة، ولقد روى لنا التاريخ بعضاً من ذلك، فلقد أشارت على النبي ﷺ يوم الحديبية، وذلك أن النبي ﷺ لما صالح أهل مكة، وكتب كتاب الصلح بينه وبينهم وفرغ من قضية الكتاب الذي ينص على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا انحروا ثم احلقوا**»، فلم يقم منهم رجل، بعد أن كرر ذلك عليهم ثلاث مرات.

فقام رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس فقالت له أم سلمة ﵂: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ تخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك. فقام رسول الله ﷺ فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة، فنحر بدنته ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً.

هكذا كان موقف المرأة في الأزمات السياسية وبصيرتها في الأوقات الحرجة، وإن دلّ ذلك الموقف على شيء، فإنما يدل

على خبرة وحنكة هذه المرأة بالأمور . . . إذن فقد كان للمرأة في صدر الإسلام دور في الأزمات، والسياسة والتجارة وإسهام بالنصيحة والمشورة . . . هكذا كانت المرأة تلعب دورها السياسي البارز وتشارك الرجل في الأحداث وتؤثر فيها بعقلها ونضجها ووعيها . . . .

هل من الإسلام ما يفعله الناس بالمرأة من تحقير أو انتقاص في حقوقها في أمور كثيرة؟ مَن مِنَ الناس يتناقل بعض الأفكار ويؤكد على أن المرأة ضعيفة العقل في كل المجالات؟ وأين كان ضعف عقل أم سلمة ﷺ يوم الحديبية في القصة الآنفة الذكر؟! وماذا عن أم عمارة الأنصارية ﷺ حينما ثبتت تدافع عن رسول الله ﷺ يوم أُحد بينما فرَّ رجال ورجال[1]؟! وماذا عن أُم سليم بنت ملحان في عقلها وفي حكمتها عندما خطبها أبو طلحة، ثم حين ثبتت في حُنين عندما فر رجال ورجال[2]؟ وماذا عن عقل خديجة أم المؤمنين ﷺ في مواطنها كلها[3]؟ ماذا عنهن جميعاً وعن مئات غيرهن شهدت لهن الوقائع بالعقل والحكمة. هكذا يحترم الإسلام المرأة ويصون حقوقها، ويستمع إلى آرائها ويشاورها، لا سيما إلى المرأة الناضجة الواعية.

هل النساء بحاجة للتعلم ؟

من غرس في أذهاننا أن المرأة لا تحتاج للعلم؟ أليس طلب

(1) أسد الغابة (7/ 371).

(2) أسد الغابة (7/ 345)، والسنة النبوية الصحيحة، ص: 503.

(3) أسد الغابة (7/ 78 ـ 85).

العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟

كثير من الجهلاء يظنون أن العلم فرض على الرجل، والمرأة لا تحتاج إليه، لقد خاب ظن أولئك الجهلة، وإنهم لا يخدمون بهذه الأقوال إلّا الرجعية والاستعمار، فهذا من سمات الاستعمار، إذ لا يريد الاستعمار أن ينتشر العلم والثقافة في دولنا لكي يستمروا في سيطرتهم الاقتصادية والعسكرية على دولنا، وليس مثل هذه الأقوال نابعة من ديننا، فديننا فرض العلم على كل رجل وامرأة.

وإن نبينا محمد ﷺ فضَّل الجلوس في مجلس العلم على الجلوس في مجلس الذكر.

فقد أخرج ابن عبد البّر في جامع العلم (1/50) عن عبد الله ابن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ مرَّ بمجلسين في مسجده: أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلِّمونه، فقال رسول الله ﷺ : **«كلا المجلسين على خير، واحدهما أفضل من الآخر صاحبه، أما هؤلاء فيدعون لله ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلِّمون الجاهل، وإنما بُعثْتُ معلِّماً»**. (ثم أقبل فجلس معهم) - أي جلس في مجلس العلم - وأخرجه الدارمي ونحوه.

هكذا كان الرسول ﷺ يحثّ على العلم والتعليم ، فأعداء الدين كالحشرة في باطن الثمرة فتجوفها، إنهم يريدون أن يفرغوا الإسلام من محتواه الاعتقادي والعلمي والخلقي، حتى

يمسي قشرة فارغة محكوماً عليها بالفناء: وهكذا بالإسلام يكيدون، فإن لهم خططاً خبيثة: يغسلون أدمغة أجيالها الناشئة، فيفرغون قلوبهم ونفوسهم من محتوياتها، ذات الجذور المتأصلة من الخلق والوجدان والعقل وينتزعون كل آثارها. ومن وسائلهم الماكرة في هذا المجال هو الفصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا، في الوقت الذي نرى أن كل العلوم من الفيزياء والكيمياء والطب وغيرها هي من عند الله، أليس علم الفيزياء موجوداً في الطبيعة أصلاً؟ أم خلقه العلماء؟ كلا... فإن هذا العلم موجود والعلماء يفتشون عنه، وكذلك علوم الكيمياء، فالعناصر الكيمياوية ومركباتها بكاملها موجودة في الكون، وعلماء الكيمياء يفتشون ويبحثون عنها، ومعظم الأدوية موجودة في النباتات ويستخلصها العلماء والصيادلة فيستخدمونه كدواء للأمراض. وكذا علوم الدين كلها من عند الله، إذن من الذي أوهمنا أن علوم الطبيعة هي خارج الدين، إن ذلك من وسائل أعداء الدين وهي خطة رامية لتحقيق غاية التفريغ الذي ذكرته آنفاً، وأن تلك المحاولات تهدف إلى إبعاد وعزل الأجيال الناشئة في المجتمعات الإسلامية عن كل وعي ديني وعلمي سليم، ومقاصدهم في ذلك هو أن لا يتعرفوا على الإسلام وتعاليمه بصورتها الصحيحة المشرقة. وقد أدت هذه الظاهرة إلى عزل طلاب علوم الدين عن الدراسات التي تتعلق بعلوم الطبيعة عزلاً تاماً، فهذه العملية إنما أذابت الأخوة العريقة بين الفريقين.

ولا يخفى على أحد منا أن العلم مهما كان أسلوبه وطريقته إنما هو بحث عن الحقيقة ولا عداء بين الحقائق، وبين الحقائق وئام تام، أما العداء ـ لا ريب فيه ـ وأنه موجود بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب.

وهذا التصرف الخبيث والذي يروم الفصل بين الدراستين في معظم بلادنا الإسلامية جعلنا بعيدين كل البعد عن كل مجال علمي حيوي إلّا مجال المساجد وما يكون فيها من عبادات، أو بعض الوظائف ذات الاختصاص الديني. وما فعلوا ذلك إلا لكي تجد الأمة نفسها مضطرة لاقتباس حياتها وبكافة مجالاتها من العلوم من تلكم الأنظمة المستوردة من بلاد لا صلة لها بالدين، ولا تعترف بشريعة الله، وبذلك يكون قد تحقق هدف الغزاة من غزو أفكارنا وغزو سلوكنا والسيطرة على ثرواتنا... ولنعدْ إلى حق الأنثى في العلم، فالرسول ﷺ يقول في هذا الشأن: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»[1] فقد اتفق العلماء أن كل ما يطلب من الرجل تعلمه يطلب من المرأة كذلك[2].

هل نسينا أن أمهات المؤمنين كن مبلغات عن رسول الله، ومبلغات للرجال، يسألونهنّ ما لا يجدون عند الرجال، يقول

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 10/ 240).

(2) المرأة بين الفقه والقانون، الدكتور مصطفى السباعي، ص: 21، طبعة 2003.

تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34].

وأود أن أُذَكِّرَ القارئ الكريم: أن المعرفة (أقصد بها العلوم الطبيعية) التي نتلقاها في مدارسنا وحدها (دون علوم الدين) تسبب لنا الشقاء والدمار في كثير من الأحيان، وأن تلك المعرفة لوحدها قد تكون أداة للتخريب والطغيان أكثر من أن تكون أداة للإعمار والعدل ـ إذا فصلناها عن علوم الدين ـ . وهكذا نرى اليوم كيف انقلبت الحياة الدنيا إلى جحيم لا يحتمل، فإذا فهمنا الدين فهماً صحيحاً في المدارس والجامعات فإنه من دون شك سيبعدنا ذلك كثيراً مما نحن عليه من آثار الدمار والتفرقة، وحتى يبعدنا عن الفروقات الطائفية والعرقية إذ نتلقى من تلك المعرفة (علوم الدين) كيف أن الصغير يحترم الكبير ونتعرف على حقوقنا ذكراً أم أنثى وبالتفصيل، حيث أن تعاليم ديننا جعلتنا نتقن وسيلة التفاهم، وطرق التأثير على القلوب ليس فقط بيننا بل وحتى مع من هم من غير ديننا، كذلك يعلمنا كيف نتعامل مع الآخر ومتى نستخدم السلاح، ومتى نحارب العدو، وكيف نتصرف في الحروب. بقيم ديننا الحنيف نستطيع أن نغزو كل ناحية من نواحي أُمتنا حتى تشع في أبناء شعبنا الروح العالية، داعية إلى الخير بكل أفعالها وأقوالها وأخلاقها.

ولا بد من سائل يسأل: هل حرم ديننا المرأة من تعليم العلوم ابتداءً بالكيمياء والفيزياء وعلم الفلك والهندسة والطب؟ يكفينا الإجابة عن هذا السؤال قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ

قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عمران: 191].

إن النصوص الإسلامية التي وجه فيها الخطاب للرجال هي موجهة للنساء أيضاً، وفي كل الأحكام والعظات والتكاليف وأنواع التربية الإسلامية لم يكن مضمون الخطاب مما يتعلق بخصائص الرجال التكوينية، ما لم يصرح في الخطاب بأنه خاص بالرجال دون النساء.

إن علوم الدين تسعد الإنسان في الحياة، وإن الإسلام يوصي بتعلمها قبل الكسب، لماذا؟ لأن من دونه، سيكون هناك خيانة، رشوة، سرقة، كذب في الكسب، وفي كافة مجالات الحياة، والإسلام جملة وتفصيلاً ينهى عن كل ذلك. إذن إذا تعانق العِلمانِ (علوم الدين والدنيا) ـ ولم يفترقا ـ فإنهما يسعدان الإنسان في الحياة سعادة منقطعة النظير....، فخُلقٌ وعلم وسعادة وتقدم وحضارة.

وإن كان للقيادات التي تقود البلاد في العالم دين ـ ولا أستثني منهم بعض قيادات الدول العربية والإسلامية ـ لما وصل العالم ـ وشرقنا خاصة ـ إلى ما وصل إليه الآن. فكم أدى البشر ضرائب من ضحايا ودماء، وأعراض، ودموع، وأموال وديار،.... من جراء قيادتهم المنحرفة؟

وهل يعادل هذا بذاك؟ وكم لنا ـ أمثلة في عصرنا الحاضر عن طغاة فاقوا فرعون في طغيانهم. ـ هذا مع غض النظر عن كون الاختراعات هي وليدة أفكار طيبة وليس فيه جدل ـ إلا أن

هو مُنصب في القيادات الغاشمة الذين سُلِبَ منهم الإيمان. . .

نعم إن القيادات الغاشمة استغلوا الاختراعات لا للبناء والتعمير، إنما استغلوها للهلاك والتدمير، هكذا أوقعوا ـ هذه القيادات ـ البشرية في دوامة الحروب والثورات والفتن والقلاقل وأوقدوا فيها نار الكراهية والحقد والبغضاء، حتى أصبح كل أخ عدو أخيه، بعدما أخمدَ الرسل والأنبياء والمصلحون نيران النفوس المشتعلة بجهدهم المتواصل وعملهم الدؤوب.

وإن حُسْن الخُلق الذي هو من تعاليم الدين وهو من الفضائل الإنسانية، ويُعدُّ من أمارة الكمال البشري في أرقى مراتبه، حتى لم يُوصَفُ النبي ﷺ إلا بها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4]، في معرض مدحه وبيان فضله، وإنَّ خُلو المجتمع من القيادات الغاشمة يتبعه غالباً خُلوه من شراسة الأخلاق وَضِعَة السلوك، وإن المجتمعات التي يروقك شرف معاملاتها، وجمال آدابها، وصدق اتجاهاتها، هي هذه المجتمعات التي تأصَّل فيها العلم، وسادتها العافية، وتقاربت فيها العقول، وتساوت فيها الحقوق، وأمكن فيها التفاهم والتعارف. والتعلم فضيلة طالما أطنب الدين في مدحها حتى جعل منزلة العالم بين العباد، كمنزلة البدر بين سائر الكواكب! وحتى جعل فضل العالم تشهد به الطيور في الجو والحيتان في البحر!

فإذا ما نظرنا إلى أكثر قيادات الدول الغربية نرى شموخ التقدم العلمي الهائل في بلادهم، ولكن هل تحركهم (غالبية

الشعب) لدرء حروب تقوم بها حكوماتهم وتؤدي إلى سفك دماء الأطفال والنساء وقتل الشيوخ والعجائز؟ ولِمَ كلُّ هذا؟ لأنه لا دين لهم، فيخدعون شعوبهم بحجج واهية ويقنعونهم لتدمير البلاد وسلب الثروات. لو كان لحكامهم (وشعوبهم) دين لما فعلوا ذلك، فديننا لا يقبل سفك دم، ونهب ثروات، وسرقة نفط... إلخ، فالسرقة جريمة اجتماعية خلقية كبيرة، رتب عليها الدين عقوبة دنيوية، فالعقاب هنا ليست به شائبة ما دام القصد من تنفيذه، تأمين الحقوق، وصيانة الجهود، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال، لا السطو على كسب غيرهم والعيش به من حرام، فلو كان لدول الغرب دين لم يسطوا على كسب غيرهم والعيش به من حرام، إذن فعلوم الدين والالتزام بها تقي الإنسان والشعوب من السطو على ثروات الشعوب.

إلّا أن الاستعمار يهمه المال والاقتصاد ويسرقها من الشعوب الغنية، بحجج إنقاذ الشعوب من سطوة طاغية ـ لا دين له ولم يلتزم مثقال ذرة بمبادئه ـ وفي الحقيقة إذا ما قرأنا كتب التاريخ بدقة نرى أن الاستعمار هو الذي نصب كثيراً من الطغاة حكاماً على تلك الشعوب، إذن من تفقه بعلوم الدين لم يفعل ذلك، فالاستعمار لا دين له، ولو كان للطغاة إيمان وعلم بدينهم لما طغوا، فالإسلام إذ يبني عالماً يمتزج فيه الدين والدنيا، لخير الإنسانية ومستقبلها، فيربي امرأة تعرف واجباتها تجاه زوجها وشعبها وأولادها وحتى تجاه شعوب أخرى... فالمرأة التي تتعلم أمور دينها وكذلك دنياها هي المرأة الناضجة، فما الذي دفع بنت عمارة أن تدخل معركة أُحُدْ؟... في

الجواب نقول: الأخلاق الإسلامية التي كانت تمتلكها، كانت سبباً لجعل هذه المرأة بطلة مناضلة . . . .

وعن عمر ﷺ قال: لا بيع في سوقنا هذا إلّا من تفقه في الدين. أخرجه الترمذي، كذا في الكنز (2/ 218).

هـذا وقـد رحـب الـرسـول ﷺ بـطـالـبـي الـعـلـم: أخرج الطبراني[1] وأحمد[2] عن صفوان بن عسّال المرادي ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكئ على بُرد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم، فقال ﷺ: «مرحباً بطالب العلم».

فالعلم الذي ينادي به ديننا هو جميع العلوم وحتى علوم الـفـضـاء، لـقـولـه جـلّ وعـلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]، وإن الله تعالى في هذه الآية يُخاطب بني البشر ذكوراً كانوا أم إناثاً حينما يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ سيريهم ماذا؟ سيريهم بعض أسرار الكون. . . بفضل العلوم التي وهبها إياهم، هل نسينا الرحلات الفضائية والآفاق الجديدة عن الكون والفضاء وكيفية تكون الأرض وعلاقتها بالقمر؟ وكيف استطاع بعض الدول إنزال الإنسان على سطح القمر؟ وهذه التجارب ـ مع الأسف ـ كان علينا أن نقوم بها، ولكن مع ذلك قام بها آخرون ـ من غير ديننا ـ والآية الآنفة الذكر هي إثبات بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً، عليم حكيم

(1) «المعجم الكبير» (الحديث: 8/ 64).

(2) «مسنده» (الحديث: 4/ 239).

تتعلم أن السماد الفلاني هو لإكثار الخضار والآخر لإكثار الثمار، وعليها أن تعلم مضار وفوائد المبيدات الحشرية، وأن هذه العلوم ليست منحصرة في الرجال فقط.

كما أن إعداد المستطاع من القوة يأتي عن طريق العلم، فكان خيراً لنا ـ كمسلمين ـ أن نلمَّ بالصناعات المختلفة العسكرية والخدمية،... إلخ.

ورب سائل يسأل: لماذا نصنع السلاح، وآنفاً ذكرنا أن به ندمر الشعوب، نعم السلاح يستخدم للدفاع عن النفس ولإعلاء كلمة الدين، ويكون اللجوء إلى هذه الوسيلة في آخر الأمر، عندما لا تجد كل الوسائل السلمية في إبعاد نار الحرب. إذن فالسلاح واستخدامه هو لا لإبادة الشعوب، ولا لاستعمار الشعوب والسيطرة على ثرواتهم الطبيعية من النفط وغيرها، بل لإعلاء كلمة الله، قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» رواه الخمسة[1]...، فمع الأسف أننا ضيّعنا الدين والدنيا، لا علم لنا ولا سلاح، وسيطر الاستعمار علينا بشتّى الوسائل التي كان علينا أن نمتلكها قبلهم؛ لأن الدين أمرنا بذلك وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: 60] تأكيداً لذلك.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 2810)، وأخرجه مسلم في (الحيدث: 4896)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 2517)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1646)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2783).

هذا وبعد ذكر العلوم الطبيعية - بشتّى فروعها - وفوائدها للبشرية جمعاء، فإن الإسلام بصورة عامة قد أتاح التعلُّم للمرأة كما أتاح للرجل في عهد النبي ﷺ، وهو أمر بديهي ومبني على تساويهما أمام التكليف الشرعي والجزاء الأخروي.

وإذا تتبعنا ما في القرآن من الآيات، والأحاديث العامة التي رفعت من شأن العلم والعلماء فإن تلكم الآيات والأحاديث تنطبق على النساء كما تنطبق على الرجال سواء بسواء... وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

وقوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

ولا نبالغ أبداً إن قُلنا أننا لا نجد كتاباً حرص على العلم واهتم به كالقرآن العظيم، ودليلنا على ذلك هو الكلمة الأولى في وحيه ﴿اقْرَأْ ۝١﴾ [العلق: 1]، وهناك ما يزيد على ألف آية تحض على العلم، بعضها يرفع من شأن العلم والعلماء، وبعضها يعيب على الذين لا يستخدمون عقولهم في النظر والتعلم والسير في الأرض، وفحص الحقائق فيها وفي الكون، والتَّفَقُّهِ في الأشياء، والوصول فيها إلى علم يقيني بعد الظن

والخرص (التقدير الجزافي) والوهم والشك وهوى النفس[1].

فلا دين ولا مذهب في الحياة دفع الإنسان وحثَّه على العلم كما دفعه وحثه إليه الإسلام، وكما قلنا فإنه دفع الإنسان بشطريه الذكر والأنثى إلى مجالات العلم المختلفة وبكل قوة، إعلاناً منه أن السبيل إلى معرفة الله والإيمان به، والاستسلام لشرائعه العظيمة إنما هو طريق العلم.

ولما كان العلم هو الطريق الذي ينير للإنسان معرفة الله والإيمان به، وهو الطريق إلى معرفة الأحكام الشرعية التي يكلف بها الإنسان ذكراً كان أو أنثى، كان على هذا الأساس واجباً حتمياً على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ما يهديه إلى هذه الأمور المسؤول عنها مسؤولية شخصية أمام رب العالمين. إذ بالعلم يُميز الإنسان بين الحق والباطل والخير والشر، والنفع والضر، لهذا أمرنا رب العزة بالعلم.

إذن أين المغرضون الذين يقولون: إن الإسلام لا يشجع على تعليم المرأة؟ إن ذلك محض افتراء ظاهر وعلني على الإسلام.

---

(1) مكانة المرأة في القرآن والسنة الصحيحة، د. محمد بلتاجي، 2000، ص: 322-323، بتصرف.

المصادر العربية:

1 ـ شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة. تأليف الدكتور محمد علي الهاشمي 1996.

2 ـ الفتوى ـ العدد 76 ـ 1999، ص: 23.

3 ـ الفتوى ـ العدد 79 ـ 1999، ص: 22، مقالة للسيد نجاة جبار.

4 ـ الفتوى ـ العدد 77 ـ 1999، ص: 23، مقالة للسيد نجاة جبار.

5 ـ الفتوى ـ العدد 72 ـ 1999، ص: 22 مقالة للسيد ناجي عبد الله محمد المرسي ـ رئيس تحرير جريدة التجديد في اليمن.

6 ـ الفتوى ـ العدد 74 ـ 1999، ص: 13، مقالة أعدها عبد الهادي الزبيدي، وبتصرف من المؤلف.

7 ـ الفتوى ـ العدد 65 ـ 1998 ، ص: 19.

8 ـ الاحتشام تقتضيه الفطرة ـ بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.

9 ـ أجنحة المكر الثلاثة ـ تأليف عبد الرحمٰن حبنكة الميداني، 1980.

10 ـ كلمات مضيئة مهداة إلى المرأة، الشيخ ناجي النجار، 1978.

13 ـ نداء الروح، للدكتور فاضل صالح السامرائي.

14 ـ تعدد الزوجات في الإسلام، كيف؟ ولماذا، 1990، تأليف: رعد كامل مصطفى الحيالي.

15 ـ الإسلام والأسرة، معوّض عوض إبراهيم.

16 ـ حمدان، عنان، (1996). إيذاء الإناث في الأسرة الفلسطينية: دراسة اجتماعية ميدانية على عينة من الأسر في لواء طولكرم. رسالة ماجستير غير منشورة في الجامعة الأردنية. عمان. الأردن.

17 ـ عبد الوهاب، ليلى (1994). العنف العائلي: بيروت. لبنان. دار المدى للنضر والثقافة.

18 ـ العلامة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة الجزء الأول، جلد 1 ، ص: 237، 2003.

19 ـ المرأة بين الفقه والقانون، للدكتور مصطفى السباعي، طبعة 2003.

20 ـ مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، د. محمد بلتاجي، 2000.

21 ـ الحرية الإسلامية، محمد الحسيني الشيرازي، 1989.

المصادر الأجنبية:

1 - Hage, [redacted]. and Bushway, D. (2000) Posttraumatic stress disorder in women who are battered: Risk and protective factors. Manuscript Submitted for Publication.

2 - Davies, J. (1998). Safety planning of battered women. Copied by Sage Publication, Inc.

3 - Matlin, M. (2000). The psychology of women. (thed4) Harcourt College Publishers V.A.E.

4 - Walker, L.E.A. (2002). Abused women and survivor therapy: A practical guide for the psychotherapist. (thed4) Washington, DC: American Psychological Association.

5 - Knickrehem, K. and Teske, R. (2000). Attitudes towards domestic violence among Romanian and U.S. University students: A cros - cultural comparison. Journal of Women and Politics, 21(3), 27 - 49.

6 - Holtzworth - Munroe, A., Smutzler, N., Bates, L. and Sandin, E. (1997). Husband violence: Basic facts and clinical implications. In: W. Halford and h. Markman.

7 - Browne, K. and Herbert, M. (1997). Preventing family violence.ˇsted̀. England: john Wiley and Sine Ltd.

ـ أخذت المصادر الأجنبية من كتاب الدكتورة سهيلة محمود بنات.

من مؤلفات المؤلف:

1 ـ أمراض العصر، أسبابها والوقاية منها بالغذاء.

2 ـ العلم والإعجاز.

3 ـ الكيمياء الحياتية التطبيقية.

4 ـ نفحات من القرآن والسنة.

5 ـ كتاب عن الغذاء، باللغة الكردية.

6 ـ بحوث مقارنة بين العلم الحديث والكتاب والسنة.

7 ـ المعجزات الثلاث. الشاي الأخضر والخميرة وخل التفاح.

8 ـ الإعجاز القرآني في الوجود الكوني ـ دراسة مقارنة.

9 ـ التفسير الدقيق لكيمياء وتفاعلات الأحماض الأمينية والبروتينات.

10 ـ الغذاء المدهش.

11 ـ المرأة الحنونة وعظمة هذا الدين. وهو هذا الكتاب.

المؤلف

الأستاذ الدكتور دلاور محمد صابر:
ـ أستاذ الكيمياء الحياتية والطبية في جامعة صلاح الدين.
أربيل ـ إقليم كردستان ـ العراق.
ـ مختص في علم الأنزيمات والهرمونات.
خريج ألمانيا ـ جامعة شتوتجارت.

فهرس المحتويات

المقدمة 5

حديث المصطفى ﷺ عن المرأة وأسرار علمية جديدة حول دماغ حواء 10

الحب الارتقائي ونظرة الإسلام 35

أمثلة عن الحب الارتقائي 40

مصير أطفال الحب الارتقائي 43

نظرة شاخصة في الحب الارتقائي 45

النظام الاجتماعي الذي ينتظر الغرب، إذا تحقق وتعمم ما ذهب إليه الكاتبان الألمانيان 52

تعدد الزوجات 56

تعدد الزوجات وقصة (بيكنباور) ورأي الأعلام في ذلك . . . 56

تعدد الزوجات وهل منعُهُ في صالح المجتمع؟وموقف المرأة . . 61

حديث طريف جرى بين الدكتور مصطفى السباعي وبين أحد الغربيين حول تعدد الزوجات: 64

تعدد من الرجال، وهل يمكن ذلك؟ 67

علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام وقصة قيصر 70

حقوق المرأة في الإسلام مصانة 78

هل الإسلام أضاع حقوق المرأة السياسية والاجتماعية؟ 79

عيون الباطل وأهله 84

المفاوض العنيد 88

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ 92

قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ 98

هل في صالح المرأة أن تتكشف وتتبرج؟! 101

تساوي الرجل والمرأة أمام التكليف والجزاء 112

السبب الحقيقي في تعدد الزوجات، هل هناك تفسير علمي ثابت لذلك؟ ما هو؟ 116

الأسباب الأخرى لتعدُّد الزوجات؟ 129

حق المرأة في الميراث هل المرأة مظلومة أم رابحة؟ 130

مساوئ الرضاع الصناعي 137

اختلاط الجنسين، خاصة في الابتدائية والمتوسطة والثانوية . 140

متى يجوز اجتماع الرجال بالنساء؟ 144

هل أجاز الإسلام الاختلاط بين الرجال والنساء ومتى؟ . . 144

العنف ضد النساء، وتأديب المرأة في الإسلام 147

نظرة في إحصائيات العنف ضد المرأة 153

ضرب الزوجة، وأعداء الدين، وواقع الحال 165

سوء استغلال الدين لمآرب بعض الأزواج المنحرفين 169

الماسوشيزم (Masochism) وضرب المرأة 176

معاضدة النساء للرجال في ساحات الوغى 182

قصص لا تنسى 182
خروج امرأة من بني غفار مع رسول الله ﷺ 183
خروج امرأة وقصة عنزتها 184
خروج أم حرام بنت ملحان خالة أنس 185
خدمة النساء في الجهاد في سبيل الله 186
خدمة الرُّبَيِّع بنت معوذ وأم عطية وليلى الغفارية في الجهاد .. 186
خدمة عائشة وأُمّ سُلَيم أمُّ سَليط الأنصارية يوم أُحُدْ 187
خروج النساء للخدمة يوم خيبر 188
قتال النساء في الجهاد في سبيل الله: 190
قتال أم عمارة يوم أُحُدْ 190
قتال صفية يوم أُحُدْ ويوم الخندق 193
اتخاذ أُمّ سُلَيم خنجراً للقتال يوم حنين 195
قَتْلُ أسماء بنت يزيد تسعةً يوم اليرموك 195
أجر النساء أعظم .... يعدل ذلك كله 199

قدوة النساء في الإيمان .... 203.

آسية بنت مزاحم زوجة فرعون 203
قصة آسية بنت مزاحم 203
آسية في بلاط فرعون 205
مؤمنتان في القصر 209
اللحظات الأخيرة : 213

قدَّر الدين المرأة ووقرها كثيراً، وقد نزلت بشأنها آيات كثيرة ، وأحاديث شريفة ترفع من شأنها، وتلزم الرجل معاملتها بالمعروف، فالعنف الذي يمارس ضد المرأة باسم الدين، الإسلام بريء منه ، فهو دين يأبى العنف، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى...

لذلك تطرّق الكتاب لحقوق المرأة في الغرب وقارن حياتها بحياة المرأة في شرقنا من حيث حقوقها الاجتماعية والسياسية، وبيّن مقاصد بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تخصّ المرأة في ديننا الحنيف، وكثيراً ما تفسّر تلك الآيات والأحاديث من قبل الجاهلين بعلوم القرآن بشكل غير صحيح، وتطرّق أيضاً إلى موضوع تعدد الزوجات والميراث وغير ذلك من الأمور المحيطة بالمرأة وحياتها.

ISBN 9953-85-126-3

دار المعرفة
للطباعة والنشر
www.marefah.com